

مباحث

فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ

تأليف

الدكتور صبحي الصالح

استاذ في كلية الآداب بدمشق

دمشق ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م

مطبعة الجامعة السورية



N BOND

al-Sāliḥ, Ṣubḥī

Mabāḥith

مباحث

فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ

تأليف

الدكتور صبحي الصالح

استاذ في كلية الآداب بدمشق

دمشق ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م

طبعة الجامعة السورية

الأهداء

الى روح استاذي

المعلمة الشيخ عبد الكريم عويضة

الذي كان له في توجيهي النصيب الأوفى
وسيطل له في قلبي المكان الأسمى

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه

وبعد ، فهذا الكتاب ليس إلا مجموعة من المباحث القرآنية توخينا في عرضها السهولة والإيجاز ، ولم نقصد فيها إلى الاستقصاء والاستيعاب ، فهي محاولة لتبسيط العلوم الكثيرة المتعلقة بالقرآن ، وتقريبها إلى أذهان الباحثين من طلاب الثقافة الإسلامية العربية .

وهذه المباحث — في الأصل — محاضرات ألقىتها أكثرها على طلاب شهادة (علوم اللغة العربية) في كلية الآداب . والغاية الأساسية منها تمكين طلابنا خاصة والباحثين عامة من الاتصال بترائنا الإسلامي العربي الذي لن نجيا حياة طيبة إلا باذاعته ونشره واستخراج كنوزه .

ولعل هذه الدروس النظرية التي تناولنا بها أمهات العلوم القرآنية وتبعتها باختصار في نشأتها وتطورها ، أن تصير في أيدي طلابنا مفاتيح الدروس العملية في التفسير . وكان من الممكن أن يجيء الكتاب أكمل وأوفى لو عرضنا فيه لبحث الناسخ والمنسوخ ، وترجمة القرآن ومفاسدها ، وتوسعنا في مفهومنا الحديث لآعجاز القرآن ، ولكن هذه المباحث — مع دراسات أخرى تجاوزها — خليقة في نظرنا بكتاب مستقل نرجو أن نخرجه قريباً للمكتبة العربية .

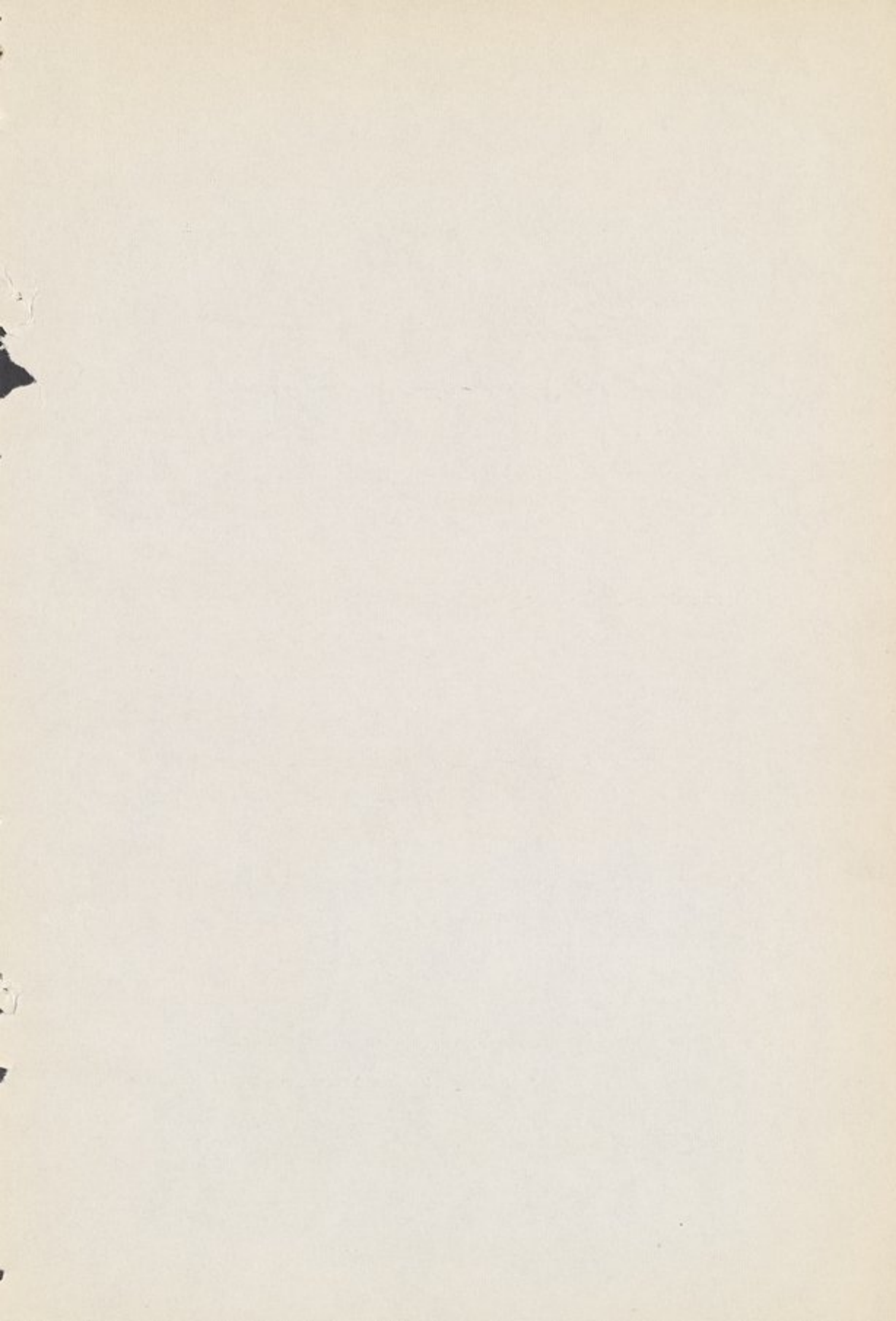
والله نسأل أن يجنبنا الزلل ، ويجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه ، ومشوقاً إلى دراسة كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه .

دمشق في ٢٧ رجب ١٣٧٧ هـ - ١٥ شباط ١٩٥٨ م .

صبي الصالح

2273

.897



آفاق الدراسة القرآنية

تمهيد

آفاق الدراسة القرآنية واسعة بعيدة المدى ، وقد اثرت ولا تزال تؤثر في مختلف الثقافات العربية والاسلامية ، فما من تيار فكري في تاريخ حضارتنا الا وقد برز فيه جانب من جوانب الموضوعات القرآنية التي قامت حولها المدارس والمذاهب والآراء . ودراستنا لعلوم القرآن ستلقي أضواء ساطعة على المجتمع العربي قبل الاسلام ، وعلى الحضارة التي أصابها بفضل هذا الدين الحنيف .

وعلوم القرآن عبارة عن مجموعة من المسائل يبحث فيها عن أحوال القرآن الكريم من حيث نزوله وادائه وكتابته وجمعه وترتيبه في المصاحف وتفسير الفاظه وبيان خصائصه الاسلوبية واغراضه ومعانيه . ولما كان اللفظ الشائع عن هذا العلم (علوم القرآن) بالجمع لا بالافراد ، فقد توسع بعضهم في ادخال ابحاث في القرآن ليست منه في شيء . ونحن في دراستنا هذه سنكون أكثر تحفظاً ، فلن نعنى الا بالدراسات القرآنية المحضة ، ولن نفهم القرآن الا على أنه كتاب هداية واعجاز .

هذا ابو بكر بن العربي^(١) لا تكفيه تلك المجموعة من المسائل التي تدور جميعاً حول القرآن ، فيرى في قانونه « التأويل » أن « علوم القرآن خمسون واربعمائة وسبعة آلاف وسبعون الف علم ، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة ، اذ أن لكل كلمة ظهراً وبطناً ، وحداً ومطلعاً : هذا في المفردات فحسب . أما اذا اعتبرت التراكيب وما بينها من روابط كان ما لا يحصى مما لا يعلمه الا الله تعالى »^(٢) .

وهذه - بلا ريب - مبالغات وتهويلات نزه الهداية القرآنية عن الخوض فيها . ومما يشبهها في العصر الحديث تفسير الشيخ طنطاوي جوهرى (الجواهر) فانه كتساب فيه كل شيء الا التفسير . فيه من الشروح المستنبهة ما يخرج عن جوهر الفكرة القرآنية كلما عرض لكلمة تتعلق بهذا الكون الفسيح كالمطر والشمس والقمر والنجوم .. الخ .. والواقع أن القرآن - ككتاب الهى يدعو الى الحق والخير ويهدي الناس الى الصراط المستقيم - متجه الى رسالة أعظم من هذه الكشوف العلمية التي هي حلقات متتابعة في سلسلة التجارب الانسانية . وقد نجد

(١) هو محمد بن عبد الله المعافري المعروف بابن العربي ، وهو من مشاهير فقهاء اشيلية ، توفي سنة ٥٤٤ (انظر الصلة لابن بشكوال ٥٩٩) .
(٢) هذه عبارة السيوطي في (الاتقان) نقلاً عن الزركشي في (البرهان) ص ١٦ - ١٧ مع اختلاف يسير . وانظر ايضاً ما ينقله الزركشي (ص ٢٥) عن ابي الربيع سليمان السبتي المعروف « ابن سبع » .

في القرآن اشارات عابرة الى بعض العلوم^(١) ، ولكنه لا يوجه اليها عنايته توجيهها كاملاً مباشراً ، وإنما يكتفي بتشجيع المؤمنين على اكتساب العلوم والمعارف ، وعلى الاستفادة من الكون الذي سخره الله لهم ليعمروه ويكتشفوا اسراره . فنحن بدون هذه المبالغات والتهويلات — التي سنناقشها في موضع آخر — نستطيع أن نقف في (علوم القرآن) وجهاً لوجه أمام دراسات واسعة تستدعي مجهوداً ضخماً ، واستعداداً طيباً ، وثقافة منوعة متشعبة ، وقد أشار العلماء الى تنوع هذه الثقافة وتشعبها حين حاولوا أن يستخرجوا من القرآن الموضوعات التي اشتمل عليها ، والكليات التي تضمنها ، فعبروا عن ذلك تعبيرات مختلفة مسهبة تارة وموجزة أخرى ؛ فأما شيخ المفسرين الطبري^(٢) فكان يرى أن القرآن «يشتمل على ثلاثة أشياء : التوحيد ، والاخبار ، والديانات ولهذا قال ﷺ : « قل هو الله أحد » تعدل ثلث القرآن ؛ وهذه السورة تشمل التوحيد كله^(٣) . وهذه الاشياء الثلاثة كليات كبرى

(١) انظر على سبيل المثال تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا ٢١٠/١

- ٢١٥ (اعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر) .

(٢) هو امام المفسرين وصاحب التاريخ المشهور محمد بن جرير الطبري ،

ويكنى ابا جعفر ، توفي سنة ٣١٠ (وسيرد ذكره في فصل التفسير) (انظر

ترجمته في إنباه الرواة ٨٩/٣) .

(٣) نقل الزركشي هذا النص في البرهان ١٨/١ .

تندرج تحتها جزئيات وفروع حاول الرماني^(١) ان يفصل إجمالها ، ليوضح سعة الآفاق القرآنية وبعد مداها فقال : « القرآن يشتمل على ثلاثين شيئاً : الإعلام ، والتنبيه ، والأمر ، والنهي ، والوعد ، والوعيد ، ووصف الجنة والنار ، وتعليم الاقرار باسم الله وصفاته وأفعاله ، وتعليم الاعتراف بانعامه ، والاحتجاج على المخالفين ، والرد على الملحدين ، والبيان عن الرغبة والرغبة ، والخير والشر ، والحسن والقيح ، ونعت الحكمة ، وفضل المعرفة ، ومدح الابرار ، وذم الفجار ، والتسليم ، والتحسين ، والتوكيد ، والتفريع ، والبيان عن ذم الاخلاف ، وشرف الاداء »^(٢) ؛ ولكن القاضي شيدلة^(٣) لم تعجبه تفصيلات الرماني ورأى أن كثرة التفصيل ليست هي الوسيلة الصالحة لاستنباط حقائق القرآن التي لا تنهاى ، وعجائبه التي لا تحصى ، فستظل جزئيات كثيرة منها يتنبه اليها بعض العلماء غير مندرجة تحت جزئيات آخر استنبطها علماء سابقون أو لاحقون ، فلا مسوغ

(١) الرماني : هو النحوي اللغوي المفسر علي بن عيسى علي ، توفي سنة ٣٨٤ (انظر إنباه الرواة ٢/٢٩٤) .

(٢) البرهان ١/١٨ .

(٣) شيدلة هو الفقيه الشافعي أبو المعالي عزيزي (بضم العين) بن عبد الملك ، مؤلف (البرهان في مشكلات القرآن) توفي سنة ٤٩٤ (انظر شذرات الذهب ٣/٤٠١ وفيات الاعيان ١/٣١٨) .

للتفصيل ، ولا معنى للتحديد . وهذا الفهم السديد نجده في قول
شيدلة : « وعلى التحقيق إن تلك الثلاثة التي قالها محمد بن جرير تشمل
هذه كلها بل أضعافها ؛ فإن القرآن لا يستدرك ولا تحصى عجائبه ، قال
تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو »^(١) .

ونحن لانزعم في دراستنا هذه أننا سنفصل القول في جميع العلوم
التي لها بالقرآن صلة من قريب أو بعيد ، فإن ألوف المجلدات لاتستوعب
معشار ما قيل وما يمكن أن يقال في هذه العلوم ، وإنما نحاول بكتابنا
هذا تبسيط عدد لا يستهان به من المباحث القرآنية التي نحن فيها كلها
عالة على سلفنا الصالح وعلمائنا الاتقياء الابرار ، تتفقه بأثارهم ،
ونستضيء بأنوارهم ، ونجد الهدى والرشد عندهم . وسنجعل نصب
أعيننا ونحن نمضي قدماً في بحثنا أن الثروة التي ينطوي عليها كتاب الله
لا ينضب معينها ، ولا يغيض ماؤها ، ف « كتاب الله بجره عميق ،
وفهمه دقيق ، لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم ، وعامل الله
بتقواه في السر والعلانية ، وأجله عند مواقف الشبهات . واللطائف
والحقائق لا يفهما إلا من ألقى السمع وهو شهيد : فالعبارات
للعوم وهي للسمع ، والاشارات للخصوص وهي للعقل ، واللطائف
للاولياء وهي المشاهد ، والحقائق للانبياء ، وهي الاستسلام »^(٢) .

(١) البرهان ١٩/١ .

(٢) البرهان ١٥٣/٢ - ١٥٤ .

وأمام هذا البحر العميق من الاسرار والحقائق والمشاهدات لن يكون لنا مطمع في تصور آفاق القرآن فضلاً عن إدراك مداها البعيد إذا قنعنا من العلوم القرآنية بوجه واحد من أوجه فهمها ، فلا أدل على الثروة المعنوية في كتاب الله من احتمال تعدد الوجوه، وتباين المفهومات ، وكثرة التأويلات ، لا يُرادُ بها إظهار قوة الساعد ، بل تدبر القرآن وتذوق حلاوته^(١) . وفي هذا المعنى كان أبو الدرّداء (رض) يقول : « لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً »^(٢) .

على أن تعدد الوجوه في كل علم من علوم القرآن لا يعني استحساننا إبقاء التعارض في الآراء ، والتضارب في التفاسير ، حتى ليكون من الامور القياسية كما يقرر الغزالي - وجود آيات لها معان خمسة ، وأحياناً ستة أو سبعة كلها منصوص عليها^(٣) ، فهذا في كتبنا شر البلاء ، وأصل الداء ، ولا بد لنا في كل موضوع من وجه نختاره ، وتأويل نرضاه ونر كن إليه ؛ ولكن اختيار الرأي شيء والقطع بأن مراد الله كذا شيء آخر ، فلتدبر القرآن ، ولنحاول ترجيح رأي فيه على

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرّص ١٢١ واحسن التقاسيم للمقدسي (نشر دى غويه) ص ٨٧ .

(٢) البرهان ١٥٤/٢ .

(٣) احياء علوم الدين ٣٧/١ (وقارن هذا بتعليق جولدزيرر عليه في (مذاهب التفسير الاسلامي ص ١٠٧) الترجمة العربية .

رأي ، ثم لنعترف أخيراً أننا في ترجيحنا لم نصب إلا أحد الاحتمالات ، وأنه لا يعلم تأويل كنهه إلا الذي أنزله^(١) .

وفي مجال الاحتمالات وتعدد الوجوه في القرآن ، وتفويض الحقائق الى الله ، لن نبيح لانفسنا الرجم بالغيب ، وسنميز بين روح التقوى تسود أبحاثنا القرآنية وبين التفكير الاسطوري الخرافي يفسد علينا فهمنا للحقائق ، فقد نرتضي قول الزركشي : « في القرآن علوم الاولين والآخرين » ولكننا لانرتضي تفسيره لهذه العبارة مباشرة بقوله : « وما من شيء إلا ويمكن استخراج منه لمن فهمه الله تعالى ، حتى إن بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين من قوله تعالى في سورة المنافقين « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » ، فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن (أي النقص) في فقهه ؛ وقوله تعالى مخبراً عن عيسى : « قال إني عبد الله آتاني الكتاب »

(١) وهذه التفرقة الواضحة بين فكري الترجيح والجزم نستطيع ان نفند آراء جوينبول وسفاجيه وجولدزيهر وبلاشير حول ما يزعمونه من تناقض التفسير بالمأثور ، وتضارب الاحاديث في حقيقة الموضوع الواحد الذي يبينه الرسول ﷺ بنفسه او الصحابي تلقياً عنه صلوات الله عليه . (وانظر على سبيل المقارنة والاطلاع : Juynboll, Encycl. de l'Islam, II, 201 sqq ; J. Sauvaget, Intr. à l'Histoire de l'Orient musulman T.I de l'Initiation à l'Islam 28, sqq; Blachère, Intr. au Coran, 3 .

وجولدزيهر (مذاهب التفسير الاسلامي ص ١٠٤ - ١٠٦) .

الى قوله (أبعث حياً) ثلاث وثلاثون كلمة ، وعمره ثلاث وثلاثون سنة . وقد استنبط الناس زلزلة عام اثنين وسبعمئة من قوله تعالى : « إذا زلزلت الارض زلزالها » فإن الالف باثنين ، والذال بسبعمئة . وكذلك استنبط بعض أئمة العرب فتح بيت المقدس وتخليصه من أيدي العدو في أول سورة الروم بحساب الجمل ، وغير ذلك ^(١) فهذا كله من التخرصات والظنون والاهام .

ولكيلا نخبط في دراستنا هذه خبط المتخرصين على عمى ، المبالغين جهالة وهوى ، رأينا أن نتجه اتجاهين أساسيين ، أحدهما تاريخي نستعرض به كل مايجب أن نعلمه عن القرآن حتى وصل الينا في حالته الراهنة ، وعن آراء علمائنا السالفين فيه . والآ خر أدني في تذوقه بالاسلوب القرآني ونعيش فيه وندرك مراميه ، وتتبع فيه العنصر الجمالي الذي قد تنبه الاقدمون إلى نصيب منه غير ضئيل .

وأهمية (علوم القرآن) حملت الشيخ طاهر الجزائري في كتابه (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) على دعوة المشتغلين بالتفسير إلى البدء بهذا العلم الذي يلخص تاريخ القرآن وما يتعلق به فقال : « انه المقدمة الصغرى من مقدمتي التفسير » وانك لا تبعد ولا تخطيء إذا سميت هذا العلم « مفتاح التفسير » .

القرآن : اسماؤه وموارده استقافها

جدير بنا - قبل أن نخوض في هذه المباحث القرآنية - أن نعرف معنى لفظ (قرآن) الذي سمي الله به كتابه ، ثم معاني سائر الاسماء التي أطلقها عليه واختارها له ، فنحن بلا ريب نلاحظ - كما لاحظ الجاحظ من قبل - أن الله سمي كتابه اسماً مخالفاً لما سمي العرب كلامهم جملة وتفصيلاً^(١) وقد ذهب العلماء في لفظ (القرآن) مذاهب ، فهو عند بعضهم مهموز وعند بعضهم الآخر غير مهموز . فمن رأى أنه بغير همز الشافعي والفراء^(٢) والاشعري^(٣) .

(آ) يقول الشافعي : إن لفظ القرآن المعروف بال ليس مشتقاً ولا مهموزاً ، بل ارتجل ووضع عالماً على الكلام المنزل على النبي (ﷺ) . فالقرآن عند الشافعي « لم يؤخذ من قرأت ، ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قرآناً ، ولكنه اسم للقرآن ، مثل التوراة والانجيل »^(٤)

(١) الاتقان ١/٨٦ .

(٢) الفراء هو احد نحاة الكوفة واثمتها المشهورين في اللغة ، واسمه يحيى بن زياد الديلمي ، ويكنى ابا زكريا ، له كتاب في معاني القرآن ، توفي سنة ٢٠٧ (انظر طبقات الزبيدي ص ١٤٦ وفيات الاعيان ٢/٢٢٨) .

(٣) هو الامام ابو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري الذي تنسب اليه الطائفة الاشعرية . وكتبه مشهورة في الرد على المبتدعة من الجهمية والحوارج والرافضة ، توفي سنة ٣٢٤ (انظر وفيات الاعيان ١/٣٢٦) .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب ٢/٦٢ .

ب) ويقول الفراء : انه مشتق من القرائن ، جمع قرينة ، لأن آياته يشبه بعضها بعضاً فكأن بعضها قرينة على بعض ، وواضح أن النون في (قرائن) أصلية^(١) .

ج) ويقول الأشعري وأقوام يتابعونه على رأيه : انه مشتق من (قرن الشيء) إذا ضمه إليه ، لأن السور والآيات تقرن فيه ويضم بعضها إلى بعض^(٢) .

ومجرد القول بعدم الهمز في هذه الآراء الثلاثة كاف للحكم ببعدها عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة .

ومن رأى أن لفظ (القرآن) مهموز الزجاجة^(٣) واللحياني^(٤) وجماعة .

آ) يقول الزجاجة : ان لفظ (القرآن) مهموز على وزن فُعْلان ، مشتق من القراء بمعنى الجمع . ومنه قرأ الماء في الحوض إذا جمعه ، لأنه جمع ثمرات الكتب السابقة^(٥) .

(١) الاتقان ١/٨٧ .

(٢) البرهان ١/٢٧٧ .

(٣) الزجاجة : هو إبراهيم بن السري ، ويكنى ابا اسحاق ، صاحب كتاب (معاني القرآن) توفي سنة ٣١١ (انظر إنباه الرواة ١/١٦٣) .

(٤) اللحياني : هو ابو الحسن علي بن حازم ، اللغوي المشهور المتوفى سنة ٢١٥ ، وقد افاد ابن سيده من كتبه في تأليف (المخصّص) .

(٥) البرهان ١/٢٧٨ .

ب) ويقول اللحياني : انه مصدر مهموز بوزن الغفران ، مشتق من قرأ بمعنى تلا ، سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر ^(١) .
والرأي الاخير أقوى الآراء وارجحها ، فالقرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى (إن علينا جمعه وقرأناه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) .

والواقع أن العرب قد عرفوا لفظ (قرأ) بمعنى غير معنى التلاوة فهم يقولون : هذه الناقة لم تقرأ سلاً قط ، يقصدون أنها لم تضم بمعنى لم تلد ولداً .

اما قرأ بمعنى (تلا) فقد أخذها العرب من أصل آرامي وتداولوها ، فن المعروف كما يقول برجشتراسر G.Bergsträsser أن اللغات الآرامية والحبشية والفارسية تركت في العربية آثاراً لا تنكر لأنها كانت لغات الاقوام المتمدينة المجاورة للعرب في القرون السابقة للهجرة .

ولا ينبغي أن نستغرب هذا ، فان الآرامية على اختلاف لهجاتها كانت سائدة في كل بلاد فلسطين وسورية وبين النهرين وبعض العراق . وجوار العرب لليهود الذين كانت لغتهم الدينية الآرامية ساعد على انتشار عدد لا يستهان به من الالفاظ الدينية الآرامية . وقد أشار الى هذا المستشرق كرنكو (Krenkow) في بحثه عن لفظ (كتاب) في

(١) الاتقان ١/٨٧ .

دائرة المعارف الاسلامية. ^(١) ونقل عدداً من الكلمات الدينية الآرامية وغير الآرامية المستشرق بلاشير (Blachère) مؤكداً استعمال العرب لها بحكم الجوار مع اليهود وسواهم من أصحاب الملل. ^(٢) ونذكر من تلك الالفاظ (قرأ - كتب - كتاب - تفسير - تلميد - فرقان قيوم - زنديق - دجال) الخ....

ومهما يكن من شيء ، فان تداول العرب قبل الاسلام للفظ (قرأ) الآرامي الاصل بمعنى (تلا) كان كافياً لتعريبه واستعمال الاسلام له في تسمية كتابه الكريم .



ومن اسماء القرآن الفرقان. قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيراً) ^(٣) ولفظ الفرقان في الاصل آرامي ، ومادته تفيد معنى التفرقة ، كأن في التسمية اشعاراً بتفرقة هذا الكتاب بين الحق والباطل .

ومنها الكتاب (ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه ^(٤)) والفاظ الكتابة

Krenkow, Encyclopédie de l'Islam (art. Kitab) II, 1104 (١)

. Blachère, Le Coran, Introduction, 5 (٢)

(٣) سورة الفرقان ١

(٤) سورة البقرة ٢

من أصل آرامي كذلك ، وفيها معنى الجمع ، لان الكتابة جمع للحروف
« فاشتق الكتاب لذلك ، لانه يجمع أنواعاً من القصص والآيات
والاحكام والاخبار » .

ومنها الذكر (وهذا ذكر مبارك أنزلناه^(١)) وهو عربي خالص ،
ومعناه الشرف ، ومنه قوله تعالى (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكر^(٢)كم)
ومنها التنزيل (وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين^(٣)) وهو عربي خالص
كذلك : يشعر بأنه وحى يوحى ، ويتنزل على قلب الرسول الكريم .
وهذه الاسماء هي الشائعة المشهورة . غير أن بعضهم بالغ في تعداد
أسماء القرآن ، فالزر كشي يذكر منها خمسة وخمسين نقلاً عن القاضي
شيدلة^(٤) . ولا ريب أنه خلط فيها بين التسمية والوصف ، فن أسماء
القرآن مثلاً (العلي) لقوله تعالى (وانه في أم الكتاب لدينا علي حكيم)^(٥)
ومنها (المجيد) لقوله (بل هو قرآن مجيد)^(٦) ومنها العزيز لقوله
(وإنه لكتاب عزيز)^(٧) ، ومنها العربي ، لقوله (قرآناً عربياً)^(٨)

(١) سورة الانبياء ٥٠

(٢) سورة الانبياء ١٠

(٣) سورة الشعراء ١٩٢

(٤) سبقت ترجمته ص ٤ حاشية ٣

(٥) سورة الزخرف ٤١ (وانظر البرهان ١/٢٧٤)

(٦) سورة البروج ٢١ (وانظر البرهان ١/٢٧٦)

(٧) سورة فُصِّلَتْ ٤١ (وانظر البرهان ١/٢٧٦)

(٨) سورة الزمر ٢٨ (وانظر البرهان ١/٢٧٥)

وهكذا ويذكر الشيخ طاهر الجزائري في (التبيان) أن بعض العلماء^(١) بلغ باسماء القرآن نيفاً وتسعين .
والقرآن - بأي اسم سميته - هو الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ المكتوب في المصاحف ، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبد بتلاوته .
وتعريف القرآن على هذا الوجه متفق عليه بين الاصوليين والفقهاء وعلماء العربية .



(١) وهو الحرّالتيّ ، كما في البرهان ٢٧٣/١ . وينسب الحرّالي الى قرية من اعمال مرسية تسمى حرّالته ، وهو عليّ بن أحمد بن الحسن التجيبيّ ، ويكنى ابا الحسن ، توفي سنة ٦٤٧ (النجوم الزاهرة ٦٥/٣١٧ شذرات الذهب ١٨٩/٥) .

لمحة تاريخية

عن علوم القرآن

كان الصحابة عرباً خالصاً يتذوقون الاساليب الرفيعة ، ويفهمون ما ينزل على رسول الله (ص) من الآيات الينيات ، فاذا اشكل عليهم فهم شيء من القرآن سألوا عنه النبي عليه السلام « كسؤالهم ^(١) » لما نزل (ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) ^(٢) فقالوا أين لم يظلم نفسه افسره النبي صلى الله عليه وسلم بالشرك ، واستدل عليه بقوله تعالى (انَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ^(٣) أما رسول الله (ﷺ) فقد آتاه الله الكتاب وعلمه ما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيماً . فلم تكن الحاجة ماسة الى وضع تآليف في علوم القرآن في عهد الرسول والصحابة ^(٤) .

(١) البرهان ١٤/١

(٢) سورة الانعام ٨٢ .

(٣) سورة لقمان ١٣ .

(٤) اما قصة عدي بن حاتم فانها حادثة فردية لا تنطبق على جمهور الصحابة الكرام ، ولذلك قال له عليه السلام : (إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ) كناية عن بطن الفهم . واليك القصة كما في صحيح مسلم في (كتاب الصوم) : « لما نزلت (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) قال له عدي =

وكان الصحابة غالباً أميين ، ولم تكن ادوات الكتابة متيسرة لديهم ، فكان ذلك حائلاً ايضاً دون التأليف في هذا العلم . زد على ذلك ان رسول الله ﷺ نفسه قد نهاهم ان يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن وقال لهم اول العهد بنزول الوحي « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحهُ . وحدثوا عني فلا حرج . ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار^(١) » وكان ذلك مخافة ان يختلط القرآن بما ليس منه . ولقد ظلت علوم القرآن تروى بالتلقين والمشافهة على عهد رسول الله (ﷺ) ثم على عهد الشيخين أبي بكر وعمر . وفي خلافة عثمان بدأ اختلاط العرب بالاعاجم ، وأمر عثمان أن يجتمعوا على مصحف إمام وأن تنسخ منه مصاحف للامصار ، وأن يحرق الناس كل ما عداها . وسنرى تفصيل ذلك والاسباب الداعية اليه .

ويعيننا الآن ان عثمان بنسخ المصاحف قد وضع الاساس لما سمي فيما بعد (علم رسم القرآن او علم الرسم العثماني) .

وقد اشتهر ايضاً ان علياً رضي الله عنه أمر أبا الاسود الدؤلي^(٢) (المتوفى سنة ٦٩) بوضع بعض القواعد للمحافظة على سلامة اللغة

= يارسول الله ، اني اجعل تحت وصادتي عقاين : عقلاً أبيض وعقلاً اسود ، اعرف الليل من النهار ، فقال رسول الله ﷺ : انّ وصادك لعريض ، انما هو سواد الليل وبياض النهار .

(١) رواه مسلم في صحيحه عن ابي سعيد الخدري (رض) .

(٢) انظر ترجمته في إنباه الرواة ١٣/١ - ٢٣ تهذيب التهذيب ١٢/١٠-١٢

العربية . فكان عليّ بذلك واضع الاساس لعلم اعراب القرآن .

وفي وسعنا ان نقول : ان الممهدين لهذا العلم هم :

١ - الخلفاء الاربعة وابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت

وابو موسى الاشعري وعبد الله بن الزبير ، من الصحابة .

٢ - مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن

جبير وزيد بن أسلم في المدينة ، من التابعين .

٣ - مالك بن أنس من اتباع التابعين ، وقد أخذ عن زيد بن أسلم .

هؤلاء هم الواضعون لما نسميه علم التفسير ، وعلم اسباب النزول ،

وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم غريب القرآن .

وفي عصر التدوين كان التفسير قبل كل شيء ، لانه أم العلوم

القرآنية . ومن اشتغلوا فيه وصنفوا :

من علماء القرن الثاني . شعبة بن الحجاج^(١) ، وسفيان بن عيينة^(٢) ،

(١) هو محدث البصرة وامير المؤمنين في الحديث شعبة بن الحجاج بن

الورد العنكي الازدي الواسطي ، ويكنى ابا بسطام ، رأى أنس بن مالك

رضي الله عنه ، وسمع اربعمائة من التابعين . وهو حجة عند جميع الائمة .

توفي سنة ١٦٠ هـ .

(٢) هو شيخ اهل الحجاز في التفسير والحديث ، سفيان بن عيينة

الهلالي الكوفي ، توفي سنة ١٩٨ (انظر تذكرة الحفاظ ٢٤٢/١) .

ووكيع بن الجراح^(١) وكانت تفاسيرهم جامعة لاقوال الصحابة والتابعين . ثم تلاهم ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ (وتفسيره هو أجل التفاسير ، فيه اعراب واستنباط وآراء قيمة) .

ووجد التفسير بالرأي الى جانب التفسير بالمأثور ، وفسر القرآن كله وجزء منه وسورة وأحياناً آية أو آيات خاصة كآيات الاحكام .
اما علوم القرآن الاخرى فقد الف :

في القرن الثالث علي بن المديني^(٢) شيخ البخاري في أسباب النزول ، وأبو عبيد القاسم بن سلام^(٣) في النسخ والمنسوخ .
وفي القرن الرابع أبو بكر السجستاني^(٤) في غريب القرآن .

(١) هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي ، ويكنى أبا سفيان الرؤاسي الكوفي ، من قيس عيلان . سمع ابن جريج والاعمش والاوزاعي وسفيان الثوري ، وروى عنه عبد الله بن المبارك ويحيى بن آدم واحمد بن حنبل وعلي بن المديني ، ولد سنة ١٢٨ وتوفي سنة ١٩٧ . وفيه يقول احمد بن حنبل ويحيى ابن معين : الثبّت عندنا في العراق وكيع (انظر تاريخ بغداد ٤٦٦/١٣ - ٤٨١) .

(٢) هو علي بن عبد الله بن جعفر ، ويكنى أبا جعفر ، وهو سعدي بالولاء ، توفي سنة ٢٣٤ (انظر تذكرة الحفاظ ١٥/٢ - ١٦ وشذرات الذهب ٨١/٢) .

من أئمة الحديث واللغة . ومن أجل كتبه (غريب الحديث) .

(٣) توفي سنة ٢٢٣ (انظر ترجمته في انباه الرواة ١٢/٣) .

(٤) هو محمد بن عزير بن العزيزي السجستاني ، توفي سنة ٣٣٠ (بغية الوعاة ٧٢) قال السيوطي في (الاتقان ١/١٩٥) عند ذكر كتاب السجستاني المسمى (غريب القرآن) : « اقام في تأليفه خمس عشرة سنة بجرده هو وشيخه ابو بكر بن الانباري » .

- وفي القرن الخامس علي بن سعيد الحوفي^(١) في اعراب القرآن .
وفي القرن السادس ابو القاسم عبد الرحمن المعروف بالسهيلى^(٢)
في مبهمات القرآن .
وفي القرن السابع ابن عبد السلام^(٣) في مجاز القرآن .
وعلم الدين السخاوي^(٤) في القراءات .

(١) هو علي بن ابراهيم الحوفي المصري ، صاحب كتاب البرهان في تفسير القرآن ، وكتاب اعراب القرآن . توفي سنة ٤٣٠ (حسن المحاضرة ٢/٢٢٨؛ إنباء الرواة ٢/٢١٩) وسيرد ذكر كتابه (البرهان) الذي لا يزال مخطوطاً .

(٢) هو عبد الرحمن بن عبدالله بن احمد السهيلى ، ويكنى ابا القاسم ، توفي بمراكش سنة ٥٨١ ، و كتابه (مبهمات القرآن) يذكره صاحب كشف الظنون باسم (التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الاسماء والاعلام) وهذا الاسم الواضح يبين الغاية منه . وفي دار الكتب بالقاهرة وفي المكتبة التيمورية نسخ خطية منه . وللسهيلى أيضاً كتاب الروض الأُنْف على سيرة ابن هشام (انظر ترجمته في إنباء الرواة ٢/١٦٢) .

(٣) هو شيخ الاسلام الامام ابو محمد عبد العزيز بن عبد السلام ، المشهور بالعزى ، توفي سنة ٦٦٠ (طبقات الشافعية ٥/٨٠-١٠٧ شذرات الذهب ٥/٣١٠) .

(٤) هو علي بن محمد بن عبد الصمد المشهور بالسخاوي ، توفي سنة ٦٤٣ ، وله في القراءات منظومة تعرف بالسخاوية ، وتسمى (هداية المرتاب في المتشابه) ولا يريد بالمتشابه ما يقابل المحكم ، وإنما يراد قصة الواحدة في القرآن في صور شتى وفواصل مختلفة ، تصرفاً في الكلام ليحيى على اساليب متنوعة (انظر ترجمة السخاوي في وفيات الاعيان ١/٥٣٤ ، وانظر البرهان ١/١١٢ النوع الخامس (علم المتشابه)

ثم نشأت علوم جديدة في القرآن : بدائع القرآن^(١) ، حجج القرآن^(٢) ، أقسام القرآن^(٣) ، أمثال القرآن^(٤) .

وكانت طريقتهم استقصاء جزئيات القرآن : لذلك وجب اختصار تلك العلوم في علم موحد جديد سموه (علوم القرآن) .

ونحن لا نعلم أحداً قبل علي بن ابراهيم الحوفي الذي سبق ذكره الف أو حاول أن يؤلف في (علوم القرآن) بالمعنى المدون . لكن هذه العلوم كانت مجموعة في صدور المبرزين من العلماء .

وفي تاريخ الشافعي (رض) في محتته التي اتهم فيها بأنه رئيس حزب العلويين باليمن ، سيق مكبلاً بالحديد الى الرشيد في بغداد ،

(١) وهو علم يبحث فيه عما ورد في القرآن من أنواع البديع ، وقد أفرده بالتصنيف ابن أبي الإصبع (انظر الاتقان ٢/١٤٠ - ١٦٠ النوع الثامن والخمسون) .
(٢) ويسمى أيضاً علم جدل القرآن ، ويراد منه أن كتاب الله نطق بجميع أنواع البراهين والادلة ، ولكن على اساليب العرب لا طرائق المتكلمين . وقد أفرده بالتصنيف نجم الدين الطوفي (سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم) المتوفي سنة ٧١٦ هـ في (الدرر الكامنة ٢/١٥٤) وفيما يتعلق بهذا العلم انظر الاتقان ٢/٢٢٩ - ٢٣٣ النوع الثامن والستون والبرهان ٢/٢٤ - ٢٧ النوع الثالث والثلاثون) .

(٣) انظر الاتقان ٢/٢٢٥ - ٢٢٨ (النوع السابع والستون) وقد أفرده بالتصنيف العلامة ابن القيم . ومن المتأخرين عبد الحميد الفراهي الهندي في كتابه (إمعان في أقسام القرآن) .

(٤) انظر بعض الشواهد على هذا العلم في الاتقان ٢/٢٢٢ - ٢٢٥ النوع السادس والستون) .

فسأله الرشيد : كيف علمك يا شافعي بكتاب الله عز وجل ؟ فانه أولى الاشياء أن يبدأ به . فقال الشافعي : عن أي كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين ؟ فان الله قد أنزل كتباً كثيرة . قال الرشيد : قد أحسنت ، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمي محمد صلى الله عليه وسلم فقال الشافعي : ان علوم القرآن كثيرة ، فهل تسألني عن محكمه ومتشابهه ؟ أو عن تقديمه وتأخيره ؟ أو عن ناسخه ومنسوخه ؟ أو عن أو عن ^(١) . . . ولعل اصطلاح (علوم القرآن بالمعنى المدون) لم يبدأ ظهوره إلا بكتاب (البرهان في تفسير القرآن) لعلي بن ابراهيم المشهور بالحوفي (ت سنة ٤٣٠) . ويقع في ٣٠ مجلداً ، يوجد منه ١٥ غير مرتبة ولا متعاقبة . وهو نسخة مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة برقم ٥٩ تفسير . وليس هذا الكتاب أكثر من تفسير يشتمل على بعض علوم القرآن . وفيه يقول صاحب كشف الظنون : « ذكر فيه الغريب والاعراب والتفسير » .

وفي القرن السادس ألف ابن الجوزي (ت ٥٩٧) كتابين أحدهما (فنون الافنان في عجائب علوم القرآن) ^(٢) والثاني (المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن) . وهما مخطوطان في دار الكتب بالقاهرة .

(١) ذكر ذلك الامام جلال الدين البلقيني في كتابه (مواقع العلوم من مواقع النجوم) انظر (مناهل العرفان للزرقاني ١/٢٦) .

(٢) وفي المكتبة التيمورية مخطوطة غير كاملة من فنون الافنان برقم ٢٢٢ تفسير .

وفي القرن السابع صنف علم الدين السخاوي (ت ٦٤١) كتابه
(جمال القراء وكمال الإقراء)^(١) وأبو شامة^(٢) (ت ٦٦٥) المرشد
الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز .

وفي القرن الثامن ألف بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤)^(٣) البرهان
في علوم القرآن. وقد أشرف على تحقيقه ونشره الاستاذ محمد أبو الفضل
ابراهيم وأوشك أن يتم طبعه .

وفي القرن التاسع كثر التأليف ، فصنف جلال الدين البلقيني^(٤)

(١) سبقت ترجمة السخاوي ص ١٩ حاشية ٤. ويفهم من (كشف الظنون)
أن كتاب (جمال القراء وكمال الإقراء) يشتمل على علوم القراءات والتجويد
والوقف والابتداء والناسخ والمنسوخ .

(٢) أبو شامة هو الفقيه الشافعي عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن
عثمان المقدسي ، وله غير (المرشد الوجيز) شرح على الشاطبية المشهورة في القراءات
توفي سنة ٦٦٥ هـ (انظر شذرات الذهب ٣١٨/٥) .

(٣) هو الامام بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي ، من اعلام
المفسرين والاصوليين . ولد سنة ٧٤٥ وتوفي سنة ٧٩٤ (انظر ترجمته ومصادر
في مقدمة كتابه (البرهان في علوم القرآن) الذي حققه ونشره الاستاذ محمد
ابو الفضل ابراهيم ، وقد صدر منه جزءان حتى هذا التاريخ .

(٤) هو عبد الرحمن بن عمر بن رسلان ، ابو الفضل جلال الدين البلقيني .
برع في الفقه والاصول والعربية والتفسير والمعاني والبيان ، وله تعليق على البخاري
سماه (الإفهام ، لما في صحيح البخاري من الابهام) وولي القضاء بالديار المصرية
مراراً الى ان توفي سنة ٨٢٤ (شذرات الذهب ١٦٦/٧) .

كتابه (مواقع العلوم من مواقع النجوم)^(١) وصنف محمد بن سليمان الكافيّجي (ت ١٨٧٩)^(٢) كتاباً ذكره السيوطي ، ونقل عن مؤلفه أنه قال فيه : « لم اسبق إليه »^(٣) ، ولكننا لانعرف اسم هذا الكتاب . ثم ألف السيوطي (ت ٩١١) كتابه (التحبير في علوم التفسير) واتبعه (بالاتقان في علوم القرآن)^(٤) .

وفي القرن الاخير أقبل كثير من العلماء على تصنيف الكتب حول القرآن وتاريخه وعلومه فألف الشيخ طاهر الجزائري (التبيان

(١) الاتقان ٣/١ .

(٢) هو محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود ، محي الدين ابو عبدالله الكافيّجي ، اشتغل كثيراً بالكافية في النحو فعرف بها . لازمه السيوطي ١٤ سنة ، وله كتب كثيرة في التفسير والفقه واصول اللغة والنحو . أما كتابه الذي لم يسمّه السيوطي في الاتقان فقد سماه في البعثة (التيسير في قواعد التفسير) وقال عنه : وكان يقول انه ابتدع هذا العلم ولم يسبق اليه ، وذلك لأن الشيخ لم يقف على (البرهان) للزركشي ولا على مواقع العلوم للجلال البلقيني . توفي سنة ٨٧٩ (انظر بغيّة الوعاة ٤٨) .

(٣) الاتقان ٣/١ وقال السيوطي فيه : « رأيت تاليفاً لطيفاً ، ومجموعاً ظريفاً ، ذا ترتيب وتقرير » .

(٤) وقد طبع كتاب الاتقان مراراً في القاهرة . والسيوطي بنى اكثر كتابه على (البرهان للزركشي) ونقل عدداً من فصوله ، مشيراً الى ذلك تارة ، وساكناً عنه تارة اخرى . وانظر ما يقوله السيوطي عن (البرهان) في مقدمة الاتقان ٦/١ - ٨ .

لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) والشيخ محمد جمال الدين القاسمي (محاسن التأويل) والشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (مناهل العرفان في علوم القرآن) والشيخ طنطاوي جوهرى (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) واديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي (اعجاز القرآن) والاستاذ سيد قطب (التصوير الفني في القرآن) و (في ظلال القرآن) ، والسيد الامام محمد رشيد رضا (تفسير القرآن الحكيم) وفيه مباحث كثيرة في علوم القرآن ، وأخيراً الدكتور محمد عبد الله دراز (النبأ العظيم ، عن القرآن الكريم) .

الوحي : نزوله وأسرار تنجيده

القرآن هو المعجزة العقلية الخالدة التي خص الله بها نبيه محمداً عليه السلام ، ليكون للعالمين نذيراً . وفي التعبير عن هذا الاختصاص يقول صلوات الله عليه : « ما من الانبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »^(١) .

وجاءت الآيات القرآنية تؤكد هذا الاختصاص وتحققه :
« إن هو إلا وحيٌّ يوحى »^(٢) ووردت في القرآن مادة النزول والانزال

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة (رض) .

(٢) سورة النجم ٤ .

والتنزيل لتفيد معنى الوحي والايحاء ، وتقرب الى الاذهان هذه الحقيقة الدينية التي هي من الاديان السماوية جميعاً لباب الايمان ، وأساس الاعتقاد .

ولسنا الآن بسبيل إقامة الأدلة على ثبوت الوحي - فمثل هذا جدير بنا أن نفرده كتاباً مستقلاً على غرار « الوحي المحمدي »^(١) للسيد الامام محمد رشيد رضا - وإنما نزيد بهذه الكلمة العجلى عن الوحي والتنزيل أن نمهد لتفريق القرآن وتنجيته وبيان أسرار ، وتببع سورة وآياته في مكة والمدينة ومعرفة أسباب تنوعها ، ودواعي ورودها في مواطن معينة ، بعد أحداث ووقائع وأسئلة خاصة : فان من العسير أن نتحدث عن شيء نسميه « أسباب النزول » أو عن « السور التي نزلت بمكة والتي نزلت بالمدينة » أو عن « السرر في نزول القرآن منجماً متدرجاً مع الحوادث » إن لم نكون فكرة صالحة عن مادة النزول التي تتكرر مع مشتقاتها في مباحث القرآن كثيراً . ووقفنا على المعنى الدقيق الذي تفيد هذه المادة سيساعدنا على تصور كيفية نزول القرآن ، أو بعبارة أخرى سيكشف لنا عن المفهوم الاسلامي الصريح لظاهرة الوحي ، بعبارات أبعد ما تكون عن أساليب المناطقة والمتكلمين .

(١) طبع هذا الكتاب في مطبعة المنار بمصر مراراً . وأبحاثه قيمة ، وان كان أسلوبه فيها - على العموم - خطابياً .

في مثل قوله تعالى : « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل » ^(١) نجد التعبير
بنزول القرآن وإنزاله ؛ وفي مثل قوله : « ونزلناه تنزيلاً » ^(٢) يطلق
على القرآن لفظ التنزيل. ومن المعروف لغةً أن في النزول أحدهم معنيين ،
أما الحلول في مكان وأما الانحدار من علو إلى الاسفل ، وكلاهما
يشعر بالمكانية والجسمية ، فلا مجال لتحقيقها في صفة من صفات الله ،
وهي كلامه ووحيه ، وفي اللسان العربي المبين سعة في التعبير المجازي ؛
على أن تخريج المعنى المجازي اللائق لن يكون - كما يزعم الرازي في
حواشي الكشاف - ^(٣) عبارة عن إثبات القرآن في اللوح المحفوظ ، فإن
هذا رجم بالغيب وخوض في كتاب الله بغير سند صحيح ، وإنما التخريج
المناسب في آن واحد للغة العرب ولسلامة المعتقد أن في التعبير بالنزول
والانزال والتنزيل تنويهاً بشرف هذا الكتاب المجيد ، لما توحيه هذه
المادة من علو صاحب هذا الكتاب علواً كبيراً ، مصداقاً لقوله تعالى
في فاتحة الزخرف : « والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم
تعقلون . وانه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم »
وإذا كنا في التعبير بنزول القرآن لم نستطع أن نجد صورة معينة

(١) الاسراء ١٠٥ .

(٢) الاسراء ١٠٦ .

(٣) اقرأ آراء القطب الرازي في هذا الموضوع في (الاتقان ١/٧٤) وقد بناها

على جدل كلامي حول ما اذا كان القرآن هو الالفاظ أو معنى قائماً بذات الله .

لهذا النزول ، لسكوت القرآن نفسه عن تعيينه وتفصيله ، فالامر مختلف فيما يتعلق بالوحي ، ففي آية واحدة نطق القرآن بصور ثلاث للوحي: « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء ، انه علي حكيم »^(١)

« فالوحي هنا إلقاء المعنى في القلب ، وقد يعبر عنه بالنفث في الرُوع - وهو بالضم القلب والخلد والخاطر - والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة ؛ وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحي المرسل من الله الى رسول الله فيراه متمثلاً بصورة رجل أو غير متمثل ، ويسمعه منه أو يعيه بقلبه »^(٢)

وواضح أن صور الوحي الثلاث - كما فسرت آنفاً - قد روعي فيها المعنى اللغوي الاصيل لمادة الوحي والايحاء ، فانها تفيد « الاعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه اليه بحيث يخفي على غيره »^(٣). والوحي الديني الذي نطقت به الآية السابقة يشتمل على الخفاء والسرعة سواء أكان نقشاً في الرُوع ، أم كلاماً من وراء حجاب ، أم رسولا يرسل .

وفي حديث صحيح وصف النبي عليه السلام بنفسه الصورة الأولى

(١) سورة الشورى ٥١ .

(٢) الوحي المحمدي ، ٣٨-٣٩ .

(٣) الوحي المحمدي ، ٣٧ .

من صور الوحي ، وأوماً إلى الثالثة إيماءة عابرة ، فقال : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس^(١) وهو أشده علي ،^(٢) ، فيفصم عني^(٣) وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول^(٤) » وليس في هذا الحديث ذكر للصورة الثانية الواردة في الآية - أعني صورة الكلام من وراء حجاب - علي أن هذا كما ثبت لكليم الله موسى عليه السلام بنص القرآن حيث يقول « وكلم الله موسى تكليماً^(٥) » ثبت لمحمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج كما نطقت بذلك الأحاديث الصحاح المستفيضة .

(١) قال الخطابي : « والمراد انه صوت متدارك يسمعه ولا يثبت به اول ما يسمعه حتى يفهمه بعد » (الاتقان ١/٧٦) ويظهر أن السر في اسماعه هذا الصوت إعداده النفسي في كل مرة للوحي الذي يلقي عليه ، وهو قول ثعيل ، كما قال تعالى في سورة المزمل : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » .

(٢) ومن شدته عليه أن السيدة عائشة أم المؤمنين (رض) تقول : « ولقد رأيت به ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً » .
(٣) يفصم : ينجلي وينكشف

(٤) افتتح البخاري جامعه الصحيح برواية حديث « انما الاعمال بالنيات » ثم اتبعه برواية حديث الوحي فقال : حدثنا عبد الله بن يوسف ، قال اخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ان الحارث ابن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحياناً يأتيني ... » الخ .

(٥) سورة النساء ١١١

وفي تشبيه النوع الاول من الوحي بصلصلة الجرس إشارة إلى سماع الرسول ﷺ أصواتاً من عالم الغيب لاسيما إلى مقارنتها بما يحدثه البشر في كلامهم من أصوات تتألف من الحروف . وكان عليه السلام في هذه الحال الغيبية الروحانية يجد من شدة الوحي وثقل وطأته عليه ما يجعل « راحلته تبرك به إلى الارض إذا كان راكبها . ولقد جاءه مرة كذلك وفخذه على فخذه زيد بن ثابت ، فقلقت عليه حتى كادت ترضها » (١)

ولقد جاء التعبير عن شدة وقع الوحي على رسول الله ﷺ في وصف بدء نزوله ، حيث يقول صلوات الله عليه : « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (٢)

ولاغرو أن يبلغ من رسول الله الجهد في مثل هذه الحال الروحانية

(١) ابن القيم في زاد المعاد (وقد ذكر ذلك السيد رشيد رضا في « الوحي

المحمدي » ص ٩٦ حاشية ٢)

(٢) الحديث بكامله في (صحيح البخاري) باب كيف كان بدء الوحي

الى رسول الله ﷺ وهو من حديث عائشة ام المؤمنين (رضي الله عنها) .

الشديدة ، لأنه كان ينخلع من صورته البشرية إلى الصورة الملكية ،
ليقوى على الاتصال بالملك وتلقي القرآن منه ^(١) .

ومن الجدل العقيم إختلاف المتكلمين - غفر الله لهم - في المنزل
على النبي ﷺ ، أهو اللفظ والمعنى ؟ أم هو المعاني خاصة ؟ أم التي على
جبريل المعنى فعبر بهذه الالفاظ بلغة العرب ؟ ^(٢) لأنها جميعاً آراء نظرية
مبتدعة لا يشهد لها سند صحيح من الكتاب ولا السنة ، ونتيجتها
الوحيدة إظهار المعتقد الفطري البسيط في صورة الطلاسم الغامضة ،
والالغاز المحيرة . ومن هذا الجدل العقيم أيضاً « تقسيم المتكلمين كلام
الله إلى نفسي قديم قائم بذاته سبحانه ليس بحرف ولا صوت ولا ترتيب
ولا لغة ، وكلام لفظي هو المنزل على الانبياء عليهم السلام ، ومنه
الكتب المنزلة ، وخلافهم في كونه مخلوقاً أو غير مخلوق ^(٣) »

ولعل خير تعريف للوحي هو ما كتبه الاستاذ الامام محمد عبده
في « رسالة التوحيد » من أنه « عرفان يجده الشخص من نفسه مع
اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والاول بصوت
يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الالهام بأن الالهام

(١) البرهان ١/٢٢٩

(٢) الاتقان ١/٧٤ وينسب صاحب البرهان (١/٢٢٩ - ٢٣٠) هذه
الاقوال الثلاثة الى السمرقندي .

(٣) الوحي المحمدي ٣٩ - ٤٠

وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى . وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور^(١) . وهذا الفهم البسيط للوحي ، الخالي من كل تعقيد في تصور حقيقته ، وعرض مظاهره ، هو في نظرنا القدر الضروري الذي ينبغي أن نحيط به لكي نكون صورة واضحة عن كيفية نزول القرآن على امام الانبياء صلوات الله عليه .

ونقول مرة أخرى : إنه ليس من شأننا - في هذه العجالة - أن نقيم الأدلة على امكان الوحي وثبوته ، وان كان هذا موضوعاً جديراً بالعناية والاهتمام ، وانما نود أن يتنبه الباحثون والدارسون الى زاوية في الموضوع لا يجوز إغفالها ، وهي الزاوية الادبية التي كانت سبباً فطرياً في ايمان العرب بظاهرة الوحي ، لم يحتاجوا معها الى ما نحشده نحن من الأدلة العلمية المختلفة . إن تقريب فكرة الوحي الى الاذهان بما يعرفه الناس الآن عن التنويم الصناعي ، وتسجيل الاصوات على الاشرطة ، واداعتها أو نقلها عن طريق الهاتف واللاسلكي ، ليس أقوى في الاقتناع من منطق القرآن الوجداني في تصوير شخصية الرسول ، وأسلوب خطابه له .

ومن يتل الآيات القرآنية المصورة لرسول الله إنساناً ضعيفاً بين يدي الله ، يستمد منه العون ، ويستهديه ويستغفره ، ويصدع بما

يأمره به وأحياناً يتلقى العتاب الشديد ، لا بد أن يجد في أعماق قلبه من الفيض الوجداني ما كان يجده العربي اذا سمع القرآن من الاقتناع بصدق هذا النبي الذي يتنزل الوحي عليه .

لقد كان النبي ﷺ ، من تلقاء نفسه ، يفرق بوضوح بين الوحي الذي ينزل عليه ، وبين أحاديثه الخاصة التي كان يعبر عنها بالهام من الله : فما يجول في نفسه من خواطر وأفكار كان ذا صفة انسانية محضة لا يمكن أن تختلط بالكلام الرباني . ولذلك نهى عليه السلام أول العهد بنزول الوحي عن تدوين شيء سوى القرآن^(١) لكي يحفظ للقرآن صفته الربانية ، ويجول دون اختلاطه بشيء ليست له هذه الصفة القدسية . بينما كان عند نزول الوحي — ولو آية أو جزء آية — يدعو أحد الكتبة فوراً ليدون ما نزل من القرآن^(٢) .

وكما كان عليه السلام يشعر من تلقاء نفسه بالفرق بين الوحي وبين أحاديثه ، ولا يسمح باختلاط بعضها ببعض ، كان يرى من تلقاء نفسه أيضاً أنه عبد يطيع ربه ، ويخاف عذابه إن عصاه ، فهو واقف عند حدود ما أنزل عليه ، لا يستطيع أن يأتي بغير هذا القرآن ولا أن يبدله . والقرآن لا يفتأ يصوره بهذه الصورة البشرية التي ترجو رحمة الله وتخاف عذابه : « وإذا تتلى عليه آياتنا بينات قال الذين لا يرجون

(١) انظر ص ١٦

(٢) البرهان ١/٢٣٢

لقاءنا: انت بقرآن غير هذا أو بدله، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله، أفلا تعقلون؟!»^(١).

وفي معنى هذه الآيات المفرقة بين صفة الخالق وصفة المخلوق ما يتكرر في القرآن كثيراً من التصريح بأن النبي بشر مثل سائر البشر، ليس عليه إلا البلاغ، ولا يملك خزائن الله ولا يعلم الغيب، ولا يزعم لنفسه صفة ملكية تغاير صفة الانسان وخلقته: «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ أنما الحكم اله واحد»^(٢)، «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء»^(٣)، «قل لا أقول لكم عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم إني ملك، إن أتبع إلا ما يوحى اليّ»^(٤).

ولتصدير الآيات السابقة بعبارة (قل) مغزى لطيف يفهمه العربي بالسليقة، وهو توجيه الخطاب للرسول ﷺ، وتعليمه ما ينبغي أن

(١) الاسراء ١٥-١٦ .

(٢) الكهف ١١٠ .

(٣) الاعراف ١٨٨ .

(٤) الانعام ٥٠ .

يقول ، فهو لا ينطق عن هواه ، بل يتبع ما يوحى إليه . ولذلك تكررت عبارة (قل) أكثر من ثلاثة مائة مرة في القرآن ، ليكون القارىء على ذكر من أن محمداً ﷺ لا دخل له في الوحي ، فلا يصوغه بلفظه ، ولا يلقيه بكلامه ، وإنما يلقى عليه الخطاب القاء ، فهو مخاطب لامتكلم ، حاكٍ لا يسمع ، لا معبر عن شيء يجول في نفسه .

ويزداد الفرق وضوحاً بين صفة الله المتكلم منزل الوحي وبين صفة رسوله المخاطب متلقي الوحي ، في الآيات التي يعتب الله فيها على نبيه عتاباً خفيفاً أو شديداً ، أو يعلمه فيها بعفوه عنه وغفرانه ماتقدم من ذنبه وما تأخر : فمن العتاب الخفيف الذي يشوه عفو الله عن رسوله خطابه له في شأن من أذن لهم بالعقود عن القتال في غزوة تبوك : « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين » ^(١) . ومن المعلوم أن العفو لا يكون إلا عن ذنب ، كما أن المغفرة لا تكون إلا بعد ذنب ، وقد صرحت الآية بهذا في سورة الفتح : « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر » ^(٢) . فمن العجيب - بعد هذا القول القرآني الصريح - أن يحاول بعض المفسرين - كالرازي - أن يثبتوا أن لفظ العفو

(١) التوبة ٤٣ .

(٢) الفتح ١-٢ .

لا يوحى بالذنب ، وأن الذي عاتب الله به نبيه إنما كان ارتكابه خلاف الأولى ، « وهو - كما يقول السيد رشيد رضا - جمود مع الاصطلاحات المحدثة والعرف الخاص في معنى الذنب وهو المعصية ، وما كان ينبغي لهم أن يهربوا من اثبات ما أثبتته الله تعالى في كتابه تمسكاً باصطلاحاتهم وعرفهم المخالف له ومدلول اللغة أيضاً »^(١) .

وأما العتاب الشديد فقد نطقت به آيات الفداء في سورة الانفال ، ووجهه عنيفاً صادعاً ، منذراً متوعداً ، الى الرسول ﷺ وجمهور صحابته الذين أشاروا عليه بأخذ الفداء من أسرى بدر ، مؤثرين عرض الحياة الفاني على نصره الدين ، في أول معركة في الاسلام لم يُشخنوا قبلها في الأرض ، ولم يعظم بعد شأنهم فيها . ولذلك صيغ العتاب صياغة عامة تشعر بتقرير مبدأ في صفات الانبياء والرسل ، فلم يوجه الله خطابه الى رسوله رأساً ، بل استهل الآية بكون منفي تلتها عبارة تستعظم هذا الفداء يصدر عن نبي من الانبياء : « ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يُشخنَ في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »^(٢) .

(١) تفسير المنار ١٠/٤٦٥ .

(٢) الأنفال ٦٧-٦٨ وانظر في هذا على سبيل المثال تفسير سورة الانفال

لمصطفى زيد ص ١٥٥-١٥٩ وتفسير المنار ١٠/٨٣-١٠٠ .

ويُقرب من هذا العتاب الذي لم يوجهه الله - على شدته - رأساً إلى نبيه ، وإنما افتتحه بضمير الغيبة يحكي به المشهد ويصور به الواقع ، ما أدب الله به محمداً في قصة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم (رض) « عندما جاءه وهو يدعو أكابر رجال قريش الى الاسلام وقد لاح له بارقة رجاء في إيمانهم يتحدثون معه ، فانه ﷺ علم أن اقباله عليه ينفرهم ويقطع عليه طريق دعوتهم ، وكان يرجو بايمانهم انتشار الاسلام في جميع العرب ، فتولى عنه وتاهى بهذه الفكرة . ولم يكن يعلم قبل اعلام الله تعالى أن سنته في البشر أن يكون أول من يتبع الانبياء والمصلحين فقراء الامم وأوساطها ، دون أكابر مجرميها المترفين ورؤسائها »^(١) ففي هذا أنزل الله هذه الآيات من سورة الأعمى : « عبسَ وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ؟ أويذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك بالأزكى ؟ وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهي . كلا إنها تذكرة »^(٢) .

واشدمن هذا كله ما يوجه الى الرسول ﷺ من الانذار والتهديد ، في مثل قوله تعالى : « ولولا أن ثبتناك لقد كدتَ تركنُ اليهم شيئاً

(١) تفسير المنار ١٠/٤٧٣-٤٧٤ (وانظر رأي الدكتور محمد عبد الله

دراز في جميع هذه التقريرات المؤلمة السابقة في كتابه « النبا العظيم » ص ١٧-١٩ .

(٢) سورة الاعمى ١-١١ .

قليلاً . إذا لاذقناك ضعف الحياة و ضعف المات ، ثم لا تجد لك علينا نصيراً «^(١) . وهذا الانذار يبلغ القمة ، فيستصغر بعده كل تهديد وكل وعيد ، حين يقول الله : « ولو تقول علينا بعض الاقويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ^(٢) . فما منكم من أحد عنه حاجزين »^(٣) . وفي تفسير هذه الآيات يقول الزمخشري : « والمعنى : ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الملوک بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام . فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يؤخذ بيده وتضرب عنقه »^(٤) .

من خلال هذه الآيات المتوعدة المندرة ، وتلك العاتبة المؤدبة ، يبدو لنا رسول الله ﷺ مخلوقاً ضعيفاً بين يدي ربه ذي القدرة القاهرة ، والقوة الكبرى ، والارادة التي لامعقب لها ، فلا نكاد نصدق أن انساناً عاقلاً سليم الفطرة يرتاب - بعد هذا - في الايمان بوحى هذه مظاهره وحقيقته^(٥) . ولقد أدرك العرب هذا المعنى

(١) الاسراء ٧٤-٧٥ .

(٢) الوتين : نياط القلب ، وهو جبل الوريد ، اذا قُطِعَ مات صاحبه .

(٣) الحاقة ٤٤-٤٧ .

(٤) الكشف ١٣٧/٤ .

(٥) من اراد التوسع في الاستدلال على مصدر الوحي الرباني فعليه بكتاب « النبأ العظيم » للدكتور محمد عبدالله دراز ، فان جميع ابجائه تدور حول بيان مصدر القرآن .

حتى أقبلوا يدخلون في دين الله أفواجا ، لا يعرفون لذلك سبباً إلا
منطق القرآن الوجداني يعرض عليهم بأسلوبه المعجز صوراً من
صدق محمد ﷺ وشدة أماته وقوة صلته بربه .

ولقد شاعت الحكمة الالهية ان يظل الوحي متجاوباً مع الرسول
ﷺ يعلمه كل يوم شيئاً جديداً ، ويرشده ويهديه ، ويثبته ويزيده
اطمئناناً ، ومتجاوباً مع الصحابة يريهم ويصاح عاداتهم ويحجب
وقائعهم ، ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته ، فكان مظهر هذا التجاوب
نزوله منجماً « بحسب الحاجة : خمس آيات ، وعشر آيات وأكثر
وأقل^(١) . وقد صح نزول العشر آيات في قصة « الإفك^(٢) » جملة ، و صح

(١) ويقتصر بعضهم - كما يفهم من روايات شتى - على نزول القرآن نجومياً
خمس آيات خمس آيات ، لتيسير حفظه على المؤمنين في كل جبل : أخرج البيهقي
عن خالد بن دينار قال : قال لنا ابو العالية : « تعلموا القرآن خمس آيات
خمس آيات ، ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً » .
ويقرب من هذا ما أخرجه ابن عساكر من طريق أبي نضرة . بل ينسب الى
علي كرم الله وجهه انه كان يقول : « أنزل القرآن خمساً خمساً الا سورة الانعام ،
ومن حفظ خمساً خمساً لم ينسه » . لكن السيوطي يصف القول الاخير بضعف
طريقه ، ويرى « ان معناه - إن صح - القاؤه الى النبي ﷺ هذا القدر حتى
يحفظه ، ثم يلقى اليه الباقي ، لا إنزاله بهذا القدر خاصة » الاتقان ٧٣/١ .

(٢) هذه الآيات العشر في سورة النور ١١ - ٢١ وفيها يبرئ الله السيدة
عائشة أم المؤمنين ، الصديقة بنت الصديق من الافك المبين والبهتان العظيم .
وقصة الافك مشهورة في كتب السيرة والتفسير .

نزول عشر آيات من اول «المؤمنين»^(١) جملة، وصح نزول «غير أولي الضرر»^(٢) وحدها - وهي بعض آية - وكذا قوله: «وان ختم عيلة»^(٣) إلى آخر الآية، نزلت بعد نزول اول الآية^(٤).

على هذا المنوال ظل القرآن ينزل نجوماً، ليقرأه النبي ﷺ على مكث، ويقرأه الصحابة شيئاً بعد شيء، يتدرج مع الاحداث والوقائع والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسول ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً على الاصح، وذلك تبعاً للقول بأن مدة اقامته عليه السلام في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة. اما اقامته بالمدينة فهي عشر سنين اتفاقاً. وقد ر بعضهم مدة نزول القرآن بعشرين سنة، وبعضهم بخمس وعشرين، بناء على ان اقامته عليه السلام بمكة بعد البعثة كانت عشر سنين او خمس عشرة سنة^(٥).

(١) من اول قوله «قد أفلح المؤمنون» الى قوله «الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» ١-١١ «المؤمنون».

(٢) سورة النساء ٩٥ وأول الآية: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله».

(٣) سورة التوبة ٢٨ وأول الآية: «يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس»، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا».

(٤) الاتقان ١/٧٣.

(٥) قارن بين «البرهان» ١/٢٣٢ و «الاتقان» ١/٦٨.

وقد بدأ نزول القرآن - كما يقول الشعبي^(١) - « في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجماً في اوقات مختلفة من سائر الأوقات »^(٢) . والشعبي يجمع في هذا الرأي بين قوله تعالى : « إنا انزلناه في ليلة القدر »^(٣) وقوله وقرآننا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث^(٤) ؛ وهو فهم سديد لا يتضارب مع إخبار الله بانزال كتابه في ليلة مباركة ، وفي شهر رمضان ، اذ يكون المراد أنه تعالى ابتداء إنزاله في « ليلة مباركة »^(٥) ووصف هذه الليلة بانها « ليلة القدر » وهي احدى لسالي رمضان ، كما في قوله : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »^(٦) ، ثم استمر نزوله نجوماً بعد ذلك ، متدرجاً مع الوقائع والاحداث .

(١) الشعبي هو عامر بن شراحيل ، ويكنى أبا عمرو ، اكبر شيوخ أبي حنيفة ، وأحد المشهود لهم بالامامة في الحديث والفقہ . روى عن علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وزيد بن ثابت ، وجابر بن عبدالله ، وغيرهم . وقال : انه ادرك خمس مائة من الصحابة . وروى عنه الاعمش ، وقتادة ، وابو الزناد ، وغيرهم . توفي سنة ١٠٩ .

(٢) البرهان ١/٢٢٨ .

(٣) سورة القدر ١ .

(٤) سورة الاسراء ١٠٦ .

(٥) سورة الدخان ٣ .

(٦) سورة البقرة ١٨٥ .

ولسنا نميل الى الرأي القائل : إن للقرآن تنزلات ثلاثة ، الأول الى اللوح المحفوظ ، والثاني الى بيت العزة في السماء الدنيا ، والثالث تفريقه منجماً بحسب الحوادث ، وان كانت اسانيد هذا الرأي كلها صحيحة^(١) لان هذه التنزلات المذكورة من عالم الغيب الذي لا يؤخذ فيه إلا بما تواتر يقيناً في الكتاب والسنة ، فمجرد صحة الاسانيد في هذا القول لا يكفي لوجوب اعتقاده ، فكيف وقد نطق القرآن بخلافه؟! ان كتاب الله لم يصرح إلا بتفريق الوحي وتنجيّمه ، ومنه يفهم بوضوح أن هذا التدرج كان مثار اعتراض المشركين الذين ألقوا ان تلقى القصيدة جملة واحدة ، وسمع بعضهم من اليهود ان التوراة نزلت جملة واحدة ، فأخذوا يتساءلون عن نزول القرآن نجوماً ، وودوا لو ينزل كله مرة واحدة . وقد ذكر الله اعتراضهم في سورة الفرقان ورد عليه « وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق واحسن تفسيراً »^(٢)

على أن القائلين بتنزلات القرآن الثلاثة لا يفوتهم - بعد بيان حكمة

(١) انظر الاتقان ٦٨/١ ويظهر أن الجمهور كان ينجح الى هذا الرأي ، فالزر كشي في « البرهان ٢٢٩/١ » يقول في هذا الرأي : « انه اشهر وأصح ، واليه ذهب الاكثرون » . وابن حجر في « فتح الباري » يصفه بالرأي « الصحيح المعتمد » . ونحن مع ذلك لم نأخذ به لمخالفته صريح القرآن كما اوضحناه اعلاه .

(٢) سورة الفرقان ٣٢-٣٣ .

هذا التعدد في اماكن النزول^(١) ان يشيروا الى اسرار تنزله الثالث الاخير منجماً بحسب الوقائع ، وهذه الاسرار من الوضوح بحيث لا تخفى على احد ، « ولولا ان الحكمة الالهية - كما يقولون - اقتضت وصوله اليهم منجماً بحسب الوقائع لأهبطه الى الارض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله ، ولكن الله باين بينه وبينها فجعل له الامرين : انزاله جملة ثم انزاله مفرقاً ، تشرifaً للمنزل عليه »^(٢)

ويعيننا من اقوالهم تطلعهم الى أسرار التدرج في نزول القرآن ، فقد أوشكوا عند بلوغ هذه الناحية من البحث ألا يتركوا مجالاً للقائل

(١) وخلاصة هذه الحكمة « أن في تعدد النزول واماكنه مبالغة في نفي الشك عن القرآن ، وزيادة للايمان به وباعتقاد على الثقة فيه ، لان الكلام اذا سُجِّل في سجلات متعددة ، وصحّت له وجودات كثيرة ، كان ذلك انفى للريب عنه وأدعى الى تسليم ثبوته ، وأدنى الى وفرة الايمان به مما لو سُجِّل في سجل واحد أو كان له وجود واحد » (الزرقاني : مناهل العرفان ١/٣٩-٤٠) .

ويذهب أبو شامة في « المرشد الوجيز » مذهباً آخر في بيان حكمة نزول القرآن جملة الى السماء ، فهو يقول : « فيه تفخيم لأمره ، وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الامم ؛ ولقد صرفناه اليهم لينزله عليهم » . (الاتقان ١/٦٩ ؛ البرهان ١/٢٣٠) و ابو شامة سبقت ترجمته ص ٢٢ حاشية ٢ .

(٢) الاتقان ١/٦٩-٧٠ والسيوطي يعزو هذا القول الى أبي شامة ، وهو تنمة رأيه المذكور في الحاشية السابقة . ويذكر الزركشي قسماً منه في (البرهان ١/٢٣٠) ولكن من غير عزو .

بعدهم ، اذ لاحظوا في هذا التدرج الحكمتين اللتين اشرنا اليهما ، وهما تجاوب الوحي مع الرسول (ص) ، وتجاوبه مع المؤمنين ، وان كان تعبيرهم عن ذلك يختلف قليلاً عن تعبيرنا .

ولتجاوب الوحي مع الرسول ﷺ صورتان ، احدهما تثبتت فؤاده بما يتجدد نزوله من القرآن بعد كل حادثة ، والثانية تيسير حفظ القرآن عليه . وقد أشار الى الصورة الأولى أبو شامة في قوله : « فإن قيل : ما السر في نزوله منجماً؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة؟ قلنا : هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملةً واحدة » يعنون : كما انزل على من قبله من الرسل ، فأجابهم تعالى بقوله : « كذلك » أي انزلناه كذلك مفرداً » لنثبت به فؤادك » أي لتقوي به قلبك ، فان الوحي اذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب ، وأشد عناية بالمرسل اليه ؛ ويستلزم ذلك كثرة نزول المالك اليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة . ولهذا كان اجود ما يكون في رمضان ^(١) لكثرة

(١) يشير الى حديث متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » انظر (رياض الصالحين للنووي باب الجود .. في شهر رمضان ص ٤٥٤) .

لقياه جبريل»^(١)

ولقد راع القرآن خيال العرب وأخذ أسماهم بما فيه من انبياء الرسل مع أقوامهم ، تتكرر بصور مختلفة ، واساليب متنوعة ، فتزداد حلاوة كلما تكررت ، ولاغرض لها في اكثر المواطن التي ذكرت فيها إلا تثبيت قلب الرسول (ص) وقلوب المؤمنين . ونطق القرآن بذلك فقال : « وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك »^(٢) ففي ذكر قصص الرسل ، وتفريقه ، وتنويعه ، تقوية لقلب الرسول (ص) وعزاء له على ما يلقاه من اذى قومه ، وما كان محمد بدعاً من الرسل ، فهم جميعاً عذبوا وكذبوا واضطهدوا « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله »^(٣)

وهكذا ما انفك القرآن يتجدد نزوله مهوناً على الرسول (ص) الشدائد ، مسلياً له مرة بعد مرة ، محبباً اليه التأسي بمن قبله من الرسل ، يأمره تارة بالصبر امراً صريحاً فيقول : « واصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجراً جميلاً »^(٤) ويقول : « فاصبر كما صبر أولو العزم من

(١) الاتقان ٧١/١ والزركشي لايعزو هذه العبارة الى أبي شامة كما فعل في العبارة السابقة (البرهان ٢٣١/١ وراجع الحاشية ٢ ص ٤٢) وفي عبارة البرهان اختلاف يسير جداً عما في الاتقان .

(٢) سورة هود ١٢٠ .

(٣) سورة البقرة ٢١٤ .

(٤) سورة المزمل ١٠ .

الرسول»^(١) وبيناه تارة اخرى عن الحزن نهياً صريحاً ، كما في قوله «فلا يحزنُك قولهم ، إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون»^(٢) وقوله : «ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعاً ، انه هو السميع العليم»^(٣) ويعلمه احياناً أن الكافرين لا يجرحون شخصه في نفسه ، ولا يتهمونهم بالكذب لذاته ، وانما يعاندون الحق بغياً من عند انفسهم ، لأنهم نماذج من الجاحدين تتكرر في كل عصر وجيل ، كما في قوله : «قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون ، فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون»^(٤) وفي تفسير هذه الآية يقول الحافظ ابن كثير : «يقول تعالى مسلماً لئذيه صلى الله عليه وسلم في تكذيب قومه له ومخالفتهم اياه : «قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون» أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم كقوله : «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» كما قال تعالى في الآية الاخرى : «لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين» ، «فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ، أسفاً» وقوله «فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون» أي لا يتهمونك

(١) سورة الاحقاف ٣٥ .

(٢) سورة يس ٧٥ .

(٣) سورة بونس ٦٥ وقد ينهي الله رسوله عن الحزن على الكافرين لجحودهم وعدم ايمانهم ، فيقول له : «ولا تحزن عليهم» كما في سورة الحجر ٨٨

والنحل ١٢٦ والنمل ٧٢ .

(٤) الانعام ٣٣ .

بالكذب في نفس الامر ، « ولكن الظالمين آيات الله يجحدون » أي ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ..^(١)

وتكرار نزول هذه الآيات المسلية ، المعزية ، المرشدة الى الصبر الجميل والاسوة الحسنة ، هو الحكمة المقصودة من ايراد انباء الرسل وقص قصصهم . ولو استمر اضطهاد المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطع عنه الوحي المثبت لقلبه ، فلم يتجدد نزول الآيات المسلية عليه ، لشعر عليه السلام بما يشعر به البشر في هذه الحالات من استيلاء الحزن على قلبه ، واستبداد اليأس بنفسه ؛ والله لم ينه عن الحزن والحسرات وبجع النفس وضيق الصدر - كما رأينا - إلا لانه بشر مثل سائر البشر ، في طبيعته استعداد لجميع هذه الانفعالات النفسية . وقد اتبه الى هذا المعنى السيد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى : « ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا »^(٢) فقال : « والآية تسلية للرسول ﷺ بعد تسلية ، وارشاد له الى سنته تعالى في الرسل والامم ، أو هي تذكير بهذه السنة وماتضمنه من حسن الاسوة ، اذ لم تكن هذه الآية اول ما نزل في هذا المعنى » ثم زاد هذه الفكرة وضوحاً بقوله : « ولولا أن دفع الاسي بالاسي من مقتضى الطبع البشري لما ظهرت حكمة تكرار

(١) نقل هذه العبارة السيد رشيد رضا في تفسير المنارج ٧ ص ٣٧٢ .

(٢) سورة الانعام . ٣٤ .

التسلية بأمثال هذه الآية ، فان النبي ﷺ كان يتلو القرآن في الصلاة ولا سيما صلاة الليل ، فربما يقرأ السورة ولا يعود اليها الا بعد أيام يفرغ فيها من قراءة ما نزل من سائر السور ، فاحتيج الى تكرار تسليته وأمره بالصبر المرة بعد المرة ، لان الحزن والاسف للذين كانوا يعرضان له ﷺ من شأنهما أن يتكررا بتكرار سيئهما وتذكره حتى عند تلاوة الآيات الواردة في بيان حال الكفار ومحاجتهم وانذارهم^(١) .

والصورة الثانية لتجاوب الوحي مع الرسول ﷺ هي - كما ذكرنا - تيسير حفظ القرآن عليه . ومن العلماء من يرى أن « تثبت فؤاده » المذكور في آية الفرقان السابقة لا يراد منه إلا جمع القرآن حفظاً في قلبه « فانه عليه السلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق عليه ليسر عليه حفظه ؛ بخلاف غيره من الانبياء ، فانه كان كاتباً قارئاً ، فيمكنه حفظ الجميع إذا نزل جملة^(٢) . وقد أراد ابن فورك^(٣) أن يزيد هذا الأمر تفصيلاً وبياناً فقال : « قيل أنزلت

(١) تفسير المنار ٧/٣٧٧-٣٧٨ .

(٢) البرهان ١/٢٣١ .

(٣) ابن فورك (بالفاء المضمومة والواو الساكنة والراء المفتوحة والكاف) هو محمد بن الحسن بن فورك ، ويكنى أبا بكر . من المتكلمين والاصوليين المشهورين . له في معاني القرآن واصول الفقه اكثر من مائة كتاب . توفي سنة ٤٠٦ (انظر إنباه الرواة ٣/١١٠ وشذرات الذهب ٣/١٨١-١٨٢ وابن خلكان ١/٤٨٢) .

التوراة جملة ، لأنها نزلت على نبي يقرأ ويكتب - وهو موسى - وأنزل القرآن مفروقاً لأنه أنزل غير مكتوب على نبي أمي «^(١) .

وتعظم هذه الحكمة من حكم تنزيل القرآن نجوماً اذا قرأنا في سيرة الرسول ﷺ أنه كان أول عهده بالوحي يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليه وحيه ، ويحرك به لسانه وشفته ليستذكره ولا ينساه ، ويحرص على متابعة جبريل في كل حرف ينزل به كأنه يخشى ضياعه من صدره ، فما أحوجه - وهو الامي - إلى تفريق القرآن وتجيّمه ، يحفظه يسر وسهولة ، ويزداد به كل يوم علماً جديداً ، مؤتمراً بأمر ربه : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدني علماً »^(٢) ومطمئناً الى وعد مولاه « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا يانزه »^(٣) .

وأما تجاوب الوحي مع المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ ففي القرآن منه صور متنوعة ، وألوان متباينة ، تلتقي كلها عند غاية واحدة : وهي رعاية حال المخاطبين ، وتلبية حاجاتهم في مجتمعهم الجديد الآخذ في الازدهار ، وعدم مفاجأتهم بتشريعات وعادات

(١) الاتقان ٧١/١ نقلا عن البرهان ٢٣١/١ .

(٢) سورة طه ١١٤ .

(٣) سورة القيامة ١٦-١٩ (وانظر النبا العظيم ، للدكتور محمد عبد الله

دراز ص ٢٥-٢٦) .

وأخلاق لا عهد لهم بمثلها . وقد أشار الى هذا مكي^(١) في « الناسخ والمنسوخ » حين لاحظ أن نزول القرآن « أدعى الى قبوله اذا نزل على التدريج ، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة ، فانه كان ينفر من قبوله كثير من الناس لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي . ويوضح ذلك ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت : انما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى اذا تاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول شيء « لاتشربوا الخمر » لقالوا : لاندع الخمر أبداً ؛ ولو نزل « لاتزنوا » لقالوا لاندع الزنا أبداً^(٢) .

وكما تدرج الوحي مع النبي الأمي يريه ويعلمه ويهديه حتى « كان خلقه القرآن » كما تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، تدرج في

(١) هو مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ . يكنى أبا محمد ، واصله من القيروان . كثير التأليف في علوم القرآن والعربية . سكن قرطبة ورحل الى مصر مرتين . وتوفي سنة ٤٣٧ . ينسب اليه السيوطي كتاباً في (الناسخ والمنسوخ) منه اقتبس هذه العبارة المذكورة اعلاه . ويذكر له القفطي عدداً من المؤلفات منها « انتخاب كتاب الجرجاني في نظم القرآن » انظر إنباه الرواة ٣/٣١٣-٣١٩ وشذرات الذهب ٣/٢٦٠-٢٦١ ووفيات الاعيان ٢/١٢٠-١٢١ .

(٢) الاتقان ١/٧٣ (وانظر في تفسير المنارج ٢/٢١٩ و ج ٧ ص ٤٩ الحكمة في تحريم الخمر بالتدريج) .

تربية المؤمنين ، فلم يزين قلوبهم بحماية الايمان الصادق ، والعبادة الخالصة ،
والخلق السمح ، إلا بعد أن مهد لذلك بتقييح تقاليدهم الباطلة وعقائدهم
الفاسدة شيئاً فشيئاً . وساعدتهم نزوله المنجم على حفظ آياته في الصدور ،
كما قوى من عزائمهم في الشدائد ، فكان دستور حياتهم علماً وعملاً ،
وكان المدرسة الصالحة التي جعلت منهم رجالاً وأبطالاً . ولعل ابن
عباس في قوله « نزله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم »^(١) عند
تفسيره قوله تعالى « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق »^(٢) إنما كان
يوميء الى هذا النوع من التربية السامية التي أتاحها للمؤمنين نزول
كتابهم منجماً بحسب الحاجة ، متدرجاً مع الوقائع والاحداث .
وبعد ... لئن كان تصوير الوحي لشخص الرسول دليلاً وجدانياً
على صدقه عليه السلام ، لعمرى إنه في تدرج نزوله برهات منطقي
محسوس على أن هذا الكتاب المجيد كلام الله العليم الحكيم ، أنزله
على رسوله هدى وموعظة وتبياناً لكل شيء .

(١) أخرجه الطبراني والبخاري من وجه ، وابن أبي حاتم من وجه آخر (انظر
الاتقان ١٨/١ و ٧١/١) وستجد في (مبحث اسباب النزول) بياناً مفصلاً لهذا كله .
(٢) سورة الفرقان ٣٣ .

أسباب النزول

فهم القرآن الكريم متوقف الى حد كبير على معرفة أسباب النزول التي هي من كلام الله بمنزلة مقتضيات الأحوال من كلام البلغاء من البشر . واذا كنا نكلف أنفسنا معرفة حال المتكلم والمخاطب والخطاب نفسه لتحليل نص يبلغ من كلام العرب، وإلا فاتنا الكثير من أغراض هذا النص ، فان معرفتنا للظروف التي نزل فيها الوحي ، وللأحداث التي سببت نزوله ، ينبغي أن تكون أوكد وأزرم ، وأدق وأعمق^(١) .
وكثيراً ما يكون جهل الناس بأسباب النزول موقفاً في اللبس والابهام ، فيفهمون الآيات علي غير وجهها ، ولا يصيبون الحكمة الالهية من تنزيلها ، كما حدث لمروان بن الحكم حين توهم أن قوله تعالى : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبتهم بمفازة من العذاب »^(٢) وعيد للمؤمنين ؛ فقال

(١) قال ابن تيمية : « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب » وقال الواحدي : « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها » وقال ابن دقيق العيد : « معرفة سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن » . انظر الاتقان ٤٨/١ .

ويقارب العبارة الاخيرة قول أبي الفتح القشيري : « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز ؛ وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا » انظر البرهان ٢٢/١ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٨ .

لبوابه : اذهب يا رافع الى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون ! فقال ابن عباس : وما لكم ولهذا ! انما دعا النبي ﷺ يهود ، فسألهم عن شيء فكتموه اياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا اليه بما أخبروه عنه فيما سألهم ، وفرحوا بما أتوا من كتبهم ، ثم قرأ ابن عباس : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه^١ » حتى قوله « يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا »^(١) فلم يزل الاشكال إلا بمعرفة سبب النزول .

ولولا بيان سبب النزول لظلّ الناس الى يومنا هذا يبيحون تناول المسكرات وشرب الخمر أخذاً بظاهر قوله تعالى في سورة المائدة : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا »^(٢) فقد « حكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنها كانا يقولان : الخمر مباحة ، ويحتجان بهذه الآية ، وخفي عليهما سبب نزولها ، فانه يمنع من ذلك ، وهو ما قاله الحسن وغيره : لما نزل تحريم الخمر قالوا : كيف باخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم ، وقد أخبرنا الله أنها رجس ! فأنزل الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير ٣/١١٥ ؛ تفسير ابن كثير ١/٤٣٦ ؛

الاتقان ١/٤٨ ؛ البرهان ١/٢٧ .

(٢) سورة المائدة ٩٣ .

الصالحاتُ جناحُ فيا طعموا»^(١).

وإذ كان بحثنا عن أسباب النزول خاصة ، فاننا لن نعرض لما أنزله الله ابتداء غير مبني على سبب من سؤال أو حادثة ، كآيات المشتملة على قصص الامم الغابرة مع أنبيائها ، أو وصف بعض الوقائع الماضية أو الأخبار الغيبية المستقبلية ، أو تصوير قيام الساعة أو مشاهد القيامة أو أحوال النعيم والعذاب — وهي في القرآن كثيرة أنزلها الله لهداية الخلق الى الصراط المستقيم ، وجعلها مرتبطة بالسياق القرآني سابقه ولاحقه ، من غير أن تكون إجابة عن سؤال ، أو بياناً لحكم شيء وقع . قال السيوطي : « والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة به ، فان ذلك ليس من أسباب النزول في شيء ، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية ، كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك ، وكذلك ذكره في قوله « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » سبب اتخذه خليلاً ، فليس ذلك من أسباب النزول كما لا يخفى »^(٢).

(١) البرهان ١/٢٨ (قارن بأسباب النزول للواحدى ١٩٦؛ وتفسير ابن كثير

١/٩٧؛ والاتقان ١/٤٨).

(٢) الاتقان ١/٥٣.

واذن فبحثنا ينحصر في معرفة « ما نزلت الآية أو الآيات بسببه متضمنة له أو مجيبة عنه أو مينة لحكمه أيام وقوعه » وهو ما عبرنا عنه بسبب النزول .

والوسيلة الوحيدة التي يمكن أن توصلنا إلى معرفة سبب النزول هي الرواية الصحيحة . قال الواحدي في « أسباب النزول » : « ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب ، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الاسباب ، وبحثوا عن علمها »^(١) .

ونحن مهما جددنا في الطلاب والبحث عن الروايات الصحيحة التي توصلنا إلى أسباب نزول الكتاب ، لن يكون في وسعنا أن نجمع كل الآيات التي وقع نزولها بعد أسئلة أو أسباب . فذلك يحوجنا إلى تصانيف كثيرة تستوعب هذه المعلومات الواسعة . وقد افتتح السيوطي باب معرفة سبب النزول في (الاتقان) بذكر الذين ألفوا في هذا العلم فقال : « أفردته بالتصنيف جماعة أقدمهم علي بن المديني^(٢) شيخ البخاري . ومن أشهرها كتاب الواحدي^(٣) - علي مافيه من إعواز - وقد اختصره الجعبري^(٤) ، فحذف اسانيده ولم يزد عليه شيئاً ، والف فيه شيخ

(١) الاتقان ١/٥٢ .

(٢) سبقت ترجمته ص ١٨ حاشية ٢ .

(٣) هو علي بن احمد المشهور بالواحدي ، ويكنى أبا الحسين ، نحوي ومفسر ،

توفي سنة ٤٢٧ (إنباه الرواة ١/١١٩) .

(٤) هو ابراهيم بن عمر بن ابراهيم المشهور بالجعبري ، ويلقب بيهان الدين . =

الاسلام أبو الفضل ابن حجر كتاباً مات عنه مسودة ، فلم تقف عليه كاملاً ، وقد الفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله في هذا النوع سميته « لباب النقول ، في أسباب النزول »^(١) . ٥١٥ .

وعلماء السلف الصالح كانوا يتشددون كثيراً في الروايات المتعلقة بأسباب النزول ؛ فهذا محمد بن سيرين^(٢) يقول : سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال : « اتق الله وقل سداداً ، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن »^(٣) ولكن هذا الورع لم يكن ليمنعهم من قبول أخبار الصحابة في مثل هذه الموضوعات ، وحجتهم في هذا لا تقبل الجدل ، فهم يرون « أن قول الصحابي فيما لا مجال للرأي والاجتهاد فيه ، بل عمدته النقل والسماع ، محمول على سماعه من النبي ﷺ ، لأنه يبعد جداً أن يقول ذلك من تلقاء نفسه »^(٤) ولذلك قرر ابن الصلاح والحاكم وغيرهما في علوم الحديث أن الصحابي الذي شهد الوحي والتزويل إذا أخبر عن آية

له تصانيف قيمة منها « روضة الطرائف في رسم المصاحف » ، وكتاب « عقود الجنان » . وله كذلك شرح « كنز المعاني » على منظومة الشاطبي في القراءات . توفي سنة ٧٣٢ (الدرر الكامنة ٥٠ / ١) .

(١) الاتقان ٤٨ / ١ وقد طبع (لباب النقول) بيولاق سنة ١٢٨٠ هـ بهامش تفسير الجلالين .

(٢) هو محمد بن سيرين البصري ، ويكنى أبا بكر . اشتهر بالحديث وتعبير الرؤيا وكان إمام عصره في علوم الدين بالبصرة . توفي سنة ١١٠ (تهذيب التهذيب ٩ / ٢١٤) (٣) الاتقان ٥٢ / ١ .

(٤) منهج الفرقان ، لمحمد علي سلامة ، ص ٣٩ . وانظر الاتقان ١٥ ص ٥٢ .

أنها انزلت في كذافانه حديث مسند ، له حكم المرفوع^(١) .
وليس من الرواية الصحيحة في هذا المجال قول التابعي إلا اذا
اعتضد بمرسل آخر رواه أحد أئمة التفسير الذين ثبت أخذهم عن
الصحابة ، كعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصري
وسعيد بن المسيب والضحاك^(٢) .

و يقبول خبر الصحابي الذي شهد التنزيل ، والتابعي الذي أخذ عن
الصحابي فهم أن الغرض من اشتراط صحة الرواية التحقق من وقوع
المشاهدة أو السماع للحادثة أو السؤال الذي كان سبب نزول شيء من القرآن
وعبارة الرواية الصحيحة في سبب النزول ، اما نص في بيان هذا
السبب واما محتملة له ولسواه . فاذا صرح الراوي بلفظ السبب فقال:
(سبب نزول هذه الآية كذا) أو أتى بفاء تعقيبية داخلية على مادة نزول
الآية بعد سرده حادثة ما أو ذكره سؤالاً طرح على رسول الله (ﷺ)

(١) معرفة سبب النزول امر يحصل للصحابة بقرائن تختلف بالقضايا ، وربما
لم يجزم بعضهم فقال: « احسب هذه الآية نزلت في كذا » كما اخرجه الائمة الستة
عن عبد الله بن الزبير قال: خاصم الزبير رجلاً من الانصار في شراج الحرّة، فقال
النبي ﷺ: اسق يا زبير، ثم ارسل الماء الى جارك، فقال الانصاري: يا رسول الله
ان كان ابن عمك، فتلون وجهه، الحديث. قال الزبير فما احسب هذه الآيات الا
نزلت في ذلك (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم) .
(الاتقان ١٥ ص ٥٢) . انظر ايضاً (الاتقان ٢٥ ص ٢٩٩) . والشراج
جمع شرج ، وهو مسيل ماء من الحرّة الى السهل .

(٢) الاتقان ١٥ ص ٥٣ .

فقال (حدث كذا أو سئل عليه السلام عن كذا فنزلت آية كذا)
فذلك نص واضح في السببية. وأما إذا اكتفى بقوله (نزلت هذه الآية
في كذا) فان العبارة تحتمل مع السببية شيئاً آخر هو ما تضمنته الآية
من الاحكام . قال الزركشي في « البرهان » : « قد عرف من عادة
الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : (نزلت هذه الآية في كذا)
فانه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان
السبب في نزولها . وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من المرفوع المسند
كما في قول ابن عمر في قوله تعالى (نساؤكم حرث لكم) وأما الامام
أحمد فلم يدخله في المسند ، وكذلك مسلم وغيره ، وجعلوا هذا مما يقال
بالاستدلال وبالتأويل ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية
لا من جنس النقل لما وقع «^(١) ، ولذلك لو قال راو : نزلت هذه الآية
في كذا وقال آخر : نزلت في غير ذلك ، فان كان اللفظ يحتمل كلا
القولين حمل عليهما ، ولا تناقض في ذلك ، وإلا تعين ما يدل عليه اللفظ
ويساعد السياق على فهمه . وأما إذا قال أحد الراويين : (نزلت الآية
في كذا) غير مصرح بلفظ السببية ، وقال الآخر : (سبب نزول الآية
كذا) بهذا النص الصريح ، فان المعول عليه ما كان نصاً ، فهو أولى
بالتقديم مما كان محتملاً .

(١) هذه عبارة الزركشي في « البرهان » ص ٣١-٣٢ ، وقد اختصرها

السيوطي في الاتقان ص ٥٣ .

وقد تتعدد الروايات في سبب نازل واحد من القرآن ، وتؤدى تلك الروايات بالفاظ صريحة في افادة السببية ، فللعلماء في مثل هذه الحال مقياس دقيق يرجحون به احدى تلك الروايات أو يوفقون بينها توفيقاً سائغاً مقبولاً .

فان جاءت روايتان كلتاهما صحيحة ، ولم نستطع ترجيح احدهما جمعنا بينهما وحملنا الامر على وقوع سببين نزلت الآية بعدهما معاً ، مثال ذلك ما أخرجه الشيخان - واللفظ للبخاري - عن سهل بن سعد « أن عويمراً أتى عاصم بن عدي ، وكان سيد بني عجلان ، فقال : كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقنته فتقتلونه أم كيف يصنع ؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك : فأتى عاصم النبي ﷺ فقال يارسول الله ، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها فقال عويمر : والله لا أتهمي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فجاءه عويمر فقال يارسول الله ، رجل وجد مع امرأته رجلاً ، أيقنته فتقتلونه أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك . فامرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمي الله في كتابه فلا عنها »

واخرج البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس ان هلال بن امية^(١) كذب امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحاء . فقال : النبي ﷺ : « البينة او حد في ظهرك » فقال : يارسول الله ، اذا وجد

(١) هو هلال بن امية الخزاعي ، أحد الثلاثة الذين خلدوا وضاقت عليهم الارض بما رحبت ، ثم تاب الله عليهم .

احدنا مع امرأته رجلا ينطلقُ ياتمسس البيئَةَ^(١) . فنزل جبريل عليه السلام وانزل عليه : « والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداءُ الا انفسهم » حتى بلغ « ان كان من الصادقين » .^(٢) فتقاربُ الزمن بين الحادِثين يجعل الجمع بينهما ميسوراً ، فقد بدأ احد هذين الصحابين سؤال رسول الله ﷺ عن الموضوع ، ثم قفاه الآخر قبل ان يجيبه عليه السلام ، ثم انزل الله آيات الملائنة في سورة النور اجابةً لكلا السائلين . وليس بعيد — كما يقول الحافظ الخطيب — ان يكون قد « اتفق لهما ذلك في وقت واحد » وحمل الامر على تعدد السبب هو الظاهر ، وهو اولى بالاعتبار ، « ولا مانع من تعدد الاسباب » ، على حد تعبير ابن حجر^(٣) .

وان كانت الروايتان صحيحتين ، ولم نستطع ترجيح احدهما ولا الجمع بينهما لتباعد الزمن بين احداثهما ، حملنا الامر على تعدد نزول الآية .

مثال ذلك : ما اخرج به البيهقي والبخاري عن ابي هريرة ان النبي ﷺ

(١) وفي رواية أنه قال : « والذي بعثك بالحق اني لصادق ، ولينزلن الله تعالى ما يبوسىء ظهري من الحد » .

(٢) راجع تفصيل القصة في تفسير ابن كثير ٣٠ ص ٢٦٥ ، وقارن ذلك

بالاقتان ١٠ ص ٥٦ .

(٣) الاقتان ١٠ ص ٥٦ .

وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال : « لا مثلنَّ بسبعين منهم مكاً نك » فنزل جبريل — والنبي ﷺ واقف — بخواتيم سورة النحل : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » الى آخر السورة ، وهن ثلاث آيات ^(١) .

واخرج الترمذي والحاكم عن ابي بن كعب قال : « لما كان يوم احد اصيب من الانصار اربعة وستون ، ومن المهاجرين ستة ، منهم حمزة ، فمثلوا به ، فقالت الانصار : لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لئُرَّ بينَ عليهم . فلما كان يوم فتح مكة انزل الله « وان عاقبتم الآية ^(٢) . لا يمكننا هنا الجمع بين الروايتين ، لتباعد الزمن بين الحادثتين ، فاحدهما — متعلقة بغزوة احد ، والاخرى بفتح مكة ، وبينهما بضع سنين ، فلا بد لنا من القول بتعدد نزول الآيات ، اول الامر في غزوة احد ، وبعد ذلك عقب فتح مكة . ومن ذلك ما يرويه البخاري — واللفظ له — عن المسيد « لما حضرت ابا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده ابو جهل وعبد الله بن ابي امية ؛ فقال النبي ﷺ أي عم قل لاله الا الله احاج لك بها عند الله ، فقال ابو جهل وعبد الله بن ابي امية

(١) « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين . واصبروا وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون . ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

(٢) الاتقان ج ١ ص ٥٧ .

يا ابا طالب، اترغب عن ملة عبدالمطلب ! فقال النبي ﷺ : لا استغفرون لك ما لم أنه عنك : فنزلت : (ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ...) الى قوله (انه بهم رءوف رحيم)^(١) وهذه الآية من سورة التوبة نزلت في المدينة آخر الامر بالاتفاق ، مع ان وفاة ابي طالب كانت في مكة^(٢) ؛ ومن ذلك سورة الاخلاص ، فقد ورد انها جواب للمشركين بمكة ، وجواب لاهل الكتاب بالمدينة^(٣) . ولا مانع من تعدد النزول . قال الزركشي في « البرهان » : « وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه ، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه ، كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين : مرة بمكة ، وأخرى بالمدينة »^(٤) . وإن كانت الروايتان صحيحتين ، ويمكننا ترجيح احدهما لانها اصح من الاخرى ، او لأن راويها شهد الحادثة دون راوي الاخرى ، فلا ريب ان سبب النزول يؤخذ من الراجحة الاصح .

مثال ذلك : ما اخرجه البخاري عن ابن مسعود قال : كنت امشي مع النبي ﷺ بالمدينة ، وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتموه . فقالوا : حدثنا عن الروح . فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت انه يوحى اليه ، حتى صعد الوحي ، ثم قال : « قل

(١) التوبة ١١٣ (وانظر البخاري ٣ كتاب التفسير ص ١٧٣) .

(٢) البرهان للزركشي ج ١ ص ٣١ . (٣) البرهان ١/٣٠ .

(٤) البرهان ١/٢٩ (فصل فيما نزل مكرراً) .

الروح من امر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلاً»^(١) . وما اخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال : « قالت قريش لليهود : اعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل . فقالوا : اسألوه عن الروح ، فسألوه ، فأنزل الله : « ويسألونك عن الروح » الآية^(٢) .

هنا روايتان احدهما عن البخاري فهي صحيحة ، والاخرى عن الترمذي وقد صححها ايضاً ، الا ان صحيح البخاري يقدم لدى الجمهور على صحيح الترمذي ، فالرواية الاولى ارجح من هذا الوجه ، ثم ان ابن مسعود في هذه الرواية الراجحة قد حضر القصة وعانها وما رآه كمن سمع ، وهذا وجه ثان في ترجيحها ، بل هو الوجه الأقوى في الترجيح^(٣) .

وإذا كنا نأخذ في بيان السببية بالرواية الأرجح الأصح ، مع ان ثمة رواية اخرى صحيحة كذلك لكنها مرجوحة ، فمن الطبيعي بعد ذلك ان ما صحت فيه احدى الروايتين دون الاخرى لم يعول فيه الا

(١) هذه عبارة السيوطي في الاتقان ١٥ ص ٥٥ نقلاً عن صحيح البخاري ، وللبخاري في هذا الصدد رواية أخرى يختلف لفظها اختلافاً يسيراً عن التي اوردها السيوطي ، (تراجع في كتاب التفسير ٣٥/١٥١ ١٥٢) وابن كثير يوسى في تفسيره (٣٥ ص ٦٠) الى هذا الحديث برواية احمد بسنده عن عبد الله بن مسعود .

(٢) الاتقان ١٥ ص ٥٥ .

(٣) وفي هذا يقول السيوطي : « وقد رجّح بأن ما رواه البخاري أصح من غيره ، وبأن ابن مسعود كان حاضر القصة » الاتقان ١٥ ص ٥٥ .

على الصحيحة . مثال ذلك ما اخرجہ الشيخان وغيرهما عن جندب قال : « اشكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة او ليلتين ، فأنته امرأة فقالت : يا محمد ، ما ارى شيطانك الا قد تركك . فأنزل الله « والضحي والليل اذا سجا ، ما ودعك ربك وما قلى » واخرج الطبراني وابن ابي شيبه ، عن حفص بن ميسرة عن امه عن امها ، وكانت خادماً رسول الله ﷺ ، « ان جرواً دخل بيت النبي ﷺ ، فدخل تحت السرير ، فمات ، فمكث النبي ﷺ اربعة ايام لا ينزل عليه الوحي ، فقال : ياخولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ ؟ جبريل لا يأتيني . فقلت في نفسي : لو هيات البيت وكنسته ، فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فأخرجت الجرو ، فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته ، وكان اذا نزل عليه اخذته الرعدة ، فانزل الله : « والضحي » الى قوله « فترضى » . ورائحة الوضع ظاهرة في الرواية الثانية ، فكل ما فيها من اللفظ والمعنى يدعو الى الدهشة والاستغراب ، بينما الرواية الاولى صحيحة ، فلا مسوغ لترددنا وتساؤلنا : أيهما تعمل وأيها تهمل ؟ اذ لا وجود للباطل الى جانب الصحيح . قال ابن حجر : « قصة ابطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب ، وفي اسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح » ^(١) .

وقد تكون حادثة واحدة سبباً في نازلين او اكثر من القرآن ،

(١) الاتقان ١/٤٤ « والروايتان كلتاهما مع تعليق ابن حجر في الصفحة نفسها » .

وهو ما يعبرون عنه بقولهم : تعدد النازل والسبب واحد . مثال الحادثة الواحدة تكون سبباً في نازلين ، ما أخرجه ابن جرير الطبري والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال : « انه سيأتيكم انسان ينظر اليكم بعيني شيطان ، فاذا جاء فلا تكلموه . فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : علام تشمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم . فأنزل الله : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا ، وما تقوموا إلا أن اغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيراً لهم . وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة . وما لهم في الارض من ولي ولا نصير » من سورة التوبة . وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالوا : فأنزل الله « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شيء . ألا إنهم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، اولئك حزب الشيطان . ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » من سورة المجادلة .^(١)

ومثال الحادثة الواحدة تكون سبباً في أكثر من نازلين من القرآن ما أخرجه الحاكم والترمذي عن أم سلمة أنها قالت يا رسول الله ، لا أسمع

الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم ، من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله . والله عنده حسن الثواب » من سورة آل عمران .

وأخرج الحاكم ايضاً عنها أنها قالت : قلت يا رسول الله : تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزل الله « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » ، وانزل : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيماً » من سورة الاحزاب . وأنزلت : « اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى » الآيات السابقة من آل عمران (٢) .

وقد اختلف العلماء : هل العبرة بخصوص السبب ام بعموم اللفظ ؟ فذهب الجمهور الى ان العبرة بعموم اللفظ ، فالنص القرآني العام الذي نزل بسبب خاص معين يشمل نفسه أفراد السبب وغير أفراد السبب .

(١) (الاتقان) ١٥ ص ٥٧ - ٥٨ .

ورأي الجمهور هو الاصح ، لان عمومات القرآن لا يعقل ان توجه الى شخص معين ، قال ابن تيمية : « والناس وان تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب : هل يختص بسببه ؟ لم يقل احد ان عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين ، وانما غاية ما يقال : انها تختص بنوع ذلك الشخص ، فتعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ . والآية التي لها سبب معين ان كانت أمراً او نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلة^(١) . وقال الزر كشي : « وقد يكون السبب خاصاً والصيغة عامة ؛ لينبه على ان العبرة بعموم اللفظ . وقال الزمخشري^(٢) في تفسير سورة الهُمَزَة : « يجوز ان يكون السبب خاصاً والوعيد عاماً ؛ ليتناول كل من باشر ذلك القبيح ؛ وليكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيه ؛ فان ذلك أزجر له ، وانكى فيه^(٣) .

(١) الاتقان ١٥ ص ٥١ .

(٢) هو ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري . من ائمة التفسير واللغة والنحو . توفي ٥٣٨ واشهر كتبه تفسير الكشاف .

(٣) البرهان ١/٣٢ « فصل خصوص السبب وعموم الصيغة » .

جمع القرآن وكتابه

لجمع القرآن معنيان وردت النصوص بكليهما ، ففي قوله تعالى (إن علينا جمعه وقرآنه) ورد الجمع بمعنى الحفظ ، ومنه جامع القرآن : اي حفاظه . والمعنى الثاني لجمع القرآن هو كتابته كله مفرق الايات والسور ، او مرتب الايات فقط وكل سورة في صحيفة على حدة ، أو مرتب الايات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعاً وقد رتب احداها بعد الاخرى .

فاما جمع القرآن بمعنى حفظه واستظهاره في لوح القلب فقد اوتيه رسول الله قبل الجميع ، فكان عليه السلام سيدا الحفاظ واول الجماع ، وتيسر ذلك لنخبة من صحابته على عهده ، ولا بد ان يكون عدده هذه النخبة غير قليل ، « فقد قتل منهم — كما يقول القرطبي — يوم بئر معونة سبعون وقتل في عهد رسول الله ﷺ مثل هذا العدد » ^(١) ولو أخذنا بظاهر الروايات التي يذكرها البخاري في « صحيحه » لحسبنا ان عدد الحفاظ على عهد الرسول ﷺ لا يزيد عن السبعة . وهؤلاء السبعة انفسهم لا تسرد أسماءهم متعاقبة في رواية واحدة في « الصحيح »

وانما تجمع من ثلاث روايات فيه مع ترك الاسماء المكررة^(١). ولذلك يُطلق المستشرق بلاشير Blachère الحكم «بان الحديث النبوي لا يعرف للقرآن إلا سبعة من الحفاظ»^(٢)، ويفوته ماعلق به العلماء على هذه الروايات مستبعدين فيها صيغة الحصر، ومؤولين ماجاء فيها تأويلاً

(١) افتتح السيوطي (الاتقان ١/١٢١) النوع العشرون في معرفة حفاظه ورواته (هذا الباب يذكر تلك الروايات الثلاث عن البخاري، فالاولى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب» والثانية عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أربعة، كلهم من الانصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت وأبو زيد. قلت: من أبو زيد؟ قال: احد عمومي. والثالثة من طريق ثابت عن أنس قال: مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. (وتراجع أسماء هؤلاء الحفاظ في صحيح البخاري في الباب السابع عشر من كتاب مناقب الانصار).

(٢) وهؤلاء السبعة هم: عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء. انظر:

Blachère, Introduction au Coran, p. 28 note 26.

ولكن بلاشير في موضع آخر (p. 20 note 20) يذكر اسماً من اسماء هؤلاء الحفظة لم يكن وارداً في روايات البخاري الثلاث، وهو سعيد بن عبّيد ويشير الى أنه كان يلقب بالقاري. وانظر (الاصابة لابن حجر ٢/٢٨ رقم ٣١٧٦)

سائغاً مقبولاً . « قال الماوردي ^(١) : وكيف يمكن الاحاطة بأنه لم يكمله سوى اربعة ^(٢) ، والصحابة متفرقون في البلاد! وان لم يكمله سوى اربعة فقد حفظ جميع اجزائه مثنون لا يحصون ، قال الشيخ : وقد سمي الإمام ابو عبيد القاسم بن سلام ^(٣) القراء من الصحابة في أول كتاب القراءات له ، فسمى عدداً كثيراً ^(٤) » .

والسيوطي في « الاتقان » يذكر بعض هؤلاء القراء باسمائهم التي وردت في كتاب « القراءات » المنسوب إلى أبي عبيد ، فيفهم منه أن أبا عبيد « عد من المهاجرين الخلفاء الأربعة ، وطلحة ، وسعداً ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم ، وأبا هريرة ، وعبدالله بن السائب ، والعبادلة ^(٥) ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ؛ ومن الانصار عبادة

(١) الماوردي هو علي بن حبيب ، ويكنى أبا الحسن . شافعي المذهب . له كتاب الاحكام السلطانية وكتاب أدب الدنيا والدين توفي سنة ٤٥٠ انظر شذرات الذهب ٢٨٥/٣ - ٢٨٦ .

(٢) إنما قال « أربعة » لأن كل واحدة من روايات البخاري الثلاث اشتملت على أسماء اربعة من الحفاظ ، كما أشرنا الى ذلك في الحاشية ١ ص ٦٨ وجاءت رواية أنس فوق هذا بصورة الحصر ، فكان لا بد أن يستبعد ذلك وأن يؤول تأويلاً آخر .

(٣) سبقت ترجمته ص ١٨ حاشية ٣ .

(٤) البرهان ٢٤٢/١ .

(٥) العبادلة الأربعة المشهورون بالافتاء هم عبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

بن الصامت ، ومعاذاً الذي يكنى أبا حليلة ، ومجمع بن جارية ،
وفضالة بن عبيد ، ومسامة بن مخلد . وقد صرح بأن بعضهم إنما كتمه
بعد النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) .

وهؤلاء الذين عدّهم القاسم بن سلام من المهاجرين والأنصار
وأهات المؤمنين ليسوا إلا طائفة من الاصحاب الذين جمعوا كتاب
الله في صدورهم ، وتيسر لهم أن يعرضوه على النبي صلى الله عليه وسلم ،
فكانوا بذلك تلامذة له وكان شيخاً لهم . وإلا فإن الذين حفظوا
القرآن من الصحابة من غير أن يعرضوه على الرسول لا يحصون
عدداً ، ولا سيما إذا أدخلنا في عددهم من لم يكمل له الجمع إلا
بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وفي مقدمة « طبقات القراء » ^(٢)
للحافظ الذهبي ^(٣) « ما يبين ذلك ، وإن هذا العدد هم الذين عرضوه على
النبي صلى الله عليه وسلم واتصلت بنا أسانيدهم ، وأما من جمعه

(١) الاتقان ١/١٢٤ .

(٢) ذكر الاستاد محمد أبو الفضل ابراهيم أن في دار الكتب المصرية نسخة
مصورة من كتاب (طبقات القراء) برقم ١٥٣٧ تاريخ - عن نسخة كبريلى
رقم ١١١٦ (انظر البرهان ١/٢٤٢ من الحاشية ٢) والزر كشي بسمي هذا
الكتاب (معرفة القراء) .

(٣) هو الحافظ شمس الدين الذهبي ، واسمه محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز
أحد كبار المحدثين في القرن الثامن ، وصاحب التأليف الكثيرة في الحديث .
توفي سنة ٧٤٨ (انظر الدرر الكامنة ٢/٢٩٨) .

منهم^(١) ولم يتصل بنا فكثير^(٢) .

وجماع القرآن في عهد الرسول ﷺ مهبا يبلغ عددهم من الكثرة يظل دون تصوير شغفهم بالقرآن الذي كان يملك عليهم قلوبهم ، حتى اضحى همهم الأوحى قراءة الكتاب والاستماع اليه . روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني لأعرف أصوات رُفقة الأشعرين بالليل حين يدخلون ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار »^(٣) .

وكانوا - فوق هذا - يتدارسون القرآن ويستظفرونه ليتمكنوا من قراءته في الصلوات المكتوبة ليلاً أو نهاراً ، سرّاً أو جهرّاً ، وفي النوافل التي يتطوعون بها . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يساعدهم على هذا التدارس ويرغبهم فيه ويشجعهم عليه ، بل كان عليه السلام يختار أعلمهم بكتاب الله ليفقهه إخوانه ، « فكان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل من الصحابة يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة

(١) مادة (الجمع) بمعنى الحفظ درسها المستشرق شفالي وعني بتبع شواهدا

وأشار الى امهات مصادرها في كتابه :

Schwally, geschichte des Qorans. t. II, Die Sammlung des Qorans, 6, note 2 (V. Blachère, Intr. Cor., 20, note 20)

(٢) البرهان ١/٢٤٢ .

(٣) مناهل العرفان للزرقاني ١/٣١٣ .

القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا اصواتهم لئلا يتغالطوا»^(١) .
وقد أشتهر بإقراء القرآن من الصحابة سبعة : عثمان بن عفان ،
وعلي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن
مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ،
وقد قرأ علي بن أبي كعب جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة ،
وابن عباس ، وعبد الله بن السائب ، وأخذ ابن عباس عن زيد بن
ثابت أيضاً ، وأخذ عنهم خلق من التابعين^(٢) : وهكذا كان في العصر
النبي شبه مدرسة لتحفيظ القرآن وتدارسه .

ويؤكده ابن الجزري^(٣) « أن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ
القلوب والصدور ، لا على خط المصاحف والكتب ، أشرف
خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » ويستدل على ذلك بالحديث
الصحيح الذي رواه مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن ربي
قال لي قم في قريش فأنذرهم ، فقلت له أي رب إذن يثاغوا^(٤) رأسي

(١) المصدر السابق ١/٢٣٤ .

(٢) الالتفات ١/١٢٥ وقد جمع السيوطي هذه المعلومات من (طبقات
القراء) للذهبي ، وأشار الى ذلك .

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد ، ابو الخير شمس الدين الشهير بابن الجزري ،
شيخ القراء في زمانه . من أشهر كتبه (النشر في القراءات العشر) . توفي سنة
٨٣٣ هـ (الاعلام ٣/٩٧٨)

(٤) ثلغ رأسه وقلعه ، شدخه .

حتى يدعوه خبزة . فقال إني مبتليك ومبتلي بك ، ومنزلُ عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان « الخ »^(١) ... الحديث ، ومنه يفهم أن القرآن يقرأ عن ظهر قلب في كل حال ، فلا يحتاج جامعه إلى النظر في صحيفة كُتِبَتْ بالمداد الذي ينطمس ويزول إذا غسل بالماء . واما جمع القرآن بمعنى كتابته ، فقد اتخذ ثلاثة أشكال في ثلاثة عهود في الصدر الاول ، أولها عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وثانيها عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وثالثها عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه .

١ - جمع القرآن كتابته على عهد الرسول (ص)

اتخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) كتاباً للوحي فيهم الخلفاء الاربعة ومعاوية وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وخالد بن الوليد وثابت بن قيس ، كان يأمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن ، حتى تظاهر الكتابة جمع القرآن في الصدور^(٢)

وقد أخرج الحاكم في (المستدرک) بسند على شرط الشيخين عن

(١) مناهل العرفان للزرقاني ٢٣٥/١ .

(٢) استطاع المستشرق بلاشير أن يبلغ بكتابة الوحي اربعين رجلاً :

(Blachère, Intr. Cer., p.12) وقد انتهى الى ذلك من مقارنته بين ما كتبه شفالي وُ بهل وكازانوف ، وقد اعتمد الاخير على نصوص وردت في طبقات ابن سعد ، وعلى ما كتبه الطبري والنووي وصاحب السيرة الحلبية وغيرهم . وانظر بوجه خاص (Casanova , Mohammed et la fin du monde,96)

زيد بن ثابت أنه قال : « كُنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
نؤلف القرآن من الرقاع »^(١) .

وكلمة « الرقاع » في الحديث (وهي جمع رقعة ، وقد تكون من
جلد أو ورق أو كاغد) تشعرنا بنوع ادوات الكتابة المتيسرة
لكتاب الوحي على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكانوا
يكتبون الآيات في اللخاف (جمع لَحْفَة وهي الحجارة الدقاق
أو صفائح الحجارة) والعُسْب (جمع عَسِب وهو جريد النخل كانوا
يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض) والاكْتاف
(جمع كَتَف وهو عظم البعير أو الشاة يكتبون عليه بعد أن يجف)
والاقتاب (جمع قَتَب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير
ليركب عليه) وقطع الاديم (أي الجلد)^(٢)

ومعنى تأليف القرآن من الرقاع (الوارد في حديث زيد) ترتيب
السور والآيات وفق إشارة النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيفه . « فأما
الآيات في كل سورة ووضع البسمة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ،
ولا خلاف فيه ، ولهذا لا يجوز تعكيسها »^(٣) . ويستدل على ذلك

(١) الاتقان ٩٩/١ والبرهان ٢٣٧/١ .

(٢) انظر شرح هذه الكلمات في (الاتقان) ١٠١/١ .

(٣) هذه عبارة الزركشي في « البرهان ٢٥٦/١ » وقد أشار السيوطي الى
هذا الاجماع الذي نقله الزركشي حول ترتيب الآيات التوقيفي . ثم ذكر في =

بما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان : « والذين يتوفونَ منكم ويذرون، أزواجاً »^(١) قد نسختها الآية الاخرى ، فلم تكتبها أو تدعها؟ (المعنى : لماذا تثبتها بالكتابة أو تتركها مكتوبة وأنت تعلم بأنها منسوخة) قال : « يا ابن أخي ، لا أغير شيئاً من مكانه »^(٢) . فعثمان لا يجزؤ على تغيير آية من مكانها ولو ثبت له أنها منسوخة ، لأنه يعلم أن ليس له ولا لغيره دخل في ترتيب آيات القرآن بعد أن وقَّف جبريلُ رسول الله على ترتيبها ، ووقَّف رسول الله بدوره كتابة الوحي على ذلك . أخرج أحمد باسناد حسن عن عثمان ابن أبي العاص قال : كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : « إن الله يأمر بالعدل

= هذا الموضوع عبارة لأبي جعفر بن الزبير في « مناسباته » يقول فيها : « ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف بين المسلمين » (انظر الاتقان ١/١٠٤) .

والمراد من قول الزركشي « لا يجوز تعكيسها » وجوب التوام هذا الترتيب التوقيفي بين الآيات ، بحيث لا يقدم فيها ولا يؤخر . وميل الزركشي الى هذا الرأي يزداد وضوحاً بقوله : « وفسر بعضهم قوله (ورتل القرآن ترتيباً) أي اقرأه على هذا الترتيب من غير تقديم ولا تأخير . وجاء التكبير على من قرأه معكوساً » البرهان ١/٢٥٩ .

(١) البقرة ٢٢٤ .

(٢) الاتقان ١/١٠٥ .

والاحسان وإيتاء ذي القربى » الى آخرها^(١) . وفي كتب السنة كثير من الأحاديث التي تصور رسول الله صلى الله عليه وسلم يُملي القرآن على كتاب الوحي ، ويوقفهم على ترتيب الآيات^(٢) . وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سوراً عديدة بترتيب آياتها في الصلاة أو في خطبة الجمعة بمشهد من الصحابة ، فكان ذلك دليلاً محسوساً على « أن ترتيب آياتها توقيفي ، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على خلافه ، فبلغ ذلك مبلغ التواتر »^(٣) وأما ترتيب السور فتوقيفي أيضاً ، وقد علم في حياته صلى الله عليه وسلم ، وهو يشمل جميع السور القرآنية ، ولسنا نملك دليلاً على العكس ، فلا مسوغ للرأي القائل إن ترتيب السور اجتهادي من الصحابة ، ولا للرأي الآخر الذي يفصل : فمن السور ما كان ترتيبه اجتهادياً ، ومنه ما كان توقيفياً .

واذن ، فقول الزركشي : « وترتيب بعضها ليس هو أمراً أوجبه الله ، بل أمرٌ راجع الى اجتهادهم واختيارهم ، ولهذا كان لكل

(١) الاتقان ١/١٠٤ .

(٢) انظر على سبيل المثال صحيح البخاري : كتاب تفسير القرآن الباب الثامن عشر ، وكتاب الاحكام الباب السابع والتسعون ، ومسند أحمد ٣/١٢٠ و ٤/٣٨١ .

(٣) الاتقان ١/١٠٥ .

مصحف ترتيب»^(١) لا ينبغي أن يسلم على علاقته ، لأن اجتهاد الصحابة في ترتيب مصحفهم الخاصة كان اختياراً وقتياً لم يحاولوا أن يلزموا به احداً ، ولم يدعوا ان مخالفته محرمة ، اذ لم يكتبوا تلك المصاحف للناس وانما كتبوها لأنفسهم ، حتى إذا أجمعت الأمة على ترتيب عثمان أخذوا به وتركوا مصحفهم الفردية . ولو أنهم كانوا يعتقدون أن الأمر مفوض الى اجتهادهم ، موكول الى اختيارهم ، لا متمسكوا بترتيب مصحفهم ، ولم يأخذوا بترتيب عثمان . ثم أن الزركشي نفسه يرى أن « الخلاف يرجع الى اللفظ » بين القائلين بالتوقيف والقائلين بالاجتهاد في ترتيب السور ، ويستدل على ذلك بقول « الامام مالك : انما ألقوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم . فالخلاف الى نه : هل ذلك بتوقيف قولي أم بمجرد استناد فعلي »^(٢) .

وأما الرأي القائل بأن الترتيب على قسمين توقيفي واجتهادي ، فلا يستند القسم الاجتهادي فيه الى دليل صحيح ، وهو على كل حال قسم ضئيل لا يكاد يؤبه له . فاذا قال القاضي ابو محمد بن عطية : « إن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها في حياته صلى الله عليه وسلم كالسبع

(١) البرهان ١/٢٦٢ .

(٢) البرهان ١/٢٥٧ .

الطوَل^(١) والحواميم والمفصل^(٢)، رأى ابو جعفر بن الزبير^(٣) ان القسم التوقيفي لا بد ان يكون اكبر من هذا ، وان القسم الاجتهادي هو الاقل . ويفهم هذا بوضوح من قوله : « الآثار تشهد باكثر مما نص عليه ابن عطية ويبقى منها قليل يمكن ان يجري فيه الخلاف »^(٤) .

وهذا القليل الذي يمكن ان يجري فيه الخلاف يعتمد على حديث « ضعيف جداً ، بل هو حديث لا أصل له ، يدور اسناده في كل رواياته على « يزيد الفارسي » الذي رواه عن ابن عباس^(٥) ؛ ويزيد الفارسي هذا « يذكره البخاري في الضعفاء ، فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به ، وفيه تشكيك في معرفة سورة القرآن ، الثابتة بالتواتر القطعي قراءةً وسماعاً وكتابةً في المصاحف ، وفيه تشكيك في اثبات البسملة

(١) كذا في (البرهان) - بضم الطاء . وفتح الواو - والشائع انها (السبع الطوال) بكسر الطاء . غير ان الزركشي يقول : الطوَل بضم الطاء جمع طولى ، كالكبُر جمع كبرى . قال أبو حيان التوحيدى : وكسر الطاء مرذول (البرهان ١/ ٢٤٤) .

(٢) البرهان ١/ ٢٥٧ .

(٣) هو أحمد بن ابراهيم بن الزبير الاندلسي ، صاحب كتاب الذيل على « الصلة » ، كان من النحاة الحفاظ ، توفي سنة ٨٠٧ (الدرر الكامنة ٨٤/١ - ٨٦) .

(٤) البرهان ١/ ٢٥٨ .

(٥) تعليق العلامة أحمد محمد شاكر على الحديث رقم ٣٩٩ في مسند الامام أحمد ج ١ ص ٣٢٩ .

في اوائل السور ، كأنَّ عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه ، وحاشاه من ذلك . فلاعيلنا اذا قلنا انه «حديث لا أصل له»^(١) ولاداعي للاطالة بذكر هذا الحديث الباطل ، بل نشير الى أن موضع الشاهد فيه جواب عثمان لابن عباس ، معللاً قرناً براءة بالانفال من غير البسمة: «وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة ، وبراءة من آخر القرآن ، فكانت قصتها شديداً بقصتها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا انها منها ، وظننت أنها منها ، فمن ثم قرنت بينهما... الخ»^(٢) .

الرأي الراجح المختار اذن أن تأليف السور على هذا الترتيب الذي نجده اليوم في المصاحف هو — كتأليف الآيات على هذا الترتيب — توقيفي لا مجال فيه للاجتهاد . على ان رسول الله ﷺ ، رغم هذا التوقيف ، لم يجد من الدواعي ما يحمله على جمع آيات كل سورة في صحائف على حده ، ولا جمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد : لأن القراء ومستظهري القرآن كانوا كثيرين ، وكان عليه السلام يترقب توالي نزول الوحي عليه ، وامكان ناسخ لبعض احكامه^(٣) ، فالقرآن

(١) من التعليق على الحديث نفسه ، مسند احمد ج ١ ص ٣٣٠ ويستحسن أن يقرأ جميع هذا التعليق فانه نفيس ، ولا يتسع المقام لذكره .

(٢) مسند احمد ، طبعة شاكر ٣٣١/١ (حديث رقم ٣٩٩) وفي الطبعة

القديمة ج ١ ص ٥٧ .

(٣) الاتقان ٩٨/١ والبرهان ٢٣٥/١ .

كله كتب في عهد رسول الله ﷺ ، لكن غير مجموع في صدورهم كما وقفهم عليها الرسول ونههم الى مواضعها بتوقيف من الله. قال الزر كشي: «وانما لم يُكتب في عهد النبي صلى الله عليه مصحف لثلايفضي الى تغييره في كل وقت ، فلماذا تأخرت كتابته الى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ» (١) .

ويمتاز جمع القرآن على عهد رسول الله بأن طريقة كتابته كان ملحوظاً فيها ان تشمل الاحرف السبعة التي انزل عليها . وسنرى مايؤكده ذلك في مبحث « الاحرف السبعة » ،

وكان كل ما يكتب يوضع في بيت رسول الله ﷺ ، وينسخ الكتاب لانفسهم نسخة منه، فتعاونت نسخ هؤلاء الكتاب والصحف التي في بيت النبي مع حافظة الصحابة الاميين وغير الاميين ، على حفظ القرآن وصيائمه ، مصداقاً لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكروانا له لحافظون » (٢) .

٢ -- جمع القرآن في عهد ابي بكر الصديق (رضي الله عنه)

لقد كتب القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ ، الا انه كان مفروق

(١) البرهان ١/٢٦٢ .

(٢) سورة الحجر ٩ .

الآيات والسور ، وأول من جمعه في صحف مرتب الآيات - كما رويت
محفوطة عن الرسول ، هو أبو بكر . قال أبو عبدالله المحاسي ^(١) في
كتاب (فهم السنن) : « كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فانه صلى الله عليه وسلم كان
يأمر بكتابتها ، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والاكتاف ، والعُسب ،
وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً ، وكان ذلك
بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله (ص) فيها القرآن منتشرأ ،
فجمعها جامع وربطها بخيط ، حتى لا يضيع منها شيء » ^(٢) .

وكان جمع أبي بكر للقرآن بعد موقعة اليامة سنة ١٢ اثنتي عشرة
للهجرة ، ففي تلك الموقعة بين المسلمين وأهل الردة من اتباع مسيلمة
الكذاب ، استشهد سبعون من حفظة القرآن من الصحابة ، فبال ذلك عمر
ابن الخطاب وجاء يقترح على أبي بكر جمع القرآن . وفي ذلك يروي
البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت (رضى الله عنه) قال : « أرسل
الي أبو بكر مقتل أهل اليامة ، فاذا عمر بن الخطاب عنده . قال
أبو بكر رضى الله عنه : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر
(اى اشتد) يوم اليامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل

(١) هو الحارث بن أسد المحاسي ، ويكنى أبا عبد الله . من أكبر الصوفية ،
كان عالماً بالاصول والمعاملات ، وهو استاذ اكثر البغداديين في عصره . توفي
بيغداد سنة ٢٤٣ (الاعلام للزركلي ١٥٣/٢) .
(٢) البرهان ٢٣٨/١ والاتقان ١٠١/١ .

بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، واني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : انك رجل شاب عاقل لا تهملك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتنبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ! قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل ابو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر وعمر . فتنبعت القرآن أجمعه من العُصْبِ والخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع ابي خزيمة الانصاري ^(١) لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عـَـتَمْتُمْ » حتى خاتمة براءة . فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر ^(٢) .

(١) وفي رواية : (مع أبي خزيمة الانصاري الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين) البرهان ١/٢٣٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، الباب الثالث والباب الرابع وكتاب الاحكام ، الباب السابع والثلاثون . وفي مسند احمد ج ١ ص ١٣ (وفي طبعة شاكر ١/١٨٥ رقم الحديث ٧٦) وقارن بما في (طبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٠١) .

وقد يقع قارىء هذا النص في إشكال منشؤه تصريح زيد بانه لم يجد آخر سورة التوبة إلا مع أبي خزيمة الانصاري ، ويزول هذا الاشكال سريعاً إذا علم القارىء أن غرض زيد أنه لم يجدها مكتوبة إلا مع أبي خزيمة^(١) ، وقد كان ذلك كافياً لقبوله اياها ، لان كثيراً من الصحابة كانوا يحفظونها ، ولأن زيدا نفسه كان يحفظها ، ولكنه اراد - ورعاً منه واحتياطاً - ان يشفع الحفظ بالكتابة ، وظل ناهجاً هذا المنهج في سائر القرآن الذي تتبعه فجمعه بامر أبي بكر : فكان لا بد لقبول آية او آيات من شاهدين ، هما الحفظ والكتابة ، وبهذا فسر ابن حجر المراد من الشاهدين في قول أبي بكر لعمر وزيد : « اقعدا على باب المسجد ، فمن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه^(٢) » وهو حديث منقطع اخرجه ابن أبي داود^(٣) من طريق هشام بن عروة عن أبيه ، لكن رجاله ثقات . وواضح ان تفسير ابن حجر يلاحظ فيه الاكتفاء بشاهد واحد على

(١) الاتقان ١/١٠١ وينقل السيوطي هنا عن أبي شامة قوله (لم أجدها مع غيره أي لم أجدها مكتوبة مع غيره) .

(٢) الاتقان ١/١٠٠ .

(٣) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ، ويكنى أبا بكر ، من كبار حفاظ الحديث . من كتبه : المصاحف ، والمسند ، والسنن ، والتفسير ، والقراءات ، والناسخ والمنسوخ (الاعلام ٤/٢٢٤) .

الكتابة ، كالشاهد الواحد على الحفظ . وتفسير الجمهور يقوم على ضرورة شاهدَيْن عدلين على الكتابة ، وشاهدين عدلين على الحفظ ، فلا يكتفي بشاهد واحد على كل من الامرين . ويستدل على ذلك بما أخرجه ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : « قَدِمَ عمر ، فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليات به ، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والالواح والعُسْبُ ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيديان » ^(١) قال السخاوي في «جمال القراء» ^(٢) : « المراد أنها يشهدان على ان ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم » ^(٣) . وكان شذوذ آخر سورة التوبة عن هذه القاعدة بوجودها عند أبي خزيمة وحده ، انما روعي فيه تواترها لدى كثير من الصحابة الذين كانوا يستظفرونها حفظاً في الصدور : فهذا الاستظهار المتواتر قام مقام شاهدين بان آخر تلك السورة كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وقول زيد : « لم أجدها الا مع خزيمة » ليس فيه اثبات القرآن

(١) الاتقان ١/١٠٠

(٢) سبقت ترجمة السخاوي ص ١٩ حاشية ٤ وانظر ما يتعلق بكتابه

(جمال القراء) في ص ٢٢ حاشية ١ .

(٣) الاتقان ١/١٠٠ .

بخبر الواحد، لان زيذا كان قد سمعها وعلم موضعها... وتبعه للرجال
كان للاستظهار للاستحداث العلم»^(١).

وقد تم لابي بكر جمع القرآن كله خلال سنة واحدة تقريباً ،
لان أمره زيذا بجمعه كان بعد واقعة اليامة ، وقد حصل الجمع بين هذه
الواقعة ووفاة أبي بكر . وحين تذكر كيف جمع هذا القرآن من
الرقاع والعُسب والآخاف والأقتاب والجلود في هذه المدة القصيرة ،
لايسعنا الا ان نكبر عزيمة الصحابة الذين بذلوا انفسهم لله ، ولايسعنا
الا ان نقول مع علي بن أبي طالب : «رحم الله أبا بكر ، هو أول من
جمع كتاب الله بين اللوحين»^(٢) . أما عمر فقد سجل له التاريخ انه
صاحب الفكرة ، كما سجل لزيد انه وضعها موضع التنفيذ .

وختام النص الذي رواه البخاري عن زيد ينبتنا بان الصحف
التي جمع فيها القرآن كانت عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم صارت
الى عمر وظلت عنده حتى توفاه الله ، ثم صارت الى حفصة بنت عمر
لا الى الخليفة الجديد عثمان . وقد أثارت دائرة المعارف الاسلامية
شبهة حول هذا الموضوع ، قتساءلت : ألم يكن عثمان أجدر أن تودع
هذه الصحف عنده؟^(٣) ونجيب : بل حفصة أولى بذلك وأجدر ، لان

(١) البرهان ١/٢٣٤ .

(٢) البرهان ١/٢٣٩ ؛ المصاحف لابن أبي داود ص ٥ .

(٣) انظر Encyclopédie de l'Islam, II, p. 1130 .

عمر أوصى بأن تكون الصحف مودعة لديها ، وهي زوجة رسول الله
أم المؤمنين ، فضلاً عن حفظها القرآن كله في صدرها وتمسكها من
القراءة والكتابة ، وكان عمر قد جعل أمر الخلافة شورى من بعده
في بضعة اشخاص ، فكيف يسلم الى عثمان هاتيك الصحف قبل ان
يفكر احد في تعيينه للخلافة ؟

ويبدو أن تسمية القرآن « بالمصحف » نشأت على عهد أبي بكر ،
فقد أخرج ابن اشته^(١) في كتاب « المصاحف » من طريق موسى بن
عقبة عن ابن شهاب قال : لما جمعوا القرآن فكتبوه في الورق قال
أبو بكر : التمسوا له اسماً ، فقال بعضهم : « السِّفْرُ » . قال : ذلك
اسم تسميه اليهود . فكرهوا ذلك . وقال بعضهم : « المصحف » فان
الحبشة يسمون مثله « المصحف » فاجتمع رأيهم على ان سموه
« المصحف »^(٢) .

وقد ظفر مصحف أبي بكر باجماع الامة عليه وتواتر ما فيه ،
واشتملت طريقة كتابته على الاحرف السبعة التي أنزل بها القرآن ،
فشابه في هذه الناحية الاخيرة جمع القرآن الاول على عهد
الرسول الامين .

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن اشته ، ويكنى أبا بكر . نحوي محقق
ثقة ، اشتغل كثيراً بعلوم القرآن . و كتابه (المحبّر) يدل على سعة علمه . توفي
سنة ٣٦٠ (انظر غاية النهاية في طبقات القراء ٢ / ١٨٤) .

(٢) الاتقان ١ / ٨٩ .

٣ — جمع القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه

روى البخاري في «صحيحه» بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه ان حذيفة بن اليان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية واذريجان مع أهل العراق ، فافزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان الى حفصة ان أرسلني اليها بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها اليك . فأرسلت بها حفصة الى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فانه انما نزل بلسانهم ؛ ففعلوا . حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا . وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»^(١) .

(١) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، الباب الثاني والباب الثالث ؛ الاتقان ١٠٢/١ ؛ المصاحف لابن أبي داود ١٨ ؛ تفسير الطبري ٢٠/١ - ٢١ ورواية الطبري تربط في سياق واحد بين دؤر أبي بكر ودور عثمان في جمع المصاحف ، وهي من حديث زيد بن ثابت نفسه ، بينما هي في صحيح البخاري تنفرد بوصف دؤر عثمان ، وهي من حديث أنس بن مالك كما رأينا .

ينبتنا هذا النص الصحيح بعدة امور على جانب عظيم من الاهمية:
اولاً — ان اختلاف المسلمين في قراءة القرآن كان الباعث الاساسي
على أمر عثمان باستنساخ صحف حفصة وجمعها في مصاحف^(١) .
ثانياً — ان اللجنة التي كلفت بهذا العمل العظيم كانت رباعية^(٢) ،

(١) فلا مستند — بعد هذا — لبلاشير وغيره من المستشرقين في التشكيك
بنوايا عثمان في جمع القرآن ، فمن أين لهم ان هذا الخليفة انما سعى الى تحقيق
هذا العمل العظيم بدافع من نزعه الارستقراطية ، فلم يجمع كتاب الله — بزعمهم —
إلا باسم الطبقة الارستقراطية المكية التي كان خير ممثل لها ؟ ! (انظر :
(Blachère, Introd. au Coran, p. 57)

لا مستند لهم في شيء من هذا إلا خيالهم الحُصيب ، وظنهم الكاذب . . .
وإلا فأين الرواية التاريخية الصحيحة التي تثبت دعواهم ؟ وهل يفضل عاقل
الاخذ بتخرصاتهم على ما أورده وجل كالبخاري ما عرف التاريخ من يضارعه
في الثقة والضبط والامانة ؟

(٣) ومن الغريب أن ابن أبي داود ، لشدة ولوعه بإيراد الروايات المختلفة
في الموضوع الواحد مهما تضاربت ، لا يكتفي بذكر هذه اللجنة الرباعية التي
سماها البخاري ، بل يتطوع بتسمية قوائم بلجان أخرى ، منها لجنة ثنائية مؤلفة
من زيد بن ثابت وسعيد بن العاص ، ومنها لجنة ثلثا عشرية (انظر كتاب
المصاحف لابن أبي داود ص ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥) . وكان هذا التضارب مادة صالحة
للتعليق والتعقيب لدى المستشرق شفالي (انظر :

(Schwally . Die Summlung des Qorans , II, 50 s qq)

أما المستشرق بلاشير فلا يكتف استغرابه الشديد من ذكر ابن أبي داود
اسم أبي بن كعب كعضو في احدى اللجان مع أن المفروض أنه كان قد توفي —

وإذا استثنينا زيد بن ثابت الذي كان مديناً من الانصار ، فالاعضاء الثلاثة الباقون كلهم مكيون من قريش^(١) ، وهؤلاء الاربعة جميعاً من ثقات الصحابة وأفاضلهم^(٢) .

— قبل سنتين على الاقل . وهذا وهم تاريخي من بلاشير ، لانه يظن أن هذه اللجنة الناسخة للمصاحف انما تألفت في حدود سنة ٣٠ هـ (انظر : Blachère, Intr. au Coran 53) في حين ان ابن حجر يقول : « وكان ذلك - أي استنساخ المصاحف - في سنة خمس وعشرين . قال : وغفل بعض من أدركناه فزعم أنه كان في حدود سنة ثلاثين ، ولم يذكر له مستنداً » الاتقان ١/١٠٢ .

(١) وهنا يذهب الخيال الحُصيب ببلاشير كل مذهب ، فيسرف في وصف الرهط القرشيين الثلاثة بالارستقراطية ، كما وصف بها عثمان من قبل - وما ندري اي ارستقراطية يعني في ذلك المجتمع الاسلامي الوليد الذي لا تزال تعاليم الدين فيه غضة ! - ويشير بعد ذلك الى صلات المصاهرة بين هؤلاء الرهط وبين عثمان ، فجمعت بينهم - بزعمه - المصالح المشتركة ، فما كان احد منهم يتصور ان يتم جمع القرآن واستنساخ المصحف في غير مكة مدينتهم العالية . والسكي يتم بلاشير نسج هذه القصة الخيالية يجعل ثلاثة الاثافي موافقة زيد للمكيين الثلاثة وتملقه لهم ، لعله ان زيدا كان مديناً ابعدهما يكون عن النزعة الارستقراطية (انظر Blachère, Intr. au Coran , 58) .

وهذا الكلام يكاد - لتهافته وتناقضه - يكذب آخره اوله ، فصحبنا هذا التكلف في إشراك زيد المدني في خطة المكيين الثلاثة دليلاً على فساد هذا الاستنتاج الذي لا يستند الى عقل ولا نقل .

(٢) وقد اعترف كثير من المستشرقين بورع اعضاء اللجنة واحتياطهم في نسخ المصاحف . ونذكر على سبيل المثال قول بلاشير : « لا يسع احداً الشك

ثالثاً — ان اللجنة الرباعية باتخاذها صحف حفصة أساساً لنسخ
المصاحف انما استندت الى أصل أبي بكر .

رابعاً — ان القرآن نزل بلغة قريش ، فهي اللغة المفضلة لكتابة
النص القرآني عند حدوث الخلاف بين القرشيين الثلاثة وزيد .
وسنرى أن هذا لا ينافي كتابة القرآن بطريقة تجمع الاحرف السبعة
التي نزل عليها القرآن ، لأن تلك الكتابة كانت غير معجمة ولا مشكولة ،
ولأن وجوه القراءات كانت توزع على المصاحف حين لا يَحتملها
الرسم الواحد .

خامساً — ان عثمان ارسل إلى الآفاق الاسلامية بمصحف مما نسخته
هو لاء الأربعة ، ورأى — حسماً للنزاع — ان يحرق ما عدا ذلك من
الصحف والمصاحف الخاصة .

ويبدو أن حذيفة بن اليان لم يكن وحده فزعاً من اختلاف
المسلمين في القراءة ، فقد كثر الخلاف وساور القلق انفس الصحابة
الكرام ، وبلغ ذلك عثمان ففزع بدوره ورأى أن يتدارك الأمر قبل
استفحاله . وقد أشار إلى ذلك ابن جرير الطبري في « تفسيره » في الخبر
الذي أخرجه من طريق ايوب عن ابي قلابة انه قال : « لما كان في

— في عمق شعور اعضاء اللجنة بمسؤوليتهم . ولئن فاتهم منهج البحث الذي لم يكن
متيسراً لاحد في عصرهم ، فلم يفهم الاحتياط والورع (Blachère ,

خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ،
فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك الى المعلمين ، حتى
كفر بعضهم بقراءة بعض ، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال : « أنتم عندي
تختلفون فيه وتلحنون ، فمن نأى عني من أهل الامصار اشد فيه اختلافاً
واشدّ لحناً ، اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس اماماً »^(١)

وساعد على هذا الاختلاف ان مصاحف اخرى مشهورة قد عرفت
الى جانب صحف حفصة في الزمن الممتد من وفاة النبي ﷺ حتى جمع
عثمان الناس على مصحف واحد. وأشهر تلك المصاحف اثنان منسوبان
الى اللذين قاما بجمعهما : وهما مصحف أبي ابن كعب ومصحف عبدالله
بن مسعود^(٢).

(١) تفسير الطبري ٢١/١ وتجد مثل هذا النص في الاتقان ١٠٢/١-١٠٣
نقلًا عن ابن اسّثة في كتاب المصاحف من طريق ابوب عن ابي قلابة ايضاً .
وفي الرواية بعد ذلك : « فاجتمعوا فكتبوا ، فكانوا اذا اختلفوا وتدارءوا
في اى آية قالوا : هذه اقراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاناً ، فيرسل
اليه وهو على راس ثلاث من المدينة ، فيقال له : كيف اقراك رسول الله صلى
الله عليه وسلم آية كذا وكذا ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيكتبونها ، وقد
تركوا لذلك مكاناً » ويقرب من هذا ما في كتاب المصاحف لابن ابي داود
ص ٢١ والمقتع لابي عمرو الداني ص ٨ .

(٢) وصاحبها هذين المصنفين من اجل الصحابة واعلمهم بكتاب الله . اما
ابي فبلغ من فضله وثقة الناس بعلمه ان كان الناس يكتبون عنه وهو يملي عليهم -

ولعل بعض المصاحف الاخرى التي لم تعرف ولم تشتهر كانت كذلك موجودة ، كما يذكر ابن النديم في « الفهرست » وابن ابي داود في « المصاحف » وابن اشته في « المصاحف » ، وان كنا لانميل إلى المبالغة في عددها ، لأننا لانملك مستنداً صحيحاً يؤكد وجودها في زمن ما ^(١) .

وجدير بالذكر أن هذه المصاحف لم تصل إلينا ، وانما وردتنا

— حين جمع القرآن في المصحف على عهد ابي بكر رضي الله عنه (انظر كتاب المصاحف لابن ابي داود ص ٩) . واما عبد الله بن مسعود فهو احد الاربعة الذين امر الرسول صلى الله عليه وسلم بأخذ القرآن عنهم في حديثه المشهور : « خذوا القرآن عن اربعة : عبد الله (يعني ابن مسعود) وسالم مولى ابي حذيفة ومعاذ بن جبل ، وابي بن كعب » .

ويلي هذين المصحفين في الشهرة مصحف ابي موسى الاشعري ثم مصحف المقداد بن عمرو (انظر طبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١١٤ - ١١٦) .
(١) من ذلك ما ينسبه ابن ابي داود في (كتاب المصاحف ص ٥٠ وما بعدها) الى عمر بن الخطاب من القيام بجمع مصحف خاص به . ويجلو للمستشرق شفالي ان يذكر ذلك في دراسته القرآنية : انظر :

(Schwally , Die Summlung des Qorans, II , 27)

ولكن المستشرق بلاشير كان ابعد نظراً واوسع افقاً حين ادرك ان روايات ابن ابي داود في هذا الصدد لا تؤكد نسبة مصحف خاص الى عمر ، وانما تشير الى بعض اوجه القراءات الخاصة التي آثر عمر أن يقرأ القرآن عليها
انظر Blachère , Introduction au Coran , 35 .
وراجع في الصفحة نفسها الحاشية ٣٧ (note 37) .

نصوص عن ترتيب السور فيها وبعض أوجه قراءاتها ، وماتبرح في كثير من جوانبها بحاجة الى الفحص والتدقيق .^(١) ولكن قرار عثمان باحراقها^(٢) كان حكيماً بلا ريب ، لأن بقاءها كان لا بد أن يزيد في أسباب الشقاق ، ولا سيما وقد بعد عهد الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد وقع عمل عثمان من قلوب الناس موقع القبول والاستحسان^(٣) إلا عبد الله بن مسعود الذي كان له - كما رأينا - مصحف خاص به ، فانه عارض في ذلك في بادئ الأمر ، وأبى أن يحرق مصحفه^(٤)

(١) وهنا لا يرى بلاشير بدأ من الاعتراف بضرورة الاستناد الى النصوص الصحيحة اذا أردنا أن نعرف شيئاً عن تلك المصاحف .

انظر : Blachère و Intr. Cor. و p. 37 .

(٢) نطق حديث البخاري - كما رأينا - باحراقها . ولكن ابن ابي داود يأبى إلا أن يذكر عدداً من الروايات المتضاربة في هذا الموضوع ، فيتردد بين احراق الصحف والمصاحف وتمزيقها وقذفها في الماء (انظر كتاب المصاحف ص ١٣ ، ١٦ ، ٢٠) .

ونحن بلا ريب انما نأخذ برواية البخاري الصحيحة ، فلا داعي للتردد ، فلقد احترقت تلك المصاحف ، وكفى الله المؤمنين شر بقائها .

(٣) كتاب المصاحف لابن ابي داود ص ١٢ .

(٤) ويضعون في فيه رضي الله عنه عبارات يعرض فيها يزيد بن ثابت الذي كان في صلب أبيه حين اعتنق ابن مسعود الاسلام (ابن ابي داود ص ١٧) او كان يلعب مع الصبية حين كان ابن مسعود يحفظ بضعاً وسبعين سورة اخذها -

ثم ألهمه الله أن يرجع إلى رأي عثمان الذي كان في الحقيقة رأي الأمة كلها^(١) ، وهي حينئذ تنشد وحدة الكلمة والقضاء على اسباب النزاع .

وقد شرعت اللجنة الرباعية في تنفيذ قرار عثمان سنة خمس وعشرين^(٢) ، وإنما امرهم عثمان أن ينسخوا من صحف حفصة مع أنهم كانوا جماعة لكتاب الله في صدورهم ، لتكون مصاحفه مستندة إلى أصل أبي بكر المستند بدوره إلى أصل النبي ﷺ المكتوب بين يديه بأمره وتوقيف منه ، فسدت بذلك كل ذريعة للتقول والتشكيك . قال أبو عبد الله

— كلها من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم (انظر طبقات ابن سعد ج ٢ القسم الثاني ص ١٠٥ وكتاب المصاحف لابن أبي داود ص ١٥) .

ولكننا نستبعد صدور هذه الأقوال عن ابن مسعود ، وإن صدرت فهي لا تدل إلا على الانفعال الذي اعتراه حين 'نحى عن لجنة جمع القرآن ونسخه . ومع ذلك فإن ابن أبي داود نفسه هو الذي ذكر عنه رجوعه إلى رأي عثمان (كتاب المصاحف ص ١٢) . فلماذا يتعلق بلاشير بالرواية الأولى ويتجاهل الأخيرة؟! (انظر Blachère , Intr. Cor. , 37) .

(١) كتاب المصاحف لابن أبي داود ص ١٢ .

(٢) الاتقان ١/١٠٢ وعلى هذا الأساس لا مسوغ لما يتوهمه بلاشير من أن اشتراك سعيد بن العاص في اللجنة كان « فخرياً » لا عملياً ، لأنه كان والياً على الكوفة في حدود سنة ٣٠ ، وهي السنة التي يظن بلاشير أن اللجنة بدأت فيها تنفيذ قرار عثمان . وقد اشرنا إلى خطأ هذا الظن ، واخذنا بتوجيه ابن حجر راجع ص ٨٨ الحاشية ٢ (وانظر 56 , Blachère , Intr. Cor.) .

المحاسبي^(١): «... تلك المصاحف التي كتب منها القرآن كانت عند الصديق لتكون إماماً ولم تفارق الصديق في حياته ، ولا عمراً أيامه . ثم كانت عند حفصة لاتمكن منها ، ولما احتيج إلى جمع الناس على قراءة واحدة وقع الاختيار عليها في أيام عثمان ، فأخذ ذلك الامام ونسخ في المصاحف...»^(٢)

ولما اعيدت صحف حفصة اليها ظلت عندها حتى توفيت . وقد حاول مروان بن الحكم (ت ٦٥) أن يأخذها منها ليحرقها فأبت ، حتى إذا توفيت أخذ مروان الصحف وأحرقها ، وقال مدافعاً عن وجهة نظره : « انما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الامام ، فخشيت ان طال بالناس زمان ان يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب»^(٣)

وقد اختلف في عدة المصاحف التي أرسل بها عثمان الى الآفاق ، فقال أبو عمرو الداني^(٤) في المقنع : « اكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعله على أربع نسخ ، وبعث الى كل ناحية واحداً :

(١) سبقت ترجمته ص ٨١ حاشية ١ .

(٢) البرهان ١/٢٣٩ .

(٣) كتاب المصاحف لابن ابي داود ص ٢٤ .

(٤) هو عثمان بن سعيد ، ابو عمرو الداني . احد كبار الائمة في القراءات .

اشهر كتبه (التيسير في القراءات السبع) ، و (المقنع في رسم القرآن) ؛ توفي

سنة ٤٤٤ هـ (انظر انباه الرواة ٢/٣٤١ - ٣٤٢) .

الكوفة والبصرة والشام ، وترك واحداً عنده . وقد قيل : إنه جعله سبع نسخ . وزاد : الى مكة والى اليمن والى البحرين . قال : والأول أصح ، وعليه الأئمة «^(١) . أما السيوطي فيرى « أن المشهور أنها خمسة »^(٢) . وإذا أضفنا اليها المصحف الامام الذي حبسه لنفسه بالمدينة أصبحت ستة . وكما رددنا الخمسة الى ستة باضافة المصحف الامام نستطيع أن نرد السبعة الى ستة اذا لم نجعل في عدادها ذلك المصحف المذكور . لذلك نميل الى الرأي القائل : إن اللجنة استنسخت سبعة مصاحف ، فأرسل عثمان بستة منها الى الآفاق ، واحتفظ لنفسه بواحد منها . ويزيدنا ميلاً إلى هذا الرأي ما علمناه من تمكن بعض الأفراد من الحصول على نسخ لأنفسهم أخذوها من مصحف عثمان ، كما فعل عبد الله بن الزبير وامهات المؤمنين عائشة وحفصة وام سامة رضي الله عن الجميع^(٣) . ويخيل لنا أنه ليس من المنطق أن يأذن الخليفة عثمان لبعض الأفراد - مهما بلغ نفوذهم - بالحصول على نسخ من مصاحفه الرسمية ، ثم يضمن على الأمصار الاسلامية بنسخ من هذه

(١) قارن البرهان ١/٢٤٠ بالمقنع ص ١٠

(٢) الاتقان ١/١٠٤

(٣) كتاب المصاحف لابن ابي داود ص ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ وانظر

Arthur Jeffery . Materials for the history of the Qur'an , 212 ,

231 , 235 , 262 والكتاب المذكور هو مدخل الناشر الى كتاب المصاحف .

المصاحف توحد كلمتهم وتقضي على أسباب النزاع بينهم ، ولا سيما بعد أن اتضح لنا أن اختلاف المسلمين في قراءة القرآن كان الباعث الاساسي على تفكير عثمان بنسخ كتاب الله في المصاحف .

واياً ما تكن عدة تلك المصاحف على وجه اليقين ، فانها جميعاً تماثلت في اشتغالها على القرآن كله : مائة واربع عشرة سورة خالية من النقط والشكل ، ومن اسماء السور والفواصل ، اقتداء بأبي بكر ، فان صحفه كانت مجردة من كل ذلك . وفوق هذا ، جردت المصاحف العثمانية مما لم ليس بقرآن من الشروح والتفاسير ، فمن الصحابة من كان يكتب في مصحفه ماسمع تفسيره وايضاحه من النبي ﷺ . مثال ذلك قوله تعالى : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) فقد قرأ ابن مسعود واثبت في مصحفه « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج » ولا ريب أن تلك الزيادة الاخيرة للتفسير والايضاح ، لانها مخالفة لسواد المصاحف التي أجمعت عليها الامة . وقد أوضح ذلك ابن الجزري^(١) فقال : « وربما يدخلون التفسير في القراءات ايضاحاً وبياناً . لانهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ (قرآنآ . فهم آمنون من الالتباس ، وربما كان بعضهم يكتبه معه »^(٢) اي مع القرآن في المصحف الذي يكتبه لنفسه كمصحف عائشة .

(١) سبقت ترجمته صفحة ٨٢ حاشية ٣

(٢) الاتقان ١/١٣٤

ومهما يكن من شيء فقد جردت مصاحف عثمان من جميع هذه الزيادات التي لم تتواتر قرآنيها وإنما كانت من قبيل التفسير ، واهملت منها جميع الروايات الآحادية، ووضحت سورها وآياتها مرتبة على النحو الذي نجد في مصاحفنا اليوم . وخلو المصاحف العثمانية من النقط والشكل جعل رسم بعض الالفاظ القرآنية صالحاً لأن يقرأ بأكثر من وجه ، كقوله تعالى : « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » فقد قرئ كذلك « فثبتوا » وكقوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات » فقد قرئ أيضاً « فتلقى آدم من ربه كلمات » وإنما صلح الرسم للوجهين في الآيتين المذكورتين لورود دليل قاطع على صحة القراءة بهما ، لأن رسول الله قرأ بهما أو لأن احداً من الصحابة قرأ بهما بحضوره فأقره ولم يعترض عليه . وورود مثل هذا الدليل على تواتر قراءة ما هو الذي يعين صلاحية الرسم لوجه دون آخر . فإن وجد دليل آحادي لم يبلغ درجة التواتر على قراءة ما لم يؤخذ به ، واعتبر شاذاً^(١) لمخالفته أخبار الثقات ، ولو صلح الرسم للقراءة به ، كقوله تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » ، ففي القراءات الآحادية الشاذة « انما يخشى الله من عباده العلماء » . وغني عن البيان بعد هذا ان كل لفظ قرآني لم يتواتر في قراءته أكثر من وجه كان يكتب برسم واحد فقط ، وأن كل ما صح فيه تواتر أكثر من وجه وتعذر رسمه في الخط محتملاً لجميع الوجوه ،

كان لا بد أن يُلجئ الناس إلى كتابته في بعض المصاحف بوجه، وفي بعضها الآخر بوجه ثان، كقوله تعالى «ووصى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوب» فقد تواتر فيه وجه آخر صحيح «وأوصى» بالهمز لا بالتضعيف، ولذلك كتب في بعض المصاحف العثمانية بالتضعيف وفي بعضها الآخر بالهمز^(١). على أن هذا النوع الأخير قليل جداً، وقد ذكر محصوراً في آيات معدودة في أكثر الكتب المؤلفة حول «المصاحف».

ولكي يزيد عثمان من إقبال الناس على تلقي القرآن من صدور الرجال واعتمادهم على الحفظ وعدم اتكالهم على النسخ والكتابة، راح يرسل في الأكثر الأغلب مع المصحف الخاص بكل إقليم حافظاً يوافق قراءته، فكان زيد بن ثابت مقرئ المصحف المدني، وعبدالله بن السائب مقرئ المكي، والمغيرة بن شهاب مقرئ الشامى، وأبو عبد الرحمن السامى مقرئ الكوفي، وعامر بن عبد القيس مقرئ البصري^(٢) أما أحراق عثمان للمصاحف الفردية فلم يقدم عليه إلا بعد مشورة وتأيد من الصحابة الكرام، فهذا سويد بن غفلة يقول: «قال علي: لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا»

(١) يقول السيوطي في (الاتقان ٢/٢٨٩) في هذا الصدد: «وأما القراءات المختلفة المشهورة بزيادة لا يَحتملها الرسم ونحوها، نحو أوصى ووصى، وتجري تحتها ومن تحتها، ويقولون الله والله، وما عملت أيديهم وما عملته، فكتابته على نحو قراءته. وكل ذلك وُجد في مصاحف الامام».

(٢) مناهل العرفان للزرقاني ١/٣٩٦ - ٣٩٧

عن ملائنا»^(١) . وقال عليّ ايضاً : « لو وليت ما ولي عثمان لعملت بالمصاحف ماعمل »^(٢)

وان الباحث ليتساءل : أين أصبحت المصاحف العثمانية الآن ؟ ولن يظفر بجواب شافٍ على هذا السؤال ، فوجود الزر كشة والنقوش الفاصلة بين السور أو المدينة لأعشار القرآن يفي أن تكون المصاحف الاثرية في دار الكتب بالقاهرة عثمانية ، لأن المصاحف العثمانية كانت مجردة عن كل هذا . على أن بعض المستشرقين جمعوا عدداً لا يستهان به من الروايات التاريخية التي تؤكّد رؤية بعض العلماء القدامى للمصاحف أو لسور منها في أمصار اسلامية معينة . وفي طليعة هؤلاء المستشرقين

(١) الاتقان ١/١٠٣

(٢) البرهان ١/٢٤٠ وشبهه بهذا ما في كتاب المصاحف لابن ابي داود ص ١٢ . ولكن بلاشير يرى ان علي بن ابي طالب لم يقف هذا الموقف المؤيد من احراق عثمان للمصاحف الفردية ، بل كان تأييده له في اعدامه لما جمع من القرآن في عهد الرسول ﷺ مفرقاً في الرقاع والاكثاف والاقتاب والعُسب ، اذ كفى الامّة شرّ الاختلاف بازالة تلك الآثار المتفرقة التي يُخشى أن تزيد مع الايام اسباب الشقاق (Blachère, Intr. 63) وغاية بلاشير من ذلك واضحة ، وهي التشكيك بموقف عليّ كرم الله وجهه من صنيع عثمان ، وهو بذلك يحمل النصوص ما لا يسعها ان تحمّل ، لانها تضافرت حتى عند شيعة علي وانصاره المتحمسين على تلقي عمل عثمان بالرضا والقبول . (انظر مقال Mirza Alexandre Kazem, Journal asiatique, Décembre 1843. وقارن بكتاب الدكتور محمد عبد الله دراز بالفرنسية عن القرآن M. A. Draz, Initiation au Koran, p. 24.

الاستاذ كواتريمير Quatremère كما اشار الى ذلك كل من برجستراسر
وبرتزل في دراستهما لتاريخ النص القرآني^(١). ثم ان المستشرق كازانوفنا
اعتمد على دراسة سلفه كواتريمير فأعاد النظر فيها واستدرك عليها الكثير،
ومنه علمنا أن أحد المصاحف العثمانية كان لا يزال موجوداً في مستهل
القرن الرابع الهجري^(٢)، وان الرحالة المشهور ابن بطوطة رأى
بنفسه بعض تلك المصاحف التي يظن أنها عثمانية، أو بعض صحائف
منها فقط، في غرناطة ومراكش والبصرة وبعض المدن الاخرى
خلال رحلاته الكثيرة^(٣). غير أن كازانوفنا - بعد ايراده تلك المعلومات
الدقيقة المفيدة - لا يلبث أن يصرح بارتياحه بقيمتها التاريخية، واذاهو
يأتي بأغرب رأي وأجرئه في عالم الدراسات القرآنية، فهو يرى أن
جمع عثمان للمصحف إن هو إلا قصة وهمية أحكم نسجها في عهد الخليفة
عبد الملك بن مروان توطئة للمبالغة في شأن التحسينات التي أدخلت
على رسم المصاحف في عهد الخليفة المذكور^(٤). وأعجب من هذا كله
أن كازانوفنا لا يتورع عن القاء حكم صياني لا يوافق عليه عاقل. بين

(١) انظر Bergesträsser et Pretzel. Geschichte des Qoran--
texts, 7 sqq.

(٢) انظر Casanova, Mohammed et la fin du monde, p.125

(٣) Casanova, op. cit., 130 - 139

(٤) Casanova, op. cit. 141

الناس ، حتى ولا اخوانه المستشرقون^(١) ، فيجعل الحجاج بن يوسف
الثقفي أول جامع للقرآن^(٢) . وقد صرح بلاشير بعقم هذا الرأي وفساده
فقال : « لا يمكننا قط أن نتابع كزانوفا في هذا الزعم الجريء الذي
تنقضه النصوص الثابتة »^(٣)

هذا ، ومن المعروف أن ابن كثير^(٤) - وهو من علماء القرن
الثامن الهجري - قدر أي مصحف الشام . فهو يقول في كتابه « فضائل
القرآن » : « أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام
بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد
كان قديماً بمدينة طبريا ، ثم نقل منها الى دمشق في حدود سنة ٥١٨ هـ ،
وقد رأيت كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي ، بحبر
محكم ، في رق اظنه من جلود الابل »^(٥) . ويبدو كذلك أن ابن الجزري^(٦)

(١) انظر على سبيل المثال (Blachère, Intr. Cor., p 92)

(٢) Casanova, op. cit. p. 127

(٣) وانظر بقية استدلاله على خطأ هذا الرأي في (Blachère, Intr. Cor p. 68) .

(٤) ابن كثير هو اسماعيل بن عمر بن كثير ، عماد الدين ابو الفداء . حافظ
مؤرخ فقيه . له تفسير القرآن ، والبداية والنهاية في التاريخ ، و كثير من المؤلفات
القيمية . توفي سنة ٧٧٤ هـ (الاعلام ١٠٩/١) وسيرد ذكره في مبحث (التفسير)

(٥) فضائل القرآن ص ٤٩ ط . المنار سنة ١٣٤٨ .

(٦) سبقت ترجمته ص ٨٢ حاشية ٣

صاحب (النشر في القراءات العشر) وابن فضل الله العمري^(١) صاحب (مسالك الابصار في ممالك الامصار) قد رأيا كلاهما هذا المصحف الشامي نفسه. ويميل بعض الباحثين الى أن هذا المصحف أمسى زمنياً ما في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب في لينينجراد، ثم نقل الى انجلترا. ولسنا ندري أين أصبح بعد ذلك^(٢). ولكن الذي نعلمه علم اليقين ويعلمه كل باحث منصف أن كتاباً غير القرآن لم يحط بالعناية التي احيط بها، ولم يصل بالتواتر كما وصل، فجاء - كما يقول شفالي - «اكمل وأدق مما يتوقعه اي انسان»^(٣). ولاغرو، فهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(١) هو شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري . مؤرخ حجة . اجل آثاره « مسالك الابصار في ممالك الامصار » توفي سنة ٧٤٩ (الاعلام ١٨٥/١)

(٢) من اراد مزيد الاطلاع على المصاحف المخطوطة والمكتبات التي تشتمل على شيء منها فعليه بالمجلد العاشر من كتاب شوفان

Chauvin, Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes. Liège, t. x, p. 45 - 56.

(٣) انظر Die Summlung des Qorans, II, 93

رسم القرآن

اتبعت اللجنة الرباعية في استنساخ مصاحف الأمصار على عهد عثمان (رضي عنه الله) طريقة خاصة ارتضاها هذا الخليفة في كتابة كلمات القرآن وحروفه . وقد اصطلح العلماء على تسمية هذه الطريقة « برسم المصحف » و كثيراً ما ينسبون هذا الرسم الى الخليفة الذي ارتضاه فيقولون : رسم عثمان او الرسم العثماني . وكان لابد ان يحاط هذا الرسم بهالة من الاجلال والتقديس ، فالخليفة الذي ارتضاه ووضعه موضع التنفيذ شهيد عظيم لقي مصرعه وهو يتلو كتاب الله خاشعاً متبتلاً^(١) . وهذا يفسر لنا الى حد كبير اعتقاد الناس أن كل مصحف مخطوط قديم يعثرون عليه لابد أن يكون مصحف عثمان أو احد

(١) Casanova, Mohammed et la Fin du monde, p. 139.

قارن مايقوله كازانوفابراي بلاشير - (Blachère, Coran, Intro - duction, 67) الذي يلاحظ في الحاشية رقم ٨٣ أن جميع مؤرخي العرب عرضوا لمصرع عثمان بهذا الشكل المثير للعواطف ، حتى المؤرخ المسيحي ابن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول) نشر صالحاني بيروت ، سنة ١٨٩٠ ، ص ١٧٩ ، س ١٣ .

مصاحفه ، وربما كان في رأي بعضهم هو المصحف الذي لا يزال عليه
اثر من دم الخليفة الشهيد^(١) .

ولقد بلغ الغلو ببعضهم أشده حين زعموا أن هذا الرسم القرآني
توقيفي وضع منهاجه النبي الكريم نفسه، صلوات الله عليه ، فقد نسبوا
إليه — وهو الأمي الذي لا يكتب — انه قال للمعاوية ، أحد كتّبة
الوحي : « ألقى الدواة ، وحرف القلم ، وانصب الباء ، وفرق
السين ، ولا تعور الميم ، وحسن الله ، ومدد الرحمن ، وجود
الرحيم ، وضع قلمك على أذنك اليسرى ، فانه اذكر لك »^(٢) ومن المتحمسين
لهذا الرأي ابن المبارك الذي نقل في كتابه (الابريز) عن شيخه عبد
العزیز الدباغ انه قال له : « ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن
ولا شعرة واحدة ، وانما هو توقيف من النبي ، وهو الذي أمرهم ان
يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها ، لأسرار لا تهتدى
إليها العقول ، وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون
سائر الكتب السماوية . وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه ايضاً معجز !
وكيف تهتدي العقول الى سر زيادة الالف في « مائة » دون « فته » ،
والى سر زيادة الباء في « بأيدي » و « بأيكم » ، أم كيف تتوصل

(١) Casanova, op. cit. , 123 (١)

(٢) الزرقاني ، مناهل ، ج ١ ص ٣٧٠

الى سرّ زيادة الألف في « سَعَوْا » بالحج ، ونقصانها من « سَعَوْ » بسبأ؟ والى سرّ زيادتها في « عَتَوْا » حيث كان ونقصانها من « عَتَوْ » في الفرقان؟ والى سرّ زيادتها في « آمنوا » ، واسقاطها من « باؤ ، جاؤ ، تبوّؤ ، فائؤ » بالبقرة؟ والى سرّ زيادتها في « يَعْفُوَ الَّذِي » ، ونقصانها من « يعفو عنهم » في النساء؟ أم كيف تبلغ العقول الى وجه حذف بعض احرف من كلمات متشابهة دون بعض ، كحذف الألف من « قُرْءَناً » ييوسف والزخرف ، واثباتها في سائر المواضع؟ واثبات الالف بعد واو « سموات » في فُصِّلَتْ وحذفها من غيرها ، واثبات الالف في « الميعاد » مطلقاً ، وحذفها من الموضع الذي في الانفال ، واثبات الالف في « سراجاً » حيثما وقع ، وحذفه من موضع الفرقان؟ وكيف تتوصل الى فتح بعض التاءات وربطها في بعض؟ فكل ذلك لأسرار الهية ، واغراض نبوية . وانما خفيت على الناس لانها اسرار باطنية لا تُدْرِكُ الا بالفتح الرباني ، فهي بمنزلة الالفاظ والحروف المتقطعة التي في أوائل السور ، فان لها اسراراً عظيمة ، ومعاني كثيرة ، واكثر الناس لا يهتدون الى اسرارها ، ولا يدركون شيئاً من المعاني الالهية التي اشير اليها ! فكذلك أمر الرسم الذي في القرآن حرفاً بحرف^(١) .

وعلى هذا الأساس ، لم يجد الزرقاني في « مناهله » باساً في ان يعدّ

(١) نقلًا عن الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١٠ ص ٣٧٦

من مزايا الرسم العثماني « دلالة على معنى خفي دقيق كزيادة - الياء - في كتابة كلمة « أيد » من قوله تعالى « والسماء بيناها بأيد » اذ كتبت هكذا « بأيد » وذلك للإيماء الى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء ، وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة ، وهي : زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى «^(١) .

ولا ريب أن هذا غلو في تقديس الرسم العثماني ، وتكلف في الفهم ما بعده تكلف^(٢) ، فليس من المنطق في شيء أن يكون أمر الرسم توقيفياً ، ولا أن يكون له من الأسرار ما لفواتح السور ، فما صح في هذا التوقيف حديث عن رسول الله ﷺ ، ولا مجال لمقارنة هذا بالحروف المقطعة التي تواترت قرآنيها في أوائل السور ، وإنما اصطلح الكتابة على

(١) الزرقاني ، المصدر نفسه ، ص ١٤٧ وفي هذا السياق نفسه يسترسل الزرقاني في تعليل الحذف في الآيات التالية (ويدعُ الانسان) (ويمحُ الله الباطل) (يوم يدعُ الداعِ) (سندعُ الزبانية) فينقل عن العلماء أنهم قالوا : السر في حذفها من « ويدعُ الانسان » هو الدلالة على ان هذا الدعاء سهل على الانسان يسارع فيه كما يسارع الى الخير . والسر في حذفها من (يوم يدعُ الداعِ) الاشارة الى سرعة الدعاء وسرعة اجابة الداعين .. الخ . وهو تكلف ظاهر ، والتعليل الطبيعي لهذا كله ان الكتابة لاحظوا النطق فقط ، فالواو تسقط في جميع الآيات في النطق .

(٢) ومن هذا الغلو والتكلف ما ينقله الزركشي في (البرهان ١/٣٨٠ وما بعدها) عن ابي العباس المراكشي الشهير بابن البناء في كتابه (عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل)

هذا اصطلاحاً في زمن عثمان ، وواقفهم الخليفة على هذا الاصطلاح ، بل وضع لهم دستوراً يرجعون اليه في الرسم عند الاختلاف في قوله للثلاثة القرشيين : « اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فانما نزل بلسانهم »^(١) .

واحترام الرسم العثماني واستحسان التزامه أمر يختلف اختلافاً جوهرياً عن القول بالتوقيف فيه ، فقد تضافرت آراء العلماء على ضرورة التزام هذا الرسم حتى قال الامام احمد بن حنبل : « تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو او ألف او ياء او غير ذلك »^(٢) ، وسئل الامام مالك : رأيت من استكتب مصحفاً أترى ان يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم ؟ فقال : « لا ارى ذلك ، ولكن يكتب على الكتبة الأولى »^(٣) وروى في فقه الشافعية والحنفية أقوال من هذا القبيل ، ولكن احداً من هؤلاء الائمة لم يقل إن هذا الرسم توقيفي ، ولا سر أزلي ؛ وانما رأوا في التزامه ضرباً من اتحاد

(١) وعلى هذا الاساس ، « لما كتب الصحابة المصحف زمن عثمان رضي الله عنه اختلفوا في كتابة « التابوت » ، فقال زيد : « التابوت » وقال النفر القرشيون « التابوت » ، وترافعوا الى عثمان فقال : اكتبوا « التابوت » فانما انزل القرآن على لسان قريش » البرهان ١/٣٧٦

(٢) السيوطي ، الاتقان ، ٢٠ ص ٢٨٣

(٣) الداني ، المقنع ص ١٠ والسيوطي في (الاتقان ٢/٢٨٣) ينقل هذا القول المنسوب الى مالك (رض) من كتاب (المقنع) . وانظر ايضاً البرهان ١/٣٧٩

الكلمة واعتصام الأمة بشعار واحد ، واصطلاح واحد ، فواضع الدستور عثمان ، ومنفذه بخطه زيد بن ثابت ، « وكان امين رسول الله ﷺ وكاتب وحيه » .

على أن من العلماء من لم يكتف باباحة مخالفة الرسم العثماني ، بل صرح فوق ذلك بأنه اصطلاحى ، ولا يعقل أن يكون توقيفياً . وفي طليعة هؤلاء القاضي أبو بكر الباقلاني^(١) في كتابه « الانتصار » فهو يقول : « وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً ، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف . وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه ، أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية . بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته . ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج

(١) هو محمد بن الطيب الباقلاني صاحب كتاب اعجاز القرآن ، توفي سنة ٤٠٣ (انظر ترجمته في وفيات الاعيان - ١ ص ٤٨١ وفي شذرات الذهب - ٢ ص ٥٧) .

اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يخفى عليهم الحال . ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الاول ، وأن يُجعل اللامُ على صورة الكاف ، وأن تُعَوِّج الألفات ، وأن يُكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ؛ وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثه ، وجاز أن يكتب بين ذلك .

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة ، وكان الناس قد أجازوا ذلك وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى ، من غير تأثيم ولا تناكر ، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم في القراءة والاذان . والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الاشارات والعقود والرموز ، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت .

وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص ووجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه . وأنى له ذلك ! «^(١)» .

(١) لقد اورد هذا النص ملخصاً الزرقاني في « مناہله » - ص ٣٧٣ -

٣٧٤ ، ولكنه أتبعه بالرد عليه ، وبنقول من آراء العلماء في

تفنيده « ٣٧٤ - ٣٧٨ » .

وإن رأي القاضي أبي بكر هذا لجدير بالاحترام ، وحجته ظاهرة ، ونظره بعيد ، فهو لم يخلط بين عاطفة الاجلال للسلف وبين التماس البرهان على قضية دينية تتعلق برسم كتاب الله . أما الذين ذهبوا إلى أن الرسم القرآني توقيفي أزلي فقد احتكموا في ذلك إلى عواطفهم ، واستسلموا استسلاماً شعرياً صوفياً إلى مذاويقهم ومواجيدهم ، والأذواق نسبية ، لا دخل لها في الدين ، ولا يستنبط منها حقيقة شرعية .

وانا لنذهب في رسم القرآن مذهباً أبعد من هذا ، فلا نرى مجرد جواز مخالفته للحجج التي اوردها الباقلاني ، بل نأخذ برأي العز بن عبد السلام^(١) الذي يقول : « لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الائمة ، لثلا يؤدي الى دروس العلم . وشيء احكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين . ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة »^(٢) .

وملخص هذا الرأي الاخير أن العامة لا يستطيعون أن يقرءوا القرآن في رسمه القديم ، فيحسن بل يجب أن يكتب لهم بالاصطلاحات الشائعة في عصرهم ، ولكن هذا لا يعني إلغاء الرسم العثماني القديم ،

(١) سبقت ترجمته ص ١٩ حاشية ٣

(٢) البرهان ١ / ٣٧٩ .

لأن في الغائه تشويهاً لرمز ديني عظيم اجتمعت عليه الكلمة، واعتصمت به الامة من الشقاق، وفي الامة دائماً علماء يلاحظون هذه الفروق الضئيلة في طريقة الرسم العثماني؛ ومن الممكن - مع ذلك - كما اقترحت مجلة الازهر أن ينبه في ذيل كل صفحة من صفحات المصحف على ما عسى ان يكون فيها من الالفاظ المخالفة للاصطلاح الحديث في الخط والاملاء^(١).



(١) وقد حاول السيوطي ان يجرى امر الرسم القرآني في ست قواعد : هي الحذف والزيادة والهمز والبدل والفصل والوصل وما فيه قرأتان فيكتب على احدهما (انظر الاتقان ٢٨٣/٢ - ٢٨٩) وقد نقلها الزرقاني برمتها في (مناهل العرفان ٣٦٢/١ - ٣٦٦) والاطلاع على هذه القواعد ضروري

ادخال بعض التحسينات على المصاحف العثمانية

نُسخت المصاحف العثمانية خالية من الشكل والنقط ، فاحتملت
- بكتابتها على هذا النحو - عدداً من الوجوه والقراءات التي كان
الناس في الامصار يميزون بينها بالسليقة ، فلا يحتاجون لقراءتها قراءة
سليمة الى الشكل بالحركات ولا الاعجام بالنقط . وقد ظلّ الناس
- كما يقول أبو أحمد العسكري (ت ٣٨٢) - يقرءون القرآن في
مصحف عثمان بضعاً وأربعين سنة ، حتى خلافة عبد الملك ؛ وحينئذ
كثرت التصحيفات وانتشرت في العراق ^(١) .

وأكبر الظن أنه لا يراد « بالتصحيفات » في هذه العبارة إلا ما
كان يقع فيه الناس من اللبس والاشكال في قراءة بعض كلمات القرآن
وحروفه بعد أن اختلطوا بغير العرب وبدأت العجمة تمس سلامة
لغتهم . وفي خلافة عبد الملك سنة ٦٥ للهجرة خاف بعض رجال الحكم
أن يتطرق التحريف الى النص القرآني إذا ظلت المصاحف غير

(١) وفيات الاعيان ١٥ ص ١٢٥ (ط . سنة ١٣١٠ القاهرة) وفيما يتعلق
بأبي احمد العسكري هذا انظر (بغية الوعاة للسيوطي) ص ٢٢١ . وقد خلط
بروكلمان بين أبي احمد العسكري وأبي هلال العسكري في تاريخ آداب العرب
١٥ ص ١٢٧ ، ثم اتبته الى ذلك وصححه في الملحق .

مشكولة ولا منقوطة ، ففكروا باحداث أشكال معينة تساعد على القراءة الصحيحة ، وفي هذا المجال يذكر كل من عبيد الله بن زياد (ت ٦٧) والحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥) . فأما ابن زياد فينسب اليه أنه أمر رجلاً فارسي الاصل باضافة الألف الى النفي كلمة حذفت منها ، فكان هذا الكاتب ينسخ (قالت) بدلاً من (قلت) و(كانت) بدلاً من (كنت) ^(١) ؛ وأما الحجاج فيقال إنه أصلح الرسم القرآني في أحد عشر موضعاً ، فكانت - بعد اصلاحه - أوضح قراءة وأيسر على الفهم ^(٢) . والى مثل هذه التحسينات الإملائية كان يشير عثمان بقوله ان صح : « اجد فيه ملاحن ستصلحها العرب ^(٣) » ، فالملاحن والتصحيفات - في هذا المقام - كلها من هذا القبيل ، انما تتعلق بطريقة الرسم التي لا بد أن ينالها التغيير على اختلاف البيئات والعصور ، أما النص القرآني نفسه فلا يتغير فيه شيء لانه مجموع في صدور العلماء ، يأخذه بعضهم عن بعض بالتلقي والمشافهة وطرق التواتر اليقيني . والواقع أن تحسين الرسم القرآني لم يتم دفعة واحدة ، بل ظل

(١) ابن ابي داود ، كتاب المصاحف ، ١١٧ وانظر ايضاً Geschichte des Qorantexts , 255

(٢) ابن ابي داود ، كتاب المصاحف ، ١١٧ وفي هذه الصفحة تذكر المواضع

الاحد عشر .

(٣) ابن ابي داود ، كتاب المصاحف ، ص ٣٢

يتدرج في التحسن جيلاً فجيلاً حتى بلغ ذروة الجمال في نهاية القرن الثالث الهجري. ولا يعقل أن يكون أبو الأسود الدؤلي هو وحده واضع أصول نقط القرآن وشكله. وقد اختلف العلماء قديماً في أول من نقط القرآن، وترددت في هذا الموضوع أسماء رجال ثلاثة^(١) : أبو الأسود الدؤلي^(٢) - وهو الأشهر - ويحيى بن يعمر^(٣) ، ونصر بن عاصم الليثي^(٤) .

(١) ويرى السيوطي في (الاتقان ٢/٢٩٠) أنهم أربعة ، بإضافة اسم الحسن البصري إليهم ، مع ان الحسن لم يعرف له نشاط إيجابي في نقط المصحف ، غير انه كان لا يرى كراهة النقط ولا يتشدد فيه كعلماء الصدر الاول ، فقد « اخرج ابن ابي داود عن الحسن وابن سيرين انها قالا : لا بأس بنقط المصاحف » الاتقان ٢/٢٩٠ . فلعل تساهل الحسن في النقط وعدم كراهته له ان يكونا عمدة الباحث في ذكر الحسن بين أوائل الذين نقطوا المصاحف .

(٢) سبقت الإشارة الى مصادر ترجمته ص ١٦ حاشية ٢ (وانظر

. (Encyclopédie de l'Islam I, 80)

(٣) ولد يحيى بن يعمر في البصرة في حدود سنة ٤٥ ، وقضى شطراً من حياته في العراق ثم هاجر الى خراسان . كان هواه مع علي وشيعته (انظر وفيات الاعيان ، ٢/٢٢٧ ، ط . سنة ١٣١٠) ولعل الحجاج نفاه الى خراسان بهذا السبب . يقال : انه روى في حديثه عن ابن عباس وابن عمر ، وروى عنه قتادة (ت سنة ١١٨) . وقد اصبح ابن يعمر قاضي مرو ، وفي تلك المدينة توفي سنة ١٢٩ (انظر وفيات الاعيان ٢/٢٢٦ ، ط . سنة ١٣١٠ ؛ غاية النهاية في طبقات القراء ص ٣٨١ ؛ بغية الوعاة ص ٤١٧) .

(٤) نصر بن عاصم الليثي هو أحد قراء البصرة ، أخذ عن ابي الأسود الدؤلي ويحيى بن يعمر ، وأخذ عنه ابو عمرو بن العلاء . توفي سنة ٨٩ هـ (انظر بغية الوعاة ٢٠٣ ؛ طبقات القراء ٣٣٦)

أما أبو الأسود فقد اشتهر أنه أول من وضع العربية^(١) بأمر علي بن أبي طالب^(٢)؛ ويبدو أن نقطه للقرآن لم يكن إلا امتداداً لما يُظن من سبقه إلى وضع العربية^(٣). ويتناقلون قصة في هذا الموضوع توميء إلى شدة غيرته على لغة القرآن، فقد «سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: «واعلموا أن الله بريء من المشركين ورسوله»^(٤)، فقرأها بجر اللام من كلمة «رسوله»: فأفزع هذا اللحن أبا الأسود وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله. ثم ذهب إلى زياد والي البصرة وقال له: قد أجبتهك إلى ما سألت. وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله^(٥)، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث. وهنا جدّ جدّه، وانهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسر نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة السكون نقطتين^(٦) ويرى بعض العلماء أن أبا الأسود إنما نقط القرآن بأمر عبد الملك بن مروان^(٧).

(١) البرهان ١/٣٧٨

(٢) انظر ص ١٦

(٣) ولذلك ينقل الزركشي في (البرهان ١/٢٥٠) عن المبرد قوله: «أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي».

(٤) سورة التوبة ٣

(٥) في البرهان ١/٢٥٠-٢٥١ «وذكر أبو الفرج: أن زياد بن أبي سفيان أمر أبا الأسود أن ينقط المصاحف».

(٦) الزرقاني، مناهل العرفان ١/٤٠١

(٧) الاتقان ٢/٢٩٠

وقد لا نستطيع - عن طريق هذه الروايات المختلفة - أن نحدد البواعث التي حملت أبا الأسود على نقط القرآن ، فلا نعرف هل اندفع الى ذلك من تلقاء نفسه أم استجاب لأمر لم يفكر فيه من قبل ، ولا نعرف كنه الدور الذي قام به ، ولكننا لانرتاب قط في أن له دوراً لا ينكر ، وأنه قد اضطلع أول الجمع بعبء لا يستهان به ، فهذا هو الحد الأدنى مما نطق به تلك الاخبار والروايات . أما أنه انفرد وحده بوضع أصول نقط القرآن وشكله فليس منطقياً ولا معقولاً ، فما ينهض بمثل هذا فرد بل أفراد ، ولا يبلغ تمامه جيل بل أجيال ، وبحسب أبي الأسود أنه كان حلقة أولى في سلسلة نقط القرآن وتجويد رسمه ^(١) .

وفي هذه السلسلة حلقة أخرى يأبى ابن ابي داود إلا أن يجعلها كذلك حلقة أولى ، حين يطلق حكمه بأن « أول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر » ^(٢) . ولا بد أن يكون ليحيى دور في نقط القرآن ، ولكننا لانملك دليلاً محسوساً على أنه كان حقاً أول من نقطه . وتبلغ قصة أوليته هذه ذروتها من الاحكام والحجك حين يزعم ابن خلكان أنه كان لابن سيرين ^(٣) مصحف منقوط ، نقطه يحيى بن يعمر ^(٤) . ومن المعلوم ان ابن سيرين توفي سنة ١١٠ هـ ، واذن فقد وجد قبل هذا

(١) انظر (Geschichte des Qorantexts, 261 (cf. Blach., Intr., p. 80, note 103)

(٢) كتاب المصاحف لابن ابي داود ص ١٤١

(٣) سبقت ترجمته ص ٥٥ حاشية ٢

(٤) وفيات الاعيان ط . سنة ١٣١٠ ج ٢ ص ٢٢٧ (وانظر البرهان ١/٢٥٠)

التاريخ مصحف كامل النقط ، تام الشكل بتلك النقط المعوضة للحركات وهو أمر خطير جداً ليس من السهل التسليم به .^(١) .
وأما نصر بن عاصم الليثي فلا يستبعد أن يكون عمله في نقط القرآن مواصلة لعمل أستاذه أبي الأسود وابن يعمر ، فانه أخذ عنهما كما أسلفنا^(٢) ، بيد أن أبا احمد العسكري - في إحدى رواياته الغربية - يؤكّد أن نصر بن عاصم اضطلع بنقط القرآن حين خاطب الحجاج كتابه وسألهم أن يضعوا علامات على الحروف المتشابهة^(٣) ، وتكاد هذه الرواية تنطق بأن نصرأ كان أول من نقط المصاحف^(٤) ، ولكنها تظل - مع ذلك - أضعف من أن تفصل في هذا الخلاف برأي يقيني قاطع .
ولئن تعذر اطلاق الحكم بأن أبا الأسود أو ابن يعمر أو نصرأ كان أول من نقط المصاحف ، فلا يتعذر القول بأن لكل منهم دوراً في تحسين الرسم ، وأنهم أسهموا جميعاً في تيسير قراءة القرآن على الناس . ولا ريب بعد هذا أن للحجاج - مهما اختلفت آراء الناس فيه ، ومهما كانت نواياه الشخصية - دوراً عظيماً لاسيلاً الى انكاره في الاشراف على نقط القرآن ، والحرص عليه .

(١) قارن بما يقوله المستشرق بلاشير (Blachère, Intr. Cor., 82)

(٢) اشرنا الى ذلك ص ١١٥ حاشية ٤

(٣) هذه الرواية من كتاب (التصنيف) لابي احمد العسكري ، وقد

نقلها ابن خلكان ج ١ ص ١٢٥ ط . سنة ١٣١٠

(٤) ويظهر أن هذا هو رأي الجاحظ ، ففي البرهان ٢٥١/١ : « وذكر

الجاحظ في كتاب « الامصار » ان نصر بن عاصم اول من نقط المصاحف » .

وكلما امتد الزمان بالناس ازدادت عنايتهم بتيسير الرسم القرآني ،
وقد اتخذ هذا التيسير أشكالاً مختلفة ، فكان الخليل ^(١) أول من وضع
الهمز والتشديد والروم والاشمام ^(٢) . ولا يكاد أبو حاتم السجستاني ^(٣)
يؤلف كتابه عن نطق القرآن وشكله حتى يكون رسم المصاحف قد
قارب الكمال . حتى اذا كانت نهاية القرن الهجري الثالث بلغ الرسم
ذروته من الجودة والحسن ، وأصبح الناس يتنافسون في اختيار
الخطوط الجميلة ، وابتكار العلامات المميزة ، « حتى جعلوا للحرف
المشدّد علامة كالقوس ، ولألف الوصل جرّة فوقها أو تحتها أو وسطها ،
على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة » ^(٤) .

واتجاه الناس نحو تحسين الرسم القرآني كانت تعترضه عقبات :
فما برح العلماء حتى أواخر القرن الثالث يختلفون في نطق القرآن . وقد
بدأت فكرة كراهة النقط مبكرة جداً منذ قال الصحابي الجليل عبد الله
ابن مسعود : « جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء » ^(٥) وإذا الامام مالك

(١) هو الخليل بن احمد الفراهيدي الازدي ، ويكنى ابا عبد الرحمن .

إمام العربية في زمانه ، ومستنبط العروض . توفي سنة ١٧٥ هـ

(٢) كتاب النقط لابي عمرو الداني ص ١٣٣ (وانظر الاتقان ٢ / ٢٩٠)

وقارن بـ Geschichte des Qorantexts, 262 (cf. Blach., Intr. Cor,97)

(٣) هو سهل بن محمد ، المعروف بأبي حاتم السجستاني ، من كبار اللغويين

في عصره . توفي سنة ٢٤٨ . وقد ذكر ابن ابي داود في (كتاب المصاحف)

مقطعات من اقوال ابي حاتم في رسم القرآن ، ص ١٤٤

(٤) الزرقاني ، مناهل العرفان ، ٤٠١/١

(٥) اخرجه ابو عبيد (انظر الاتقان ٢ / ٢٩٠)

رضي الله عنه^(١) يؤثر التفصيل في هذه المسألة، فيبيح النقط « في المصاحف التي تتعلم فيها العلماء ، أما الامهات فلا »^(٢) . وتظل الاوساط المحافظة - مع ذلك - تكره نقط المصاحف . فكان يظهر بين الحين والحين قوم معتدلون يفرقون بين النقط والتعشير ، وينبهون الناس على أن النقط لا ينافي تجريد القرآن . قال الحلبي^(٣) : « تكره كتابة الاعشار والاحماس وأسماء السور وعدد الآيات فيه ، لقوله : « جردوا القرآن » وأما النقط فيجوز لانه ليس له صورة فيتوهم لاجلها ما ليس بقرآن قرآناً ، وإنما هي دلالات على هيئة المقروء ، فلا يضر إثباتها لمن يحتاج اليها »^(٤)

على أن هذه التفرقة الواضحة بين النقط والتعشير لم تكن لتمنع الاوساط المحافظة حتى في مستهل القرن الخامس الهجري من الاصرار على قراءة القرآن في المصاحف المجردة من الشكل ، فلم يكن إحداث

(١) هو امام أهل المدينة ، وامير المؤمنين في الحديث ، مالك بن انس بن مالك بن ابي عامر الاصبحي ، ويكنى ابا عبد الله . استغرق تأليفه « الموطأ » اربعين سنة عرضه خلالها على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة . توفي سنة ١٧٩ هـ .

(٢) ابو عمرو الداني ، النقط ، ص ١٣٤ ؛ الاتقان ٢/٢٩١

(٣) هو ابو عبد الله حسين بن الحسن الحلبي الجرجاني . اجل كتبه

(المنهاج) . توفي سنة ٤٠٣

(٤) الاتقان ٢/٢٩١

تلك العلامات في نظر هؤلاء المتشددين إلا بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار . ومن الغريب أن بعضهم كانوا - كما يلاحظ الداني^(١) - يتساهلون في استعمال بعض النقط عوضاً عن الحركات ، ولكنهم يابون إباء شديداً أن يشكوا القرآن بالحركات نفسها وإن كان أكثر الناس في عصرهم لا يجدون بأساً في ذلك^(٢) .

والداني نفسه كان يعترف بوجود التمييز بين النص القرآني المجرد والحركات التي تزداد عليه للتوضيح ، « فلا يستجيز النقط بالسواد لما فيه من التغيير لصورة الرسم ، ولا يستجيز جمع قراءات شتى في مصحف واحد بألوان مختلفة لأنه من أعظم التخليط والتغيير للرسوم ؛ ويرى أن تكون الحركات والتنوين والتشديد والسكون والمد بالحمرة والهمزات بالصفرة »^(٣) .

ثم يأتي على الناس زمان يستحبون فيه نقط المصحف بعد أن كرهوه ، وشكاه بالحركات بعد أن عارضوه ، وكما خافوا أن يصيبه التغيير بالنقط والشكل أصبحوا يخافون أن يلحن الجهال فيه إن لم ينقط ويشكل ، فالحرص على نص القرآن كان السبب الأساسي في كراهة النقط تارة واستحبابه أخرى . قال النووي^(٤) : « نقط المصحف

(١) سبقت ترجمته ص ٩٥ حاشية ٤

(٢) الداني ، النقط ، ص ١٣٤ - ١٣٥

(٣) الاتقان ٢/٢٩١ (وانظر الداني ، النقط ، ص ١٣٣)

(٤) هو الامام الحافظ محيي الدين ابو زكريا يحيى بن شرف النووي ، =

وشكله مستحب ، لأنه صيانة له من اللحن والتحريف «^(١) .

ومن المحدثات التي كرهها العلماء أول الأمر ثم انتهوا الى إباحتها أو استحبابها أخيراً بدعة كتابة العناوين في رأس كل سورة ، ووضع رموز فاصلة عند رؤوس الآي ، وتقسيم القرآن الى أجزاء ، والاجزاء الى أحزاب ، والاحزاب الى أرباع ، والاشارة الى ذلك كله برسوم خاصة .

والرموز المشيرة الى رؤوس الآي سارع الناس إلى تلقيها بالقبول قبل سواها ، لاحتياجهم إلى معرفة تقسيم الآيات ، ولا سيما بعد أن انعقد الاجماع على أن ترتيب الآيات توقيفي^(٢) . وقد تباينت طرائق

= من كبار المحدثين . له في علوم الحديث تصانيف كثيرة مشهورة ، ومن أشهر كتبه (شرح صحيح مسلم) توفي سنة ٦٧٦ هـ .

(١) الاتقان ٢ / ٢٩١ . والزرقاني في (مناهل العرفان ١ / ٤٠٢) ينقل عبارة النووي هذه بأطول مما ذكرنا ، ونحن نثبتها هنا تماماً للفائدة : « قال النووي في كتابه التبيان مانصه : « قال العلماء : ويستحب نقط المصحف وشكله ، فانه صيانة من اللحن فيه وتصفية . واما كراهة الشعبي والنخعي النقط فانما كرهاه في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه . وقد أُمن ذلك لكونه محدثاً ، فانه من المحدثات الحسنة ، فلا يمنع منه كمنظاره مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك ، والله أعلم » .

(٢) انظر ص ٧٤ والحاشية ٣ ومع ذلك فقد اختلف العلماء في عد الآي ، وقد بين الزركشي (البرهان ١ / ٢٥١ - ٢٥٢) ان سبب هذا الاختلاف « أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف ؛ فاذا علم محلها وصل للتمام ، فيحسب السامع انها ليست فاصلة » .

رمزهم إليها ، فقد يذكرون عند رأس كل آية رقم عددها من السورة ، وقد يُغفلون ذلك . وأحياناً يضعون كلمة عشر أو رأس « العين » حرفها الأول عند نهاية كل عشر آيات من السورة^(١) ، أو كلمة خمس أو رأس « الحاء » حرفها الأول عند نهاية كل خمس آيات ، ولا يجدون في شيء من ذلك بأساً .

أما العناوين التي كانوا يكتبونها في فواتح السور منوهين فيها بأسمائها وما فيها من الآيات المكية والمدنية ، فكانت لا بد أن تثير معارضة عنيفة في الأوساط المحافظة ، لأن كثيراً من العلماء به عامة الناس ، كانوا يعتقدون أن هذه الأمور ليست توقيفية ، بل للصحابة فيها نصيب غير قليل من الاجتهاد . وإذا كنا لم نسلم بأن ترتيب السور اجتهادي ، بل رجحنا أنه كترتيب الآيات توقيفي^(٢) ، فاننا لانملك دليلاً قوياً على أن أسماء السور توقيفية أيضاً^(٣) ، وليس في وسعنا أن ندعي الاجماع على مكية بعض السور ومدنية البعض الآخر بحيث

(١) وفي البرهان ١/٢٥١ : « وأما وضع الاشارة فليل : إن المأمون العباسي امر بذلك ؛ وقيل : إن الحجاج فعل ذلك » .

(٢) راجع ص ٧٦ الى ٧٩

(٣) قال الزركشي في البرهان ١/٢٧٠ : « وينبغي البحث عن تعداد الأسماء : هل هو توقيفي او بما يظهر من المناسبات ؟ فان كان الثاني فلن يعدم القطن ان يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق اسمائها وهو بعيد » . وانظر الاتقان ١/٩٥

لا يكون في السورة الواحدة إلا قول واحد متفق عليه^(١) : فهذا الاختلاف هو الذي أثار تلك المعارضة العنيفة لكتابة العناوين في فواتح السور . لكن حدة المعارضة ما لبثت أن خفت^(٢) فلم يقنع الناس بكتابة تلك العناوين بل طفقوا يفتنون في تنميقها وتذهيبها حتى اوشك الجهال أن يعتقدوا أنها جزء لا يتجزأ من الوحي القرآني . ولما أباح الناس لأنفسهم كتابة الرموز الفاصلة بين الآيات ، ثم تجرءوا حتى على كتابة العناوين في رؤوس السور ، لم يعد ممكناً منعهم من الذهاب في تجويد المصاحف كل مذهب ، وقد بدا لهم أن من تجويدها تجزئتها وتحزيبها ، وراحوا يلتمسون على ذلك أدلة من الروايات المأثورة . قال الزر كشي : « وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الاجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس وغيرها . وقد أخرج أحمد في مسنده وأبو داود وابن ماجه عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة . وحزب المفصل من « ق » حتى يختم^(٣) .

(١) وانظر في (الاتقان ١/١١٦) الاختلاف حول مكة بعض السور ومدنية بعضها . وسنعرض لهذا في مبحث (المكي والمدني) .
(٢) تجد في كتاب المصاحف لابن ابي داود ص ١٥٨ وما بعدها وصفاً لموقف المعارضين والمتساهلين في كتابة هذه العناوين والرموز .
(٣) البرهان ١/٢٥٠ وهكذا شاعت قسمة القرآن الى ثلاثين جزءاً ، =

وقد أسهم الخطاطون في تجويد المصاحف وتحسين كتابتها ،
ويقال : ان الخليفة الوليد (من سنة ٨٦ الى سنة ٩٦ هـ) اختار لكتابة
المصاحف خالد بن أبي الهيثاج الذي كان مشهوراً بجمال خطه ، وهو
الذي خطّ المحراب في المسجد النبوي بالمدينة^(٢) . وقد ظلّ الخطاطون
يكتبون المصاحف بالخط الكوفي حتى أواخر القرن الرابع
الهجري^(٣) ، ثم حل محله خط النسخ الجميل في أوائل القرن الخامس ،
وفيه جميع النقط والحركات التي ما تزال نستخدمها في الكتابة إلى
يومنا هذا^(٤) .

ويشاء الله أن ينتشر كتابه في الآفاق بواسطة الطباعة ، وهذه
أيضاً مرت — ككتابة القرآن خطأ — بأطوار التجويد والتحسين .
وقد ظهر القرآن مطبوعاً للمرة الاولى في البندقية في حدود سنة ١٥٣٠ ،

= وطبعت أحياناً هذه الاجزاء مستقلة تيسيراً على صغار التلاميذ في المدارس .
ثم شاعت قسمة كل جزء الى حزبين ، وقسمة الحزب الى أربعة أرباع .
(٢) انظر الفهرست لابن النديم ، ص ٦ ط . فلوجل سنة ١٨٧١ .
(٣) فيما يتعلق بأشكال الخطوط التي كتبت بها المصاحف انظر ما كتبه
موريتز في دائرة المعارف الاسلامية

Moritz, Encyclopédie de l'Islam, article Arabie , 394.

وفما يتعلق بتفضيل الخط الكوفي انظر :

Geschichte des Qorantexts, 251 sqq (cf. Blach., Intr. Cor. ,
84 note 112)

(٤) انظر Blachère, Intr. Cor., 133

ولكن السلطات الكنسية أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره . ثم قام هنكلمان Hinkelmann بطبع القرآن في مدينة هانبورغ Hanbourg سنة ١٦٩٤ ، ثم تلاه مراكي Marracci بطبعه في بادو Padoue سنة ١٦٩٨ ، ولم يكن لأي واحدة من هذه الطبعات الثلاث أثر يذكر في العالم الاسلامي ^(١) . ثم ظهرت أول طباعة اسلامية خالصة للقرآن في سانت بترسبورغ بروسيا (Saint-Petersbourg) سنة ١٧٨٧ ، وهي التي قام بها مولاي عثمان ، وظهر مثلها في قازان ^(٢) . واذا بإيران تقدم طبعتين حجريتين إحداهما في طهران سنة ١٢٤٨ هـ — ١٨٢٨ م ، والاخرى في تبريز سنة ١٢٤٨ هـ — ١٨٣٣ م . ويقوم فلوجل Flügel سنة ١٨٣٤ بطبعته الخاصة للقرآن في ليزيغ Leipzig ، فيتلقاها الاوريون بحماسة منقطعة النظير ، بسبب املائها الحديث السهل ، ولكنها لا تصيب نجاحاً في العالم الاسلامي . وتظهر في الهند طبعات للقرآن أيضاً ، ثم تعنى الاستانة ابتداء من سنة ١٨٧٧ بهذا الأمر العظيم .

(١) Blachère, Id., 133

(٢) اعتمدنا في دراسة هذه الاطوار في طبع القرآن على ما كتبه المستشرق

بلاشير (Blachère, Intr. Cor. , 133)

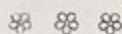
وقد اعتمد بلاشير بدوره — فيما يتعلق بالطبعات التي ظهرت قبل سنة ١٨١٠ هـ

على ما كتبه كل من شُرتر وبفتمار . انظر :

Schnurrer (Ch. F.), Bibliotheca arabica, nos 367 - 386

Pfannmüller, Die Wissenschaft der Koranlesung. Dans Islamica, VI, 207.

ثم كان حدث سعيد على جانب عظيم من الأهمية حين ظهرت في القاهرة طبعة أنيقة جميلة دقيقة لكتاب الله سنة ١٣٤٢ هـ - سنة ١٩٢٣ م تحت إشراف مشيخة الأزهر ، وباقرار اللجنة المعنية من قبل الملك فؤاد الأول . وقد كُتب هذا المصحف و ضبط على ما يوافق رواية حفص لقراءة عاصم . وقد تلقى العالم الاسلامي هذا المصحف بالقبول وأصبحت ملايين النسخ التي تطبع منه سنوياً هي وحدها المتداولة ، أو تكاد تكون وحدها متداولة ، لاجماع العلماء في مشارق الارض ومغاربها على الدقة الكاملة في رسمه و كتابه .



الاحرف السبعة

نجد في الاحاديث الصحيحة المروية من طرق مختلفة ما يفيد أن الرسول ﷺ صرح بنزول القرآن على سبعة أحرف . ومن أوضح هذه الاحاديث ما رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري ، ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكادت أساوره في الصلاة ، فانتظرت حتى سلم ، ثم لبيتته بردائه أو بردائي ، فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ، فانطلقت أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، اني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئها ، وأنت أقرأني سورة الفرقان . فقال رسول الله ﷺ : ارسله يا عمر ، إقرأ يا هشام ، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرأها . قال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت ثم قال رسول الله ﷺ : « ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف ، فاقروا ما تيسر منه » (١) .

(١) ويقرب من هذا ما في تفسير الطبري ١٠/١ ومسنده أحمد ٢٤/١ (وفي طبعة شاكر ج ١ ص ٢٢٤ رقم الحديث ١٥٨) والبرهان ٢١١/١ . والرواية التي اثبتناها نقلها الزرقاني (مناهل ١٣٣/١) من صحيح البخاري .

ويبدو أن حديث نزول القرآن على سبعة أحرف مروى عن جمع كبير من الصحابة يتعذر إحصاؤه ، ففي مسند الحافظ أبي يعلى ^(١) أن عثمان رضي الله عنه قال يوماً وهو على المنبر : « أذكر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ ، لما قام فقاموا حتى لم يُحصوا ، فشهدوا بذلك ، فقال عثمان رضي الله عنه : « وأنا أشهد معهم » ^(٢) .

وتوافق هذه الجموع التي لم تُحصَ عدداً ^(٣) على هذا الموضوع ، حمل بعض الائمة على القول بتواتر الحديث ، وفي طليعة هؤلاء أبو عبيد القاسم بن سلام ^(٤) . وإذالم يتوفر التواتر في الطبقات المتأخرة ، فحسبنا

(١) هو القاضي محمد بن الحسين بن محمد الفراء المشهور بأبي يعلى . وقد انتهت إليه رياسة الحنابلة في عصره ، وتوفي سنة ٤٥٨ (أنظر النجوم الزاهرة ٧٨/٥) .
(٢) الاتقان ٧٨/١ .

(٣) وفي وسعنا أن نكوّن فكرة عن هذا العدد الذي يتعذر احصاؤه إذا استقصينا هذه الاسماء التي يصرح بها السيوطي في قوله : « ورد في حديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » من رواية جمع من الصحابة : أبي بن كعب ، وأنس ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرّة بن جندب ، وسلمان بن صرد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن أبي سلمة ، وعمر بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبي بكر ، وأبي جهنم ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي طلحة الانصاري ، وأبي هريرة ، وأبي ايوب ، فهؤلاء احد وعشرون صحابياً » الاتقان ٧٨/١ .

(٤) سبقت ترجمته ص ١٨ حاشية ٣ والسيوطي ينقل عنه أنه نص على تواتر حديث الاحرف السبعة (أنظر الاتقان ٧٨/١) .

صحة الاحاديث التي ذكرناها مؤكداً لهذه الحقيقة الدينية التي نطق بها رسول الله ﷺ .

ويميل جمهور العلماء إلى أن المصاحف العثمانية اشتملت على ما يحتمله رسمها من الاحرف السبعة^(١) ، واختار القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني^(٢) هذا الرأي وقال : « الصحيح أن هذه الاحرف السبعة ظهرت واستفاضت عن رسول الله ﷺ وضبطها عنه الائمة ، وأثبتها عثمان والصحابة في المصحف ، وأخبروا بصحتها ، وإنما حذفوا منها ما لم يثبت متواتراً »^(٣) .

وعبارة « الاحرف » - وهي جمع حرف - الواردة في الحديث تقع على معان مختلفة ؛ فقد تكون بمعنى القراءة كقول ابن الجزري^(٤) : « كانت الشام تقرأ بحرف ابن عامر »^(٥) وقد تفيد المعنى والجهة^(٦) كما يقول أبو جعفر محمد بن سعدان النحوي^(٧) ، ولكن القول

(١) الاتقان ١/٨٥ .

(٢) سبقت ترجمته ص ١٠٩ حاشية ١ .

(٣) البرهان ١/٢٢٤ .

(٤) سبقت ترجمته ص ٧٢ حاشية ٣ .

(٥) ابن الجزري ، طبقات القراء ١/٢٩٢ .

(٦) البرهان ١/٢١٣ .

(٧) هو احد القراء ، بدأ يقرأ بقراءة حمزة ثم اختار لنفسه قراءة خاصة تنسب اليه . توفي سنة ٢٣١ هـ (أنظر إنباه الرواة ٣/١٤٠ ؛ طبقات القراء ٢/١٤٣ ؛ بغية الوعاة ٤٥) .

بأن المراد بها القراءات - كما حكى عن الخليل بن أحمد^(١) - هو أضعف
الاقوال بلاريب^(٢)، ولا سيما إذا توهم القائل أنها ما يسمى بالقراءات
السبع^(٣).

واختلاف العلماء في تحديد المراد من « الاحرف » المذكورة في
الحديث آثار عدداً من الأقوال المتضاربة في حقيقة الذي أنزل، فرأى
فيه بعضهم خمسة وثلاثين وجهاً^(٤) وبلغها آخرون أربعين^(٥)، وأكثرها
لا يؤيده نقل صحيح ولا منطق سليم، ومنشأ الخطأ فيها إرادة التعيين
على سبيل القطع والجزم مع أنه لم يأت في معناها - كما يقول ابن العربي^(٦) -
« نص ولا أثر، واختلف الناس في تعيينها »^(٧).

ولم يكن بد من أن يتساءل العلماء: هل العدد محصور في سبعة
أحرف أم المراد التوسعة على القاريء ولم يقصد به الحصر؟ فالذين

(١) سبقت ترجمته ص ١١٩ حاشية ١.

(٢) البرهان ١/٢١٤.

(٣) الاتقان ١/٧٨ ويعلق السيوطي على هذا الرأي الضعيف بقوله: « وتمعّب
بانه لا يوجد في القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه الا القليل، مثل « عَبَدَ
الطاغوت »، ولا تقلّ لها أفّ » (وانظر ايضاً البرهان ١/٢٢٣).

(٤) البرهان ١/٢١٢.

(٥) الاتقان ١/٧٨.

(٦) سبقت ترجمته ص ٢ حاشية ١.

(٧) البرهان ١/٢١٢.

يستبعدون الحصر هنا يغالون في هجران النصوص البالغة درجة التواتر - كما أسلفنا - مع أن تواردها على عدد « السبعة » لا يعقل أن يكون غير مقصود ، ولا سيما إذا لوحظ أن الحديث يتناول قضية ذات علاقة مباشرة بالوحي وكيفية نزوله ، وفي مثل هذه الامور لا يلقي الرسول ﷺ الخبر غامضاً ، ولا يذكر عدداً لا مفهوم له ، فما نقل عنه علماء الصحابة هذا في شيء له بالاعتقاد صلة .

لكن قوماً ممن لا يبالون بالنصوص ولا يتورعون عن هجرانها أو اخراجها عن ظاهرها تسرعوا فرأوا « أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة ؛ ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد كما يطلق السبعون في العشرات ، والسبعمئة في المئين ، ولا يُراد العدد المعين » .^(١) ومن الغريب أن ينسب مثل هذا الرأي الى القاضي عياض^(٢) وهو الذي لا يفضل على الرواية الصحيحة شيئاً ، ولكن السيوطي رد على هذا القول رداً قوياً مؤيداً بالنصوص^(٣) .

(١) الاتقان ٧٨/١ وانظر محاسن التأويل للقاسمي ٢٨٧/١ والمستشرقون

مجلو لهم الضرب على هذا الوتر كثيراً ، فعدد « السبعة » له فعل سحري في نفوس الساميين . أنظر . Buhl , Encyclopédie de l'Islam , II , 1135 b .
Noldeke , Geschichte des Qorans , p. 50

(٢) الاتقان ٧٨/١ والقاضي عياض هو عالم المغرب وامام اهل الحديث

في وقته ، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي ، صاحب كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » توفي سنة ٥٤٤ هـ (الاعلام ٧٤٩/٢)

(٣) (الاتقان ٧٨/١) .

واذن ، فلفظ السبعة لا يراد به الكثرة ، بل الحصر كما فهمه أكثر العلماء ، وهو الذي كان السبب فيما عانوه من محاولة البحث عن هذا العدد المعين ، « فالأكثر - كما يقول ابن حبان ^(١) - على أنه محصور في سبعة » ^(٢) . بيد أن كثيراً من تلك المحاولات لم يحالفها التوفيق ، كما رأينا في قول من جنح إلى أن الأحرف السبعة هي القراءات . ويكاد يقارب هذا القول في الضعف رأي الذين حصروا هذه الأحرف في بعض اللهجات أو اللغات ، مع ما بين المفهومين من تغاير دقيق . فأما اللهجات فليست عند بعض العلماء ^(٣) من الاختلاف الذي يتنوع في اللفظ والمعنى ، لأن الأظهار والادغام ، والروم والاشمام ، والتخفيف والتسهيل ، والنقل والابدال ، صفات متنوعة في أداء اللفظ الواحد ، وتنوعها لا يخرجها عن أن يكون لفظاً واحداً . ولكننا - مع ذلك - لانضعف هذا القول بهذا السبب ، فإن تنوع صفات الأداء في اللفظ الواحد يوشك أن يجعله أكثر من لفظ ، وإنما نضعفه بسبب الاختصار عليه ، إذ حفظت لنا أوجه أخرى من الاختلاف ليست من اللهجات في شيء ، كما سنرى بوضوح .

(١) هو الحافظ محمد بن حبان البُستي ، ويكنى أبا حاتم . من كبار المحدثين ،

توفي سنة ٣٥٤ (شذرات الذهب ١٦/٣) .

(٢) البرهان ٢١٢/١ .

(٣) وهو ابن الجزري كما في الاتقان ٨٠/١ .

وإذا كنا في الاختلاف في اللهجات لا نجد إلا تنوعاً في صفات الأداء في اللفظ الواحد ، ففي اختلاف اللغات نجد أحياناً تبايناً بين لفظ وآخر في موضوع واحد ، ولو أمكننا حصر اللغات العربية المختلفة هذا النوع من الاختلاف في سبع لا تزيد ولا تنقص ، وقُبِلَ منا هذا الحصر في غير تردد ، ومن غير شعور بتحكنا فيه تحكماً كيفياً لكانت هذه اللغات السبع هي الأحرف السبعة من غير ما حاجة إلى الجدل العقيم ، ولكن التحكم في الموضوع أوضح من أن يخفى على ذي بصر سواء أكانت لغات العرب هذه هي لغات قريش ، وهذيل وتميم ، وأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر^(١) ، أم كانت لغات قبائل مضر خاصة ، وهي هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبة ، وتيم الرباب ، وأسدي بن خزيمية ، وقريش^(٢) ، لأن في القرآن الكريم ألفاظاً

(١) وإلى هذا ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام وأحمد بن يحيى ثعلب (البرهان ٢١٧/١) وقال الأزهري في « التهذيب » : انه المختار ، واحتج بقول عثمان حين أمرهم بكتّيب المصاحف : « وما اختلفتم انتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فانه اكثر ما نزل بلسانهم » البرهان ٢١٨/١ وقد نهينا على أن الاختلاف هنا - كما يفهم من النص - يدور حول الكتابة والرسم لا أي شيء آخر (راجع ص ٩٠).

(٢) الاتقان ٨١/١ والزر كشي في (البرهان ٢١٩/١) يورد اعتراضاً على هذا التخصيص الكيفي على لسان أبي عمر بن عبد البر الذي يقول : « وأنكر آخرون كون كل لغات مضر في القرآن ؛ لان فيها شواذ لا يقرأ بها ، مثل كَشْكَشَة قيس ، وعَنَعْنَة تميم ... وهذه لغات يُرغَب بالقرآن عنها » .

من لغات قبائل اخرى غير التي ذكرت على كلا الرأيين ، تمثلت كلها في لغة قريش ، وبلغ أبو بكر الواسطي بتعدادها أربعين لغة في كتابه « الارشاد في القراءات العشر » ؛ فكلمة « اخسثوا » بمعنى اخزوا بلغة عذرة ، وكلمة « بئس » بمعنى شديد بلغة غسان ، وكلمة « لا تغلوا » بمعنى لا تزيدوا بلغة الحُم ، وكلمة « حَصِرَت » بمعنى ضاقت بلغة اليمامة ، وكلمة « هلو عاً » بمعنى ضجراً بلغة خثعم ، وكلمة « الو دُق » بمعنى المطر بلغة جرهم^(١) . وقد استبعد ابن عبد البر^(٢) أن يكون معنى سبعة أحرف سبع لغات ، « لأنه لو كان كذلك لم ينكر القوم بعضهم على بعض في أول الأمر ، لأن ذلك من لغته التي طبع عليها . وأيضاً فإن عمر بن الخطاب وهشام ابن حكيم كلاهما قرشي ، وقد اختلفت قراءتهما ، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته^(٣) » . وقد يدافع عن ذلك بارادة الكثرة من عدد السبعة ، ولكننا يئذا ضعف هذا الرأي في مقام كهذا لا بد أن يكون فيه للعدد مفهوم .

وهذه الآراء السابقة كلها — على ضعفها — لانستغرب ذكر العلماء

(١) الاتقان ٢٣٠/١ ومن اراد امثلة اخرى فلينظر الاتقان ٢٢٧/١ —

٢٣١ (النوع السابع والثلاثون فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز) .

(٢) هو يوسف بن عبدالله بن عبد الصمد بن عبد البر النمري القرطبي ، صاحب

كتاب الاستيعاب وغيره . توفي سنة ٤٦٣ (شذرات الذهب ٣١٤/٣) .

(٣) البرهان ٢١٩/١ وانظر فيما يتعلق بالاستدلال بقريشة عمر وهشام

(الاتقان ٨٢/١) .

لها بين تلك المجموعة من الأقوال الشارحة للأحرف السبعة ، ولكننا نستغرب كثيراً ونستنكر استنكاراً شديداً جنوح بعض العلماء الى مفهومات سقيمة ما أنزل الله بها من سلطان يظنون أنهم يفسرون بها الحديث تفسيراً باطنياً عميقاً ، ويرون في الاحرف السبعة ما لا يراه الناس . من ذلك أن المراد بهذه الاحرف سبعة علوم : علم الانشاء والايجاد ، وعلم التوحيد والتنزيه ، وعلم صفات الذات ، وعلم صفات الفعل ، وعلم صفات العفو والعذاب ، وعلم الحشر والحساب ، وعلم النبوات «^(١) . ومن ذلك أن المراد سبعة أشياء : « المطلق والمقيد ، والعام والخاص ، والنص المؤول ، والناسخ ، والمنسوخ ، والمجمل والمفسر ، والاستثناء وأقسامه »^(٢) .

وقد بلغت الجرأة ببعضهم الى حد الاستشهاد بحديث ضعيف على رأيهم الباطل في هذه الاحرف السبعة ، فرفعوا الى النبي ﷺ حديثاً رواه ابن مسعود قال : « كان الكتاب الأول نزل من باب واحد على وجه واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجر ، وآمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال .

(١) الاتقان ١/٨٣ والزركشي في (البرهان ١/٢٢٤-٢٢٥) يذكر هذه العلوم السبعة مع الشواهد القرآنية عليها ، لكننا اکتفينا بعبارة الاتقان طلباً للاختصار .

(٢) البرهان ١/٢٢٥ .

فأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، واعتبروا بأمثاله ، وآمنوا بمتشابهه
وقولوا : « آمانا به كلُّ من عند ربنا » ^(١) . قال ابن عبد البر : « وهو
حديث عند أهل العلم لا يثبت ، وهو مجمع على ضعفه » ^(٢) .

وكل هذا يهون أمام تلك المشكلة الخطيرة التي أثارها بعض كبار
المفسرين عن حسن نية ، ففتحوها بها الباب على مصراعيه لشبهات
المستشرقين وضعاف الايمان من المؤمنين ، وتمثل هذه المشكلة في
حصر هذا الفريق من العلماء المراد من الاحرف السبعة في « سبعة
أوجه من المعاني المتفقة ، بالألفاظ المختلفة ، نحو أقبلُ وهلمَّ ، وتعالَ
وعجلُ ، وأسرعُ وأنظرُ ، وأخرُ وأمهلُ ، ونحوه » ^(٣) . وظاهر
لفظ الطبري في تفسيره ربما أفاد هذا . فهو يستشهد بقوله عليه السلام
لابن الخطاب : « يا عمر إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً
أو عذاباً رحمة » ^(٤) فكان لا بد أن يتشبث بلاشير بهذا ليؤكد « أن
نظرية القراءة بالمعنى كانت بلا ريب أخطر نظرية في الحياة الاسلامية .
لأنها أسامت النص القرآني الى هوى كل شخص ، يثبته على ما يهواه » ^(٥) .

(١) البرهان ١/٢١٦ .

(٢) البرهان ١/٢١٦ .

(٣) البرهان ١/٢٢٠ .

(٤) الطبري ، تفسير ، ١٠/١ .

(٥) Blachère , Intro . Cor . 69 .

(وانظر ايضاً . Geschichte des Qorans , III , 105 .)

وفي هذا حمل للنصوص على غير وجهها الحقيقي ، فليست النظرية هنا بما يصح حقاً أن يسمى « القراءة بالمعنى »^(١) كما نفهمها مثلاً في رواية الحديث بالمعنى ، إذ « القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان ، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والاعجاز ، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتّبة الحروف أو كيفيتهامن تخفيف أو تثقيل أو غيرهما »^(٢) فإذا صح انه عليه السلام وسع على المسلمين في اول الامر ، وراعى التخفيف على العجوز والشيخ الكبير^(٣) ، وأذن لكل منهم ان يقرأ على حرفه ، أي على طريقته في اللغة ، لما يجده من المشقة في النطق بغير لغته ، فليس معنى هذا أنه كان يأذن لهم باثبات هذه القراءات وكتابتها على أنها حروف نزل عليها القرآن . وإذن ، فما كانت توسعته عليه السلام في هذا النوع من القراءة

(١) وقد انكر ابن الجزري في النشر القراءة بالمعنى فقال : « أما من يقول بأن بعض الصحابة ، كابن مسعود ، كان يجيز القراءة المعنى فقد كذب عليه . انما قال : نظرت القراء فوجدتهم متقاربين ، فقرأوا كما علمتم » أنظر محاسن التأويل للقاسمي ٢٩٠/١ .

(٢) البرهان ٣١٨/١ وانظر الاتقان ١٣٨/١ .

(٣) ويشهد لذلك — كما يقول الزركشي — « مارواه الترمذي عن أبي بن كعب انه لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال : « يا جبريل ، إني بُعِثْتُ الى أمة أميين ؛ منهم العجوز ، والشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية ، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط . فقال : يا محمد ، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف » وقال : حسن صحيح (أنظر البرهان ٢٢٧/١) .

إلا تخفيفاً على بعض الافراد في حالات خاصة ، واما ما اذن فيه من هذه الحالات باثباته وأقرت كتبه الوحي عليه فهو محفوظ بطريق التواتر في أحرف قليلة معدودة يرفض ما عداها ولو جاء من طريق صحيح آحادي، لأن التواتر شرط في اثبات القرآنية^(١). فتعميم هذه الحالات الفردية على جميع الاحرف السبعة ، والنظر الى هذه الأحرف على أنها ضرب من القراءة بالمعنى لا يمكن أن يقتصر عليه في فهم الحديث .

وإذ لم يصحّ الاقتصار على أحد تلك الآراء السابقة فقد بدا لنا أن استقصاء الممكن منها ، وهو الذي لا يعارض النقل والعقل ، ربما كان أصوب الآراء وأبعدها عن الافراط والتفريط : فالمراد من هذه الاحرف السبعة - والله أعلم - الواجهة السبعة التي وسع بها على الامة ، فبأي وجه قرأ القاري منها أصاب . فاللفظ القرآني الواحد مهما تعدد أداؤه وتنوعت قراءته ، لا يخرج التغير فيه عن الوجوه السبعة الآتية :
الأول : الاختلاف في وجوه الإعراب ، سواء أتغير المعنى أم لم يتغير ، فما تغير فيه المعنى مثل قوله تعالى « فتلقي آدم من ربه كلمات »^(٢)

(١) أنظر البرهان ١٢٥/٢ معرفة وجوب تواتره .

(٢) سورة البقرة ٣٧ (وانظر الاتقان ٧٩/١) ومنه قوله تعالى « ربنا باعد بين أسفارنا » قرئ « ربنا بأعد » سورة سبأ ١٩ ، احدهما بصيغة الطلب ، والاخرى بصيغة الخبر ، والثانية قراءة يعقوب ، فقد تغير المعنى بالإعراب والصورة واحدة (أنظر إتحاف فضلاء البشر لأحمد الدمياطي ص ٣٥٩) .

فقد قرىء « فتلقى آدم من ربه كلمات »؛ ومالم يتغير فيه المعنى مثل قوله: « ولا يضار كاتبٌ ولا شهيدٌ » فقد قرىء: « ولا يضارُّ »^(١)

الثاني: الاختلاف في الحروف اما بتغير المعنى دون الصورة، وهو ما يعبر عنه احياناً بالاختلاف في النقط، مثل « يعلمون وتعلمون »^(٢) واما بتغير الصورة دون المعنى، مثل « الصراط والسرط » و« المصيطنون والمسيطرون »^(٣) وقد رسم في المصاحف بالصاد المبدلة من السين التي هي الاصل، فوافقت قراءة الصاد رسم المصحف تحقيقاً، وقراءة السين رسم المصحف تقديراً.

الثالث: اختلاف الاسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث^(٤)، مثل: « والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون »^(٥) فقد

(١) سورة البقرة ٢٨٢ (وانظر الاتقان ١/٧٩) ومنه قوله تعالى « ويضيقُ صدري » قرىء « ويضيق » سورة الشعراء ١٣ . والثانية قراءة يعقوب (انظر إتخاف فضلاء البشر ص ٣٣١) .

(٢) وفي البرهان (١/٢٢٢) أن الامام مالكا حين سئل عن « يعلمون وتعلمون » قال: « لا ارى باختلافهم بأساً ، وقد كان الناس ولهم مصاحف » . ومن هذا قوله تعالى « وانظر الى العظام كيف نُنشِزُها » بالزاي، وقرىء « نُنشِزُها » بالراء ، سورة البقرة ٢٥٩ والاولى قراءة ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وخلف (انظر إتخاف فضلاء البشر ١٦٢) .

(٣) من قوله تعالى « أم هم المسيطرون » من سورة الطور ٣٧ .

(٤) الاتقان ١/٧٩ .

(٥) سورة المؤمنون ٨ .

قرىء « لاماتهم » بالافراد . ومن الواضح انها كانت في المصاحف العثمانية « لامتهم » لخلوها من الالف الساكنة .

الرابع : الاختلاف بابدال كلمة بكلمة ، كقوله تعالى (طلع منضود » ^(١) فقد قرىء « طلع » ويلاحظ قرب مخرجي العين والحاء . واما قراءة ابن مسعود « فاقطعوا أيمنهم » بدلاً من « ايديهما » ^(٢) فشاذة ، لانها وردت من طريق آحادي .

الخامس : الاختلاف بالتقديم والتأخير ، نحو « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » قرىء « فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ » ^(٣) . واما قراءة أبي بكر « وجاءت سكرة الحق بالموت » بدلاً من قوله تعالى « وجاءت سكرة الموت بالحق » ^(٤) فلم تبلغ درجة التواتر .

السادس : الاختلاف بالزيادة والنقصان ، فمن الزيادة قوله تعالى في سورة التوبة « وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار » قرىء « من تحتها الأنهار » وهما قراءتان متواترتان وقد وافق كل منهما رسم

(١) سورة الواقعة ٢٩ (وانظر البرهان ٢١٥/١) وكان الامام مالك يميز قراءة « فامضوا الى ذكر الله » بدلاً من « فاسعوا » سورة الجمعة ٩ (البرهان ٢٢٢/١) مع أن هذه القراءة لم تبلغ درجة التواتر ، فقد انفرد بها عمر وابن عباس وابن مسعود ، وقرأها الباقر (فاسعوا) البرهان ٢١٥/١ حاشية ٩ .

(٢) سورة المائدة ٣٨ (وانظر البرهان ٣٣٦/١)

(٣) سورة التوبة ١١١ (وانظر الاتقان ٨٠/١)

(٤) سورة ق ١٩ (وانظر البرهان ٣٣٥/١) ومثلها في الآحادية « اذا جاء

فتح الله والنصر » بدلاً من قوله تعالى « اذا جاء نصر الله والفتح » سورة النصر ١

مصحف الامام ^(١) ، فان زيادتها وافقت رسم المصحف المكي ، وحذفها وافق غيره ^(٢) . ومن النقصان قوله تعالى « قالوا اتخذ الله ولداً » من سورة البقرة بغير واو ، وقد وافقت رسم المصحف الشامي ^(٣) . وأما قوله تعالى « وما خلق الذكر والاثنى » ^(٤) بنقص لفظ (خلق) فتصير القراءة (والذكر والاثنى) ، وقراءة ابن عباس (وكان امامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً) بزيادة (صالحة) وابدال كلمة (امام) من كلمة (وراء) فقراءتان آحاديتان لا يثبت بمثلها قرآن ^(٥) .

السابع : اختلاف اللهجات في الفتح والامالة ، والترقيق والتفخيم ، والهمز والتسهيل ، وكسر حروف المضارعة ، وقلب بعض الحروف واشباع ميم الذكور ، واشمام بعض الحركات . من ذلك قوله تعالى « وهل اتاك حديث موسى » ^(٦) وقوله « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » ^(٧) قرىء بامالة (اتى) و (موسى) و (بلى) نحو الكسر . وقوله تعالى « خبيراً بصيراً » بترقيق الراءين و « الصلاة » و « الطلاق » بتفخيم اللامين .

(١) سورة التوبة ١٠٠ (وانظر البرهان ١/٣٣٦)

(٢) الاتقان ١/١٣٠

(٣) سورة البقرة ١١٦ (وانظر الاتقان ١/١٣٠)

(٤) سورة الليل ٣ (وانظر احكام القرآن لابن العربي ٢/٣٠٩)

(٥) سورة الكهف ٧٩ (الاتقان ١/١٣٢)

(٦) سورة طه ٩

(٧) سورة القيامة ٤

وقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ » ^(١) بترك الهمزة ونقل حركتها من أول الكلمة الثانية الى آخر الكلمة الاولى ، وهو ما يسمى تسهيل الهمزة .
وقوله تعالى : « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ ، وَتَسْوَدُ وُجُوهٌ ، الْمِإْعِدُ » بكسر حرف المضارعة في جميع هذه الافعال .
وقوله تعالى « حتى حين » فالهذليون يقرءون : « عتي حين » بقلب حاء حتى عيناً .

وقوله تعالى « عليهم دائرة السوء » « ومنهمو من يلمزك في الصدقات » باشباع ميم جمع الذكور في كلتا الآيتين .

وقوله تعالى « وغيض الماء » باشمام ضمة الغين مع الكسر .
والحق أن هذا الوجه الاخير أهم الاوجه السبعة ، لانه يبرز الحكمة الكبرى من انزال القرآن على سبعة أحرف ، ففيه تخفيف وتيسير على هذه الامة ، التي تعددت قبائلها فاختلفت بذلك لهجاتها ، وتباين ادواؤها لبعض الالفاظ ، فكان لا بد أن تراعى لهجاتها وطريقة نطقها ، أما لغاتها نفسها فلا موجب لمراعاتها ، لأن القرآن اصطنع ما شاء منها بعد ان صهره في لغة قريش التي تمثلت فيها لغات العرب قاطبة ، لا لغات قبائل معينة ينتصر لها البعض انتصاراً كيفياً لا يؤيده دليل عقلي ولا نقلي . يقول ابن الجزري : « واما سبب

(١) سورة المؤمنون ١ (وانظر البرهان ١/٣٢٠) ومثله « قُلْ اَوْحِيَ »

سورة الجن ١ « وَاِذَا سَخَّلُوْا اِلَى شَيْطَانِهِمْ » سورة البقرة ١٤ .

وروده على سبعة أحرف فلتخفيف على هذه الامة ، و ارادة اليسر بها ،
والتهوين عليها شرفاً لها ، و توسعة ورحمة وخصوصية لفضلها ، و اجابة
لقصد بنها افضل الخلق وحيب الحق « و يفسر ذلك بقوله : « و ذلك
أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يعثون الى قومهم الخاصين
والنبي صلى الله عليه وسلم بعث الى جميع الخلق احمرهم واسودهم ، عربهم
وعجمهم ، وكان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة
وأسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغة الى غيرها ، أو من
حرف الى آخر . بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو
بالتعليم والعلاج (١) » .

وأهمية هذا الوجه الاخير — اعني اختلاف اللهجات — جعلت
بعض العلماء يحصرون الاحرف السبعة في أنواع اللهجات ، بينما
أغفل آخرون ذكر هذا الوجه اغفلاً تاماً ، لانه — على حد قول
ابن قتيبة — « ليس من الاختلاف الذي يتنوع في اللفظ والمعنى ،
لان هذه الصفات المتنوعة في ادائه ، لا تخرجه عن أن يكون لفظاً
واحداً » (٢) . وفي كلا الرأيين مغالاة ، فالوجه الستة السابقة على جانب

(١) مناهل العرفان للزرقاني ١/١٣٩ ومن الغريب ان يدافع ابن الجزري عن
هذه الفكرة مع أنه لا يذكر اختلاف اللهجات بين الحروف السبعة .
(٢) مناهل العرفان للزرقاني ١/١٥٢ وقد رأينا عبارة كهذه منسوبة الى ابن
الجزري في مكان آخر راجع ص ١٣٣ .

من الأهمية لا يسمح باسقاطها والاكتفاء بالوجه السابع . كما ان
اختلاف اللهجات في أداء بعض الاصوات أمر واقع بين الصحابة ،
بل لعله كان أشد أنواع الاختلاف دوراناً على الألسنة ، فلا يجوز
إغفاله والاكتفاء بأوجه أخرى لا تستقرى بها مختلف ضروب الاداء .
وهذا النقص في استقراء الاقدمين للأوجه السبعة قد حملنا على أن
نسلك في طريقة استقراءنا لها سبيلاً مخالفة لهم جميعاً ، فلم نختار مذهب
أبي الفضل الرازي^(١) الذي فضله الزرقاني في « مناهله » على مذهب ابن
قتيبة وأبي الخير بن الجزري والقاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني^(٢) ،
كما لم نختار مذهب واحد من هؤلاء ، أما الرازي فلأنه لم يعرض قط
في كتابه (اللوائح) إلى وجه الاختلاف في الحروف ، نحو (يعلمون
وتعملون) ، مع أنه لا يندرج تحت واحد من الاوجه الستة الباقية
التي ذكرها ، ثم انه جعل اختلاف تصريف الافعال من ماض ومضارع

(١) هو الامام الكبير ابن ساذان الرازي المتوفى في حدود سنة ٢٩٠ هـ

(النشر / ١٧٩) .

(٢) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن ، لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، ج ١
ص ١٤٨ - ١٦٠ حيث يعرض المؤلف لآراء هؤلاء العلماء الكبار الثلاثة ، ثم
يقارنهما برأي ابي الفضل الرازي ويرجحه ويختاره . وابن الجزري في (النشر في
القراءات العشر ٢٦/١ - ٢٨) يفصل رأيه ثم رأي ابي الفضل الرازي وابن قتيبة .
وعنه أخذ الزرقاني من غير عزو إليه . وابن قتيبة هو عبد الله بن مسلم ،
ابو محمد ، من ائمة اللغة والادب . له (الشعر والشعراء) و (ادب الكاتب)
وغيرهما . توفي سنة ٢٧٦ . اما ابن الجزري والقاضي الباقلاني فقد مرت ترجمتهما قريباً .

وأمر وجهاً خاصاً قائماً برأسه ، مع أنه يندرج تحت وجه الاختلاف في الاعراب . وأما الثلاثة الآخرون فحسبنا لكيلا نسلم بمذاهبهم انهم جميعاً اغفلوا وجه الاختلاف في اللهجات عملياً ، وإن دافع عنه بعضهم نظرياً .

ونحن حين نقول : ان الالوجه السبعة التي استقرأناها ، تستقصي كل اختلاف في أداء القرآن ، لانعني وجوب التزام هذه الالوجه السبعة في الكلمة الواحدة ، فقد يوجد في كل كلمة على حدة وجهان أو أكثر ، وقد لا يوجد فيها إلا وجه واحد ، وإنما نقصد أن هذه الالحراف السبعة ترد الالختلافات الى أحد وجوهها المناسبة حين يتحقق وجود الالختلاف ^(١) .

وإذا كنا نحن قد استطعنا حصر الالوجه الالختلاف في سبعة ، فقد وقع لنا ذلك اتفاقاً ، بعد أن جمعنا آراء الأقدمين ووفقنا بينها ، وأما الصحابة الكرام الذين نزل القرآن بأحرفه السبعة ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، يقرؤهم بها ، وينبهم إليها ، فكان أكثرهم يومئذ أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، وما كان يتاح لهم أن يحددوا المراد من الالحراف السبعة ، وإنما كانوا يعرفون أن الالوجه الالختلاف لا تخرج عن سبعة في جميع مفردات القرآن ، وقد اجتمعت عملياً من مختلف قراءاتهم التي أقرهم عليها رسول الله ﷺ وانتهى العلم بها إلينا أحرف القرآن السبعة التي لم نعرفها نحن إلا بطريق الاستنباط والالستقراء .

القراءات والقراء

نبهنا في البحث السابق على أن الأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن لا يمكن أن يراد بها القراءات السبع المشهورة ، وعللنا ذلك في موضعه ، ودعانا الى هذا التنبيه ما نعلمه من توهم الكثيرين من القدامى والمحدثين أن هذه القراءات هي هاتيك الاحرف . قال أبو شامة ^(١) في كتابه (المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالقرآن العزيز) : « ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل ^(٢) . »

ويقع أكبر قسط من اللوم في هذا الايهام على عاتق الامام الكبير أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس المشهور « بابن مجاهد » ^(٣) الذي قام

(١) سبقت ترجمته ص ٢٢ حاشية ٢

(٢) الاتقان ١/١٣٨ (التنبيه الثالث من النوع الثاني والعشرين) وانظر

الزرقاني على موطأ مالك ١/١٣٤

(٣) كان شيخ القراء في بغداد في زمانه ، توفي سنة ٣٢٤ (أنظر طبقات

القراء ١/٣٩ ؛ تاريخ بغداد ٥/١٠٤)

على رأس الثلاث مائة للهجرة في بغداد بجمع سبع قراءات^(١) لسبعة من أئمة الحرمين والعراقين والشام اشتهروا بالثقة والامانة والضبط وملازمة القراءة ، وجاء جمعه لها محض صدفة واتفاق ، إذ كان في أئمة القراء من هم أجل منهم قدراً ، وكان عددهم لا يستهان به^(٢) ، فإذا أبو العباس بن عمار يلوم ابن مجاهد ويقسو عليه في تعبيره فيقول : « لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له ، وأشكل الامر على العامة بايهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر ، وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة ! »^(٣) .

وعبارة « القراءات السبع » لم تكن قد عرفت في الامصار الاسلامية حين بدأ العلماء يؤلفون في القراءات ، والسابقون منهم كأبي عبيد القاسم بن سلام ، وأبي جعفر الطبري ، وأبي حاتم السجستاني ، ذكروا في مصنفاتهم أضعاف تلك القراءات ، وإنما بدأت هذه العبارة تشتهر على رأس المائتين باقبال الناس في الامصار الاسلامية على قراءة بعض الائمة دون بعض ، فاشتهرت في مكة قراءة عبد الله ابن كثير الداري^(٤) (المتوفي سنة ١٢٠) وقد لقي من الصحابة أنس

(١) البرهان ١/٣٢٧

(٢) أنظر في (البرهان ١/٣٢٩) كيف يفسر مكي سبب اشتهار هؤلاء

السبعة دون غيرهم .

(٣) الاتقان ١/١٣٨ . وأبو العباس بن عمار هو الامام المقرئ المفسر أحمد بن

عمار المهدي ، وتوفي فيما قاله الحافظ الذهبي بعد الثلاثين واربعائة (انظر النشر ١/٦٨)

(٤) أنظر ترجمته في (طبقات القراء ١/٢٤٣) .

ابن مالك وعبد الله بن الزبير وأبا أيوب الانصاري ؛ وفي المدينة قراءة نافع^(١) بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (المتوفى سنة ١٦٩ هـ) الذي تلقى القراءة عن سبعين من التابعين أخذوا عن أبي بن كعب وعبد الله بن عباس وأبي هريرة ؛ وفي الشام قراءة عبد الله اليحصبي المشهور بابن عامر^(٢) (المتوفى سنة ١١٨ هـ) أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان ، ولقي من الصحابة النعمان بن بشير وواثلة ابن الاسقع ، ويقول بعضهم : انه لقي عثمان نفسه وأخذ عنه ؛ وفي البصرة قراءة كل من أبي عمرو ويعقوب ، فأما أبو عمرو^(٣) فهو زبّان ابن العلاء بن عمار (المتوفى سنة ١٥٤ هـ) ، وقد روى عن مجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير ، عن عبد الله بن عباس عن أبي بن كعب ، وأما يعقوب^(٤) فهو ابن اسحاق الحضرمي (المتوفى سنة ٢٠٥ هـ) وقد قرأ على سلام بن سليمان الطويل ، عن عاصم وأبي عمرو ؛ وفي الكوفة قراءة كل من حمزة وعاصم ، فأما حمزة^(٥) فهو ابن حبيب الزيات مولى عكرمة بن ربيع التيمي (المتوفى سنة ١٨٨ هـ) وقد قرأ على سليمان

(١) أنظر ترجمته في (طبقات القراء ٢/٣٣٠-٣٣٤) .

(٢) أنظر ترجمته في (طبقات القراء ١/٤٢٣-٤٢٥) .

(٣) أنظر ترجمته في (طبقات القراء ١/٢٨٨-٢٩٢) .

(٤) أنظر ترجمته في (طبقات القراء ٢/٣٨٦-٣٨٩) .

(٥) أنظر ترجمته في (طبقات القراء ١/٢٦١-٢٦٣) .

ابن مهران الاعمش على يحيى بن وثاب ، على زر بن حبيش ، على عثمان
وعلي وابن مسعود ، وأما عاصم^(١) فهو ابن أبي النّجود الاسدي
(المتوفى سنة ١٢٧ هـ) وقد قرأ على زر بن حبيش على عبد الله بن
مسعود . ويلاحظ قلة القراء العرب وكثرة الموالي ، ولا سيما الذين
كانوا من أصل فارسي ، « فليس في هؤلاء السبعة من العرب إلا ابن
عامر وأبو عمرو »^(٢) .

وحين جمع ابن مجاهد قراءات هؤلاء الائمة السبعة حذف اسم
يعقوب وأثبت مكانه الكسائي^(٣) (علي بن حمزة المتوفى سنة ١٨٩ هـ)
ونحن نعلم أن الكسائي كان كوفياً ويعقوب بصرياً ، فكان ابن
مجاهد اكتفى بذكر مقرئ واحد للبصرة هو أبو عمرو ، بينما اثبت
من أسماء المقرئين الكوفيين ثلاثة هم حمزة وعاصم والكسائي .

وقد حظيت قراءات هؤلاء الائمة السبعة - من لدن ابن مجاهد -
بشهرة واسعة ، وتوهم الكثيرون - كما قلنا - انها هي المراد من
الاحرف السبعة التي ذكرت في الحديث النبوي . والحق أن ثمة ضابطاً

(١) أنظر ترجمته في (طبقات القراء ١/٣٤٦-٣٤٩) .

(٢) البرهان ١/٣٢٩ وقارن بـ 117 ، Cor . ، Intro . Blachère

(٣) البرهان ١/٣٢٩ وانظر ترجمة الكسائي في (طبقات القراء ١/٥٣٥)

- ٥٤٠) وفيما يتعلق بأسانيد هؤلاء القراء السبعة أنظر (التيسير في القراءات
السبع للداني ص ٨ وما بعدها) .

إذا توفر في قراءة ما وجب قبولها ، وتوفر هذا الضابط وجد ما يسمى
بالقراءات العشر ، والقراءات الأربع عشرة . فأما العشر فإنها تلك
السبع المشهورة مضافاً إليها قراءة يعقوب الذي سبقت الإشارة
إليه ، وقراءة خلف بن هشام^(١) (المتوفى سنة ٢٢٩ هـ) الذي قرأ على
سليم بن عيسى عن حمزة بن حبيب الزيات ، وقراءة يزيد بن القعقاع^(٢)
المشهور بأبي جعفر (المتوفى سنة ١٣٠ هـ) الذي أخذ عن عبد الله ابن
عباس وأبي هريرة ، عن أبي بن كعب ، وأما الأربع عشرة فبزيادة
أربع قراءات على هاتيك العشر ، وهي قراءة الحسن البصري المشهور^(٣)
(المتوفى سنة ١١٠ هـ) ومحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن محيصة^(٤)
(المتوفى سنة ١٢٣ هـ) وبجي بن المبارك اليزيدي^(٥) (المتوفى ٢٠٢ هـ)
وأبي الفرج محمد بن أحمد الشذبوزي^(٦) (المتوفى سنة ٣٨٨ هـ) .

ولأسانيد المحدثين أثر واضح في تسلسل القراءات ، فكما استنبط

(١) أنظر ترجمته في (طبقات القراء ١ / ٢٧٢) .

(٢) أنظر ترجمته في (طبقات القراء ٢ / ٣٨٢) .

(٣) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، مولى الانصار . أحد كبار

التابعين ، وعلمائهم المشهورين بالزهد .

(٤) وقد أخذ ابن محيصة عن مجاهد ودرباس ، وكان شيخاً أبي عمرو .

(٥) نحوي من بغداد ، أخذ عن أبي عمرو وحمزة . وكان شيخاً للدوري والسوسي

(٦) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون

البغدادي ، المعروف بالشذبوزي نسبةً إلى استاذه ابن شذبوذ « لأنه حمل عنه

وضبط حتى نسب إليه » كما في (النشر ١ / ١٢٢) .

العلماء أحكام الشرع وأصول التفسير من الروايات التي صح سندها ، لم تقبل قراءة أحد من القراء إلا إذا ثبت أخذه عن من فوقه بطريق المشافهة والسماع حتى يتصل الاسناد بالصحابي الذي أخذ عن رسول الله ﷺ . ولذلك تتكرر في أوائل تلك الأسانيد أسماء الصحابة الذين لهم روايات في الحلال والحرام ، أو أسباب النزول ، أو بيان الآيات ^(١) . وهذا التسلسل في أسانيد القراء سوغ للعلماء أن يصفوا القراءات بأنها توقيفية ^(٢) ، فمنعوا القراءة بالقياس المطلق ^(٣) ، واستنكروا موقف جماعة منهم الزمخشري ^(٤) ظنوا أن « القراءات اختيارية ، تدور مع اختيار الفصحاء واجتهاد البلغاء » ^(٥) ، فما وافق العربية والرسم ولم ينقل باسناد صحيح كاسناد المحدثين الثقات فهو مردود ، « وكم من قراءة أنكراها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم كإسكان « بارئكم » و « يأمركم » وخفض « والأرحام » ونصب « ليجزى قوداً » ، والفصل بين المضافين في

(١) وفي التيسير لأبي عمرو الداني ص ٨ وما بعدها وصف دقيق لاسانيد القراء السبعة يظهر الى أي حد كان العلماء يتشددون في صحة الروايات وثبوت تلقيها بالمشافهة والسماع .

(٢) البرهان ١/٣٢١ .

(٣) الاتقان ١/١٣٢ .

(٤) سبقت ترجمته ص ٦٦ حاشية ٢ .

(٥) البرهان ١/٣٢١ .

« قتل أولادهم شركائهم » وغير ذلك^(١) . فلا غرابة إذا وقف القراء موقفاً شديداً من أبي بكر بن مقسم^(٢) ، الذي كان يختار من القراءات ما بداله أصح في العربية ولو خالف النقل أو رسم المصاحف فعدوا له مجلساً ، وأجمعوا على منعه^(٣) . وعقدوا مجلساً آخر لابن شنبوذ^(٤) لاستتابته مما كان آخذاً فيه من كتابة القرآن على ما يعلمه من قراءتي أبي وابن مسعود^(٥) .

(١) الاتقان ١/١٣٠ وانظر في (اتحاف فضلاء البشر ص ١٨٥) كيف يوجه الديمياطي قراءة حمزة « واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام » سورة النساء ١ ، فقد جرت الميم عطفاً على الضمير المجرور في « به » على مذهب الكوفيين ، وانظر في (الاتحاف ايضاً ص ٢١٧) توجيه قراءة ابن عامر « وكذلك زين كثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » فقد رفع « قتل » على انه نائب فاعل لزبن ، ونصب « أولادهم » على انه مفعول به للمصدر ، وجرت « شركائهم » على اضافة المصدر اليه فاعلاً .

(٢) هو محمد بن الحسن بن يعقوب المشهور بابن مقسم ، أحد نخبة بغداد وقراة ، توفي سنة ٣٥٤ (انظر طبقات القراء ٢/١٢٣) .

(٣) الاتقان ١/١٣٢ . وانظر طبقات القراء ٢/٥٤ .

(٤) هو محمد بن احمد بن ايوب بن شنبوذ ، أحد قراء بغداد ونحاتها توفي

سنة ٣٢٨ (انظر ترجمته في طبقات القراء ٢/٥٢) .

(٥) قارن بما يقوله المستشرق ماسينيون :

Massignon (L.), Al-Hallâj, martyr mystique
de l'Islam, p. 243, note 4

ولهذا السبب نفسه لم تقبل قراءة الاعمش ، فانه كان يتبع قراءة ابي وابن مسعود . وانظر في (كتاب المصاحف ص ٩١) بعض اوجه قراءته .

وقد انعقد المجلسان بأمر شيخ القراء ابن مجاهد الذي عرفنا أنه أول من جمع القراءات السبع ، وكان ابن مجاهد قد أخذ القراءة عن ابن شاذان الرازي الذي عنه أخذ أيضاً كل من ابن مقسم وابن شنبوذ ، ولكن اشتراك الثلاثة في التلقي عن شيخ واحد لم يمنع ابن مجاهد من التشدد مع زميله^(١) ، لاجتماع القراء في عهده على الأخذ بالأثبت في الأثر والأصح في النقل ، وليس الأفضى في اللغة والأقرب في العربية^(٢) . ومع ذلك ، فقد عني بعض اللغويين والنحاة بتتبع القراءات الشاذة فألف ابن خالويه (ت سنة ٣٧٠ هـ) كتاباً في هذه القراءات سماه « المختصر في شواذ القراءات »^(٣) ، وصنف ابن

(١) وقد اشار المستشرق بلاشير الى ذلك من غير ان يجد له تعليلاً منطقياً .

أنظر : Blachère , Intro . Cor . , p. 128 , note 169 .

والتعليل الطبيعي لهذا كله ما ذكرناه من ضرورة الاعتماد على النقل الصحيح في امثال هذه الموضوعات .

(٢) الاتقان ١/١٣٠ .

(٣) وقد نشر المستشرق برجستراسر Bergsträsser هذا الكتاب في

القاهرة سنة ١٩٣٤ وهو المجلد السابع من « مجموعة المكتبة الاسلامية » :

T . VII , Bibliotheca Islamica وابن خالويه هو الحسين بن أحمد ،

ابو عبد الله الهمداني ، إمام في العربية ، له كتب كثيرة أشهرها الاستقاق وكتاب ليس ، وكتابه عن شواذ القراءات . توفي في حلب سنة ٣٧٠

(بغية الوعاة ص ٢٣٢) .

جني^(١) كتابه « المحتسب في توجيه القراءات الشاذة » ، ووضع
ابو البقاء العكبري^(٢) كتاباً أوسع وأشمل سماه « إملاء ما من به
الرحمن ، من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن » ، ولم
يتردد بعض العلماء في اطلاق القول بأن « توجيه القراءة الشاذة أقوى
في الصناعة من توجيه المشهورة »^(٣) ، ووجدوا في توجيه الشاذ عونا
على معرفة صحة التأويل ، فقراءة ابن مسعود « والسارق والسارقة
فاقطعوا أيمانها » بدلا من أيديها^(٤) ساعدت على فهم ما يقطع
في حد السرقة ، وقراءة سعد بن أبي وقاص « وله أخ أو أخت من ام
فلكل^(٥) » ... صرحت بنوع الاخوة في هذه القضية التشريعية
المتعلقة بالميراث ، وقراءة عمر بن عبد العزيز التي تحكى ايضاً عن
الامام أبي حنيفة « إنما يخشى الله من عباده العلماء »^(٦) برفع اسم

(١) هو ابو الفتح عثمان بن جني ، من أئمة اللغة والنحو . له كتاب الحصاص ،
وسر الصناعة والتصريف ، توفي سنة ٣٩٢ (أنظر نزهة الألباء ص ٢٠٦) . أما
كتابه (توجيه القراءات الشاذة) فمنه نسخ مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة .
(٢) هو عبد الله بن الحسين المشهور بأبي البقاء العكبري ، توفي سنة ٦١٦
(أنظر ترجمته في بغية الوعاة ٢٨١) و كتابه (املاء ما من به الرحمن) طبع
في المطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣٢١ .

(٣) البرهان ١/٣٤١ .

(٤) راجع ص ١٤١ .

(٥) سورة النساء ١٢ وقراءة حفص ليس فيها (من ام) .

(٦) سورة فاطر ٢٨ (أنظر تفسير القرطبي ١٤/٣٤٤) .

الجلالة ونصب العلماء يندت أن الغرض من تخصيص العلماء بالخشية إظهار مكاتبتهم ودرجتهم عند الله ، « وتأويله — كما يقول الزركشي — أن الخشية هنا بمعنى الاجلال والتعظيم ، لا الخوف »^(١) ويضيف الزركشي : « فهذه الحروف وما شا كلها قد صارت مفسرة للقرآن ، وقد كان يروى مثل هذا عن بعض التابعين في التفسير فيستحسن ذلك ، فكيف إذا روي عن كبار الصحابة ثم صار في نفس القراءة ! فهو الآن اكثر من التفسير وأقوى ، فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف صحة التأويل »^(٢). ومن هنا شاع على السنة العلماء : « اختلاف القراءات يظهر اختلاف الاحكام »^(٣). على أن توجيه بعض القراءات الشاذة لم يخل من التكلف ، وقد يستهجن بادي الرأي ثم لا يدفع الاستهجان إلا التأويل كقراءة : « هو الله الخالق الباري » المصور « بفتح الواو والراء ، على أنه اسم مفعول ؛ وتأويله أنه مفعول لاسم الفاعل ، الذي هو الباري ، فإنه يعمل عمل الفعل ، كأنه قال : الذي برأ المصور ! »^(٤).

وتوجيه القراءات الشاذة لاستنباط غرائب التأويلات من بعض وجوها كان لو نأمن الترف العلمي الذي شغف به علماء الاسلام

(١) البرهان ١/٣٤١ .

(٢) البرهان ١/٣٣٧ .

(٣) الاتقان ١/١٤١ .

(٤) البرهان ١/٣٤١ ولا يخفى ما في هذا التأويل من بعد وتكلف .

خلال دراساتهم الواسعة المتشعبة لكل ما يتعلق بالقرآن : فكما شغلوا أنفسهم بمعرفة عدد آيات القرآن ^(١) ، وأطول آية وأقصرها ^(٢) ، وأكثر ما اجتمع في كتاب الله من الحروف المتحركة ^(٣) ، وما شابه هذه المباحث التي ليس من ورائها كبير فائدة إلا في حالات يسيرة نادرة ، آنسوا من أنفسهم ميلاً لدراسة القراءات الشاذة لمجرد توسيع آفاق البحث ، وإلا فانهم يعلمون علم اليقين أن كل قراءة لم تتواتر قرآنيها لا يجوز لهم ولا لغيرهم تلاوتها في الصلاة ولا سواها ، ولا يجب اعتقادها على أحد . قال النووي في « شرح المهذب » ^(٤) :

« لا تجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءة الشاذة لأنها ليست قرآناً ، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ، والقراءة الشاذة ليست متواترة ، ومن قال غيره فعاطل أو جاهل ، فلو خالف وقرأ بالشاذ

(١) أنظر ما ينقله الزركشي في (البرهان ٢٥١/١) عن علي وعطاء وحמיד وراشد في تعداد آي القرآن .

(٢) البرهان ٢٥٢/١ وفي الصفحة نفسها يذكر الزركشي أيضاً أطول كلمة في القرآن وأقصرها .

(٣) البرهان ٢٥٤/١ ويبلغ الغلو بالزركشي أشده حين يستشهد على هذا بقوله تعالى في سورة يوسف « حتى يأذن لي آبي أو يحكم الله لي » على قراءة من حرك الياء في قوله (لي) ، و (آبي) . ومثل هذا الغلو هو الذي سوغ لنا أن نرى في جميع هذه المباحث ضرباً من الترف العلمي .

(٤) سبقت ترجمة الامام النووي ص ١٢١ حاشية ٤ . أما « المهذب » فهو كتاب في فروع الفقه الشافعي للفقير ابراهيم بن محمد الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ « كشف الظنون » .

انكر عليه قراءتها في الصلاة وغيرها ، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة من قرأ بالشواذ . ونقل ابن عبد البر^(١) إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشواذ ، ولا يصلح خلف من يقرأ بها^(٢) .
ولذلك قال الامام مالك فيمن قرأ في صلاة بقراءة ابن مسعود وغيره من الصحابة مما يخالف المصحف : لم يصل وراءه !^(٣) .

وموقف العلماء من قراءة ابن مسعود — على تقواه وورعه وعلمه الغزير — ربما دعا اليه ماشاع عنه من إنكاره المعوذتين والفاحة من القرآن ، وإن كان كثيرون يفسرون تصرفه تفسيراً منطقياً .
قال ابن قتيبة في « مشكل القرآن » : « ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن ، لأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ بهما الحسن والحسين ، فأقام على ظنه ، ولا نقول : إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والانصار . قال : وأما إسقاطه الفاتحة من

(١) سبقت ترجمته ص ١٣٥ حاشية ٢ .

(٢) البرهان ١/٣٣٣ .

(٣) البرهان ١/٢٢٢ والمستشرقون يابون الا ان يضخموا فتوى الامام مالك ويقارنوا بينها وبين فتاوى الحنفية المتساهلين في هذا الموضوع . أنظر :

Geschichte des Qorans , III , 108 , 109 (c f . Blachère ,
Intro . Cor . , 114 , note 152

والقضية لا تزيد عن تشدد العلماء — وفي طليعتهم الامام مالك — في اثبات القرآنية التي لا تكون الا بطريق التواتر .

دصحفه فليس لظنه أنها ليست من القرآن — معاذ الله ! — ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان ، ورأى أن ذلك مأمون في سورة الحمد لقصرها ووجوب تعلمها على كل أحد «^(١) .

وقراءة أبي بن كعب تماثل قراءة ابن مسعود في الشذوذ لما ينسب إليه من اثباته دعاء الاستفتاح والقنوت في آخر مصحفه كالسورتين^(٢) ، « مع أنه لم تقم حجة بأنه قرآن منزل ؛ بل هو ضرب من الدعاء ، وأنه لو كان قرآناً لنقل نقل القرآن ، وحصل العلم بصحته »^(٣) .

ولتمييز القراءات المقبولة من الشاذة وضع العلماء ضابطاً للقراءات المقبولة ذا ثلاثة شروط ، أحدها موافقة القراءة لرسم أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً ، والثاني موافقتها العربية ولو بوجه .

(١) الاتقان ١٣٧/١ — ١٣٨ .

(٢) البرهان ٢٥١/١ .

(٣) البرهان ١٢٨/٢ ويرى الباقلاني بصورة عامة « انه لا يجوز ان يُضاف الى عبد الله أو الى أبي بن كعب ، أو زيد أو عثمان أو علي ، أو واحد من ولده أو عترته جحد آية أو حرف من كتاب الله وتغييره أو قراءته على خلاف الوجه المرسوم في مصحف الجماعة بأخبار الآحاد ، وأن ذلك لا يجزئ ، ولا يُسمع ، بل لا تصلح إضافته الى أدنى المؤمنين في عصرنا ، فضلاً عن إضافته الى رجل من الصحابة » أنظر البرهان ١٢٧/٢ .

والثالث صحة أسنادها ، ولو كان عن من فوق السبعة والعشرة من القراء المشهورين^(١) . وقد آثر ابن الجزري في كتابه (منجد المقرئين) أن يبدل شرط صحة الاسناد في هذا الضابط بتواتره ، لأن القرآنية لا تثبت إلا بالاسناد المتواتر ، فالقراءات الاربع الزائدة على العشر صحيحة الاسناد ولكنها آحادية فليست متواترة ، وليست قرآناً يتعبد به ويتلى في الصلاة ، وإنما القراءات المتواترة التي تلقتها الامة بالقبول هي العشر التي أخذها الخلف عن السلف حتى وصلت إلينا ، ولا يوجد اليوم قراءة متواترة وراء هذه العشر .

وينقل السيوطي^(٢) عن ابن الجزري أن « أنواع القراءات من حيث السند ستة :

(الاول المتواتر) : وهو ما رواه جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم . مثاله : ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة^(٣) . وهذا هو الغالب في القراءات .

(الثاني المشهور) : هو ما صح سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا ، ووافق العربية ، ووافق أحد المصاحف العثمانية ، سواء أكان عن الائمة السبعة أم العشرة أم غيرهم من الائمة المقبولين ، واشتهر عند القراء من يعدوه فلم الغلط ولا من الشذوذ ، إلا أنه لم يبلغ

(١) أنظر الاتقان ١/١٢٩ .

(٢) عن الاتقان ١/١٣٢ - ١٣٣ بشيء من التصرف طلباً للاختصار .

(٣) والجمهور على أن القراءات السبع متواترة « أنظر البرهان ١/٣١٨ .

درجة التواتر . مثاله : ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة ، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض . ومن أشهر ما صنّف في هذين النوعين التيسير للداني^(١) ، والشاطبية^(٢) ، وطيبة النشر في القراءات العشر^(٣) . وهذان النوعان هما اللذان يقرأ بهما مع وجوب اعتقادهما ولا يجوز انكار شيء منهما .

(النوع الثالث) : ما صحّ سنده ، وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور . وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده . من ذلك ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجحدري عن أبي بكر أن

(١) كتاب التيسير في القراءات السبع نشره وحققه المستشرق برتزل Pretzel في الاستانة سنة ١٩٣٠ في المجلد الثاني من « المكتبة الاسلامية » t.II, Bibliotheca Islamica ويشتمل على مذاهب القراء السبعة بالأصوار ؛ وذكر فيه ابو عمرو الداني عن كل واحد من القراء روايتين . وانظر :

Geschichte des Qorans , III , 214, sqq

(c f . Blachère , Intro . Cor . , p . 130 , note 172)

(٢) الشاطبية هي المنظومة المنسوبة الى الامام أبي محمد القاسم الشاطبي المتوفى سنة ٥٩٠ نظم فيها كتاب التيسير في ١١٧٣ بيتاً وسماها « حرز الاماني ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني » أنظر كشف الظنون ٦٤٦/١ وانظر :

Krenkow , Encyclopédie de l'Islam . IV , 349 (art . Schâtibi)

(٣) للامام الشهير ابن الجوزي (سبقت ترجمته ص ٧٢ حاشية ٣) و« الطيبة » منظومة طبعت في مجموعة من القراءات مشتملة على سبعة متون في مطبعة شرف سنة ١٣٠٨ ، وهي غير كتابه (النشر) الذي طبعه في دمشق محمد أحمد دهمان سنة ١٣٢٥ .

النبي ﷺ قرأ: « متكئين على رفارف خضرٍ وعباقري حسان »^(١)
ومنه قراءة: « لقد جاءكم رسول من أنفسكم »^(٢) بفتح الفاء .

(النوع الرابع الشاذ): وهو ما لم يصح سنده ، كقراءة ابن السميعة :
« فاليوم ننجيك بيدنك » بالحاء المهملة « لتكون لمن خلفك آية »^(٣)
بفتح اللام من كلمة « خلفك » .

(الخامس الموضوع) : وهو ما ينسب الى قائله من غير أصل .
مثال ذلك القراءات التي جمعها محمد بن جعفر الخزاعي^(٤) ، ونسبها الى ابي
حنيفة ، كقراءة « إنما يخشى الله من عباده العلماء » برفع اسم الجلالة
ونصب العلماء .

(النوع السادس): ما يشبه المدرج من أنواع الحديث : وهو ما زيد
في القراءات على وجه التفسير كقراءة سعد بن أبي وقاص : « وله
أخ أو أخت من أم » بزيادة لفظ : « من أم » ، وقراءة : « ليس عليكم

(١) سورة الرحمن ٧٦ وقراءة حفص « متكئين على رفارف خضرٍ
وعباقري حسان » .

(٢) سورة التوبة ١٢٨ وقراءة حفص « من أنفسكم » بضم الفاء .

(٣) سورة يونس ٩٢ وقراءة حفص « فاليوم ننجيك بيدنك لتكون
لمن خلفك آية » .

(٤) هو الامام أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي ، مؤلف « المنتهى »
جمع فيه ما لم يجمعه من قبله ، وتوفي سنة ٤٠٨ (انظر النشر ١/٣٤) ويلاحظ
ان ابن الجزري يصفه « بالامام » .

جناحٌ ان تبغوا فضلاً من ربكم في موسم الحج » بزيادة لفظ « في موسم الحج » . اهـ

وجدير بالذكر أن قارئ القرآن لا يسمى مقرئاً حتى ولو حفظ العشر كلها والاربع عشر إلا إذا أحكمها بالسمع والمشافهة ؛ فنحن بهذه العجالة تصورنا حقيقة القراءات وأخذنا فكرة عامة عن القراء لمجرد الوصول إلى غايتنا الاساسية من فهم النصوص القرآنية التي تقوم دراستنا لها على ما ثبت منها تواتر قرآنيته : فما دام القرآن قد أنزل على سبعة أحرف فنحن ندرسها جميعاً في كل قراءة تواترت محتوية على حرف منها ، وعمادنا في هذا الأصح في النقل وليس الاقيس في العربية لأننا نجعل القرآن حكماً على قواعد اللغة والنحو ، ولا نجعل تلك القواعد حكماً على القرآن ، فما استمد النحاة قواعدهم الا من القرآن بالدرجة الاولى ، ثم من الحديث وكلام العرب بالدرجة الثانية .

المكي والمدني في القرآن

من العسير جداً استيفاء البحث في تاريخ التشريع الاسلامي ، وتدرجه الحكيم مع المناسبات والأحداث والظروف ، وتتبع وصفه للبيئة العربية ، ودراسة خصائصه الأسلوبية المتنوعة ، ان لم يقدم لذلك كله بمعرفة المكي والمدني من سور القرآن الكريم . وإذا كانت أسباب النزول في كلام الله بمنزلة مقتضيات الأحوال في كلام البلغاء من البشر^(١) فان العلم بالمكي والمدني ضرب من الترتيب الزماني أو التبويب الموضوعي أو التحديد المكاني للسور القرآنية ، فهو أكبر عون على تتبع المراحل التي مرت بها الدعوة الاسلامية . ولذلك عني العلماء بملاحظة جميع الملابس التي تدرج فيها نزول القرآن ابتداءً ووسطاً وانتهاءً ، ومنعوا من يجهل هذه الملابس أن يتصدى لكتاب الله مفسراً لآياته ، أو خائضاً فيه . قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري^(٢) . « من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً ، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بمكة

(١) راجع بحث (أسباب النزول) ص ٥١ .

(٢) هو النحوي المفسر ، امام عصره في القراءات ، توفي سنة ٤٠٦ (بغية

وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي ، وما نزل بمكة في أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة في أهل مكة ، ثم ما يشبه نزول المكّي في المدني ، وما يشبه نزول المدني في المكّي ، ثم ما نزل بالجُحفة ^(١) ، وما نزل بيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالحديبية ، ثم ما نزل ليلاً ، وما نزل نهاراً ، وما نزل مشياً ، وما نزل مفرداً ، ثم الآيات المدنيات في السور المكّية ، والآيات المكّية في السور المدنية ، ثم ما أُحمل من مكة الى المدينة ، وما حمل من المدينة الى مكة ، وما أُحمل من المدينة الى أرض الحبشة ، ثم ما نزل مجملاً ، وما نزل مفسراً ، وما نزل مرموزاً ، ثم ما اختلفوا فيه فقال بعضهم : مدني . هذه خمسة وعشرون وجهاً من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى ^(٢) ونحن نعتزف بأنه ليس في وسعنا أن نعرض هنا تفصيلاً لجميع تلك الملابس ، فإن بحث كل منها على حدة يستغرق مجلداً بأكمله ، وهيئات له أن يكون وافياً بالمقصود ، شافياً للغليل : فحسبنا - للدلالة على ما عاناه العلماء في تتبع مراحل الوحي - أن نشير اجمالاً الى بعض الروايات التي لم يكتف أصحابها بوصف ما نزل في مكة أو في المدينة ، قبل الهجرة أو بعدها ، بل بلغت عنايتهم بهذا الكتاب الكريم أقصى ما يبلغه الباحثون من التحري والتحقيق ، فلم يفتهم ما نزل من

(١) الجُحفة : قرية على طريق المدينة ، من مكة على أربع مراحل .

(٢) البرهان ١/١٩٢ ، ونقله السيوطي في (الاتقان ١/١٢-١٣) .

القرآن في جنح الليل أو رابعة النهار ، وفي شدة البرد أو لظى الحر ،
وفي الحضرة أو أثناء السفر ، وفي السلم حين يأوي الرسول صلى الله عليه
وسلم الى فراشه أو الحرب حين يخوض المعركة ويحرض على القتال ،
وحتى في الاسراء الى المسجد الاقصى أو العروج الى السموات العلى .

ولقد لاحظوا بصورة عامة أن أكثر القرآن نزل نهاراً^(١) ، ثم
استرعى انتباههم أن هذه القاعدة لم تُتبع في بعض الحالات الجزئية ،
فسورة مريم أنزلت ليلاً . روى الطبراني^(٢) عن أبي مريم الغساني قال :
أتيت رسول الله ﷺ فقلت : « ولدت لي الليلة جارية ، فقال : « والليلة
أنزلت علي سورة مريم ، سمها مريم »^(٣) . وأول سورة الفتح نزل
ليلاً ، ففي البخاري من حديث عمر : « لقد نزلت علي الليلة سورة هي
أحب الي مما طلعت عليه الشمس ، فقراً : « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً »

(١) وينسب القول بهذا الى السيدة عائشة ام المؤمنين (انظر البرهان
١/١٩٨) . اما السيوطي في (الاتقان ١/٣٤) فيقول : « أمثلة النهاري كثيرة ،
قال ابن حبيب : نزل أكثر القرآن نهاراً » فهو ينسب هذا القول الى ابن حبيب ، وهو
أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري الذي سبقت الاشارة اليه ص ١٦٤ .

(٢) الطبراني هو الحافظ المكثر صاحب التصانيف المفيدة ، واشهرها
المعاجم الثلاثة : الكبير والصغير والأوسط . توفي سنة ٣٦٠ هـ عن مائة سنة
وعشرة اشهر (انظر الرسالة المستطرفة لمحمد بن جعفر الكتاني ص ٣٠) .

(٣) الاتقان ١/٣٥ .

الحديث^(١) . وأول سورة الحج : « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، ان
زلزلة الساعة شيء عظيم » نزل ليلاً في غزوة بني المصطلق ، وهم حي
من خزاعة ، والناس يسرون^(٢) .

ويوشك أحدنا - إذا جعل الروايات الصحيحة عُمدته - أن
يستحضر النازل القرآني في أي جزء من الليل كان ، في وسطه أم أوله
أم آخره ، وإني لأتمثل هذه اللحظة رسول الله ﷺ في الركعة الأخيرة
من صلاة الصبح حين نزل عليه - كما في الصحيح - قوله تعالى « ليس
لك من الأمر شيء »^(٣) ؛ ثم أتمثله صلوات الله عليه في خيمة من آدم ،
وقد بات نفرٌ من أصحابه على باب الخيمة يحرسونه ، فلما أن كان بعد
هزيع من الليل أنزل الله عليه : « والله يعصمك من الناس »^(٤) ، فأخرج
رأسه من الخيمة فقال : « يا أيها الناس ، انصرفوا فقد عصمني الله ! »^(٥) .

ولقد تكون الليلة شاتية ، ويكون البرد فيها شديداً ، فلا يفوت
الراوي أن يصفها لنا إرهاباً لذكر الآيات التي نزلت في هذا الجو
المكفهر ، فما من جزئية مهما تكن نافهة في نظرنا الآن إلا وهي على

(١) الاتقان ١/٣٦ .

(٢) البرهان ١/١٩٨ .

(٣) سورة آل عمران ١٢٨ (وانظر الاتقان ١/٣٦) .

(٤) سورة المائدة ٦٧ .

(٥) البرهان ١/١٩٨ .

لسان الراوي شيء له قيمته الدينية والاجتماعية ، فليصورها تصويراً واقعياً أميناً ، ولا ينقص منها ولا يزيدن عليها : ها هم الناس يتفرقون عن رسول الله ﷺ ليلة الاحزاب إلا اثني عشر رجلاً فيخاطب عليه السلام الصحابي الجليل حذيفة قائلاً : قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب ، فيجيبه حذيفة : والذي بعثك بالحق ماقت لك إلا حياة ... من البرد ! فأنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً » (١) .

ونجد في المقابل أن الآيات النازلة في غزوة تبوك إنما كانت في شدة الحر ، وأن رجلاً من المنافقين قال يومئذ : لا تنفروا في الحر ، فأنزل الله : « قل نار جهنم أشد حراً » (٢) .

وإذا كان أكثر القرآن نزل في الحضر فإن تنقل الرسول ﷺ في سبيل الدعوة جعله يتلقى الوحي أحياناً في بعض أسفاره ، تثبتاً لفقواده ، وتأيداً لجهاده ، وكثيراً ما يعبر الرواة عن هذا بمثل قولهم :

(١) سورة الاحزاب ٩ ؛ والحديث أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (انظر الاتقان ٣٧/١) . والامام البيهقي منسوب الى بيهق ، وهي قرى مجتمعة بنواحي نيسابور على عشرين فرسخاً منها ، والبيهقي كتب كثيرة قيل انها نحو الالف ، واشهرها كتاب السنن الكبرى ، ودلائل النبوة . وقد توفي هذا الامام الكبير سنة ٤٥٨ (انظر الرسالة المستطرفة ص ٢٥ - ٢٦) .

(٢) سورة التوبة ٨١ (وانظر الاتقان ٣١/١) .

نزلت الآية أو الآيات على النبي ﷺ في «مسير» له . ويغلب عليهم تعيينُ هذا المسير ، وتحديد السفر ومكانه وزمانه : وفي الصحيح عن عمر أن قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم »^(١) نزل عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع ، وفي «دلائل» البيهقي أن خاتمة سورة النحل نزلت بأحد والنبي ﷺ واقف على حمزة حين استشهد^(٢) .

ولقد كانت حياة الرسول ﷺ سلسلة من الجهاد المتواصل ، فكثير نزول الوحي عليه في مغازيه : ففي بدر عقب الواقعة نزل أول الانفال^(٣) ؛ وفي «عمره الحديبية» نزل قوله تعالى « وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرُّ من اتقى »^(٤) ؛ وفي تبوك نزل قوله تعالى « وإن كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها ، واذن لايلبثون خلافاً لك الا قليلاً »^(٥) . وقد تتبع السيوطي عدداً من الأمثلة الاخرى تراجع في موضعها من «الاتقان»^(٦) .

وان الوحي لينزل على قلب الرسول ﷺ في كل لحظة ؛ وانه

(١) سورة المائدة ٣ (وانظر الاتقان ٣١/١) .

(٢) الاتقان ٣٢/١ (وراجع ص ٥٩-٦٠ من كتابنا هذا) .

(٣) الاتقان ٣٢/١ .

(٤) سورة البقرة ١٨٩ (وانظر الاتقان ٣٠/١) ويرى بعضهم أنها نزلت في

غزوة الفتح او في حجة الوداع .

(٥) سورة الاسراء ٧٦ (وانظر الاتقان ٣٢/١) .

(٦) الاتقان ٣٠-٣٤ (النوع الثاني معرفة الحصري والسفري) .

ليأوي الى فراشه فما يكاد يغفو اغفاءة حتى ينهض ويرفع رأسه متبسماً ،
فقد أوحى اليه ! وذلك شأن سورة الكوثر^(١) . ومثلها آية الثلاثة
الذين خالفوا^(٢) ، ففي الصحيح أنها نزلت وقد بقي من الليل ثلثه وهو
عند السيدة أم سلمة أم المؤمنين^(٣) .

وليلة الاسراء والمعراج ليست الا ليلة في حساب الزمان ، ولكنها
جزء من الازل البعيد العميق في علم الله ، فمن القرآن آيات نزلت في
تلك الليلة القدسية ؛ ولئن صحَّ أن قوله تعالى « واسأل من أرسلنا
قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون »^(٤) نزل ببیت
المقدس عندما أسرى الله بعبده ليلاً^(٥) ، فإن الآيتين من آخر سورة
البقرة نزلتا — كما يقول ابن العربي^(٦) — « في الفضاء بين السماء
والارض »^(٧) حين رأى محمد من آيات ربه الكبرى ساعة المعراج .
وهذا الاستقصاء في تحري ما عسى أن يبدو لبعضهم غير ذي بال
لم يكن له في نفوس الرواة والعلماء الاتفسير واحد : انه صدق

(١) كما في صحيح مسلم عن انس (الاتقان ١/٣٨) .

(٢) سورة التوبة ١١٨ .

(٣) الاتقان ١/٣٧ .

(٤) سورة الزخرف ٤٥ .

(٥) البرهان ١/١٩٧ .

(٦) سبقت ترجمته ص ٢ حاشية ١ .

(٧) الاتقان ١/٣٨ .

الرواية وامكان الثقة بها الى أبعد حد فيما يتعلق بتحديد المكي والمدني في كتاب الله .

على أن العلماء — عند دراسة المكي والمدني — ترددوا في اقامتها على أساس من المكان أو الزمان أو الاشخاص ، فمن قال : « المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة » لاحظ المكان ؛ ومن قال : « المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة » راعى أشخاص المخاطبين ؛ ومن آثر الأخذ بالاصطلاح المشهور : « المكي ما نزل قبل هجرة الرسول ﷺ الى المدينة ، وان كان نزوله بغير مكة ، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة وان كان نزوله بمكة » عني بالترتيب الزمني في مراحل الدعوة الاسلامية . ونحن اذا تأخذ بهذا الرأي الاخير لا نكتم القارىء ما نلمحه من تحقق عناصر الزمان والمكان والاشخاص في الاصطلاحات الثلاثة على السواء^(١) في جميع الحالات العادية ، أما الظروف المستثناة فقد حفظت لنا رواياتها بتفصيل جزئي عجيب لا مثيل له في الدقة والاستقصاء : هذه سورة الممتحنة الى آخرها^(٢) نزلت بالمدينة اذا لاحظنا المكان

(١) انظر هذه الاصطلاحات الثلاثة في البرهان ١/١٨٧ والاتقان ١/١٣-١٤ .

(٢) انظر تفصيل قصتها في سيرة الرسول لابن هشام ص ١٦-١٧ وقد نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة حين دفع كتابه الى قريش يخبرها بمسير النبي الى مكة .

وكان نزولها بعد الهجرة اذا اعتبرنا الزمان ، ووقعت خطاباً لأهل مكة ان أردنا الاشخاص . لذلك أدرجها العلماء في باب (ما نزل بالمدينة وحكمه مكي)^(١) .

وذلك قوله تعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكروا نثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »^(٢) نزل بمكة اذا التمسنا المكان ، ويوم الفتح بعد الهجرة ان أردنا الزمان ، وهو — ان راعينا الاشخاص — خطاب لاهل مكة والمدينة على السواء ، بل للانسانية كلها في كل زمان ومكان ، فما سماه العلماء مكيّاً على الاطلاق ، ولا مديناً على التعيين ، بل أدرجوه في باب (ما نزل بمكة وحكمه مديني)^(٣) .

وعلى هذا الأساس من الدقة والاستقصاء فرق العلماء بين ما يشبه تنزيل المدينة في السور المكية وما يشبه تنزيل مكة في السور المدنية^(٤) ، وغرضهم من التعبير « بالتشبيه » واضح ، فانهم يلاحظون مجرد الطابع العام لكل سورة ثم ما يشبه هذا الطابع شهاً قريباً يكاد يلحقه به ، فاذا وجدت في سورة هود المكية مثل قوله تعالى

(١) البرهان ١/١٩٥ .

(٢) سورة الحجرات ١٣ .

(٣) البرهان ١/١٩٥ .

(٤) انظر البرهان ١/١٩٦ .

« وأتم الصلاة طَرَفِي النهار ... »^(١) فليس من الضروري أن تعتبرها مدنية وإن أشبهت التنزيل المدني . وإذا تلوت في سورة الأنفال المدنية مثل قوله تعالى « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »^(٢) فليس لك أن تحكم بأنها مكية ولو كان فيها من التنزيل المكي ظلال وسمات .

وكثيراً ما يصرف وجه الشبه القريب بين المكي والمدني الباحثين المتسرعين عن تتبع مرحلة دقيقة خطيرة في تاريخ الدعوة الاسلامية، حين تستدعي ظروف معينة حمل النازل القرآني من مكان إلى مكان . ولكن العلماء الثقات وافوا بنا بذلك كله ، فلكل آية في القرآن تاريخها ، بل لكل لفظة فيه سيرتها وترجمتها : فمن شيخ المفسرين الطبري^(٣) علمنا أن قوله تعالى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال

(١) في تفسير القرطبي ٩/١١٠-١١١ أنها نزلت في رجل من الانصار يسمى أبا اليسر بن عمرو . وفي (البرهان ١/١٩٦) أنها نزلت في أبي مقبل الحسين بن عمر بن قيس والمرأة التي اشترت منه التمر، فراودها . والآية في سورة هود ١١٤ .
(٢) سورة الانفال ٣٢ (وانظر البرهان ١/١٩٧) ومن ذلك ان بعض العلماء استثنى من سورة الانفال المدنية ايضاً قوله تعالى « واذ يمكر بك الذين كفروا ليُنسبتوك او يقتلوك او يخرجوك » الآية ٣٠ فقالوا: انها مكية، ولكن السيوطي في (الاتقان ١/٢٤) لا يصوب ذلك ويقول : « يردده ما صح عن ابن عباس أن هذه الآية بعينها نزلت بالمدينة كما اخرجه في اسباب النزول » .
(٣) سبقت ترجمته ص ٣ حاشية ٢ .

فيه «^(١) حمل من المدينة إلى مكة^(٢) ، ومن القرطبي^(٣) علمنا أن قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا »^(٤) حمل مع الآيات من أول سورة براءة من المدينة إلى مكة ، ثم قرأها علي بن أبي طالب رضى الله عنه يوم النحر على الناس^(٥) .

وحين نجد علماءنا يبذلون هذه الجهود المشكورة في تحري الروايات وضبطها ليرتبوا السور القرآنية تبعاً لتطورات الدعوة وأدق جزئياتها ، لا نملك أنفسنا من الدهشة والذهول إذ نسمع المستشرقين يدعون بالويل والثبور على الرواة والروايات ، ويرتابون في إمكان ترتيب القرآن اعتماداً على سيرة الرسول^(٦) .

ومن الغريب حقاً أن يظن المستشرقون أن في وسعهم ترتيب القرآن زمنياً وهم يجحدون كل أثر الرواية الصحيحة في هذا الترتيب . ولو كانوا يتشددون في الروايات فلا يقبلون منها الا المسندة الصحيحة لهان الأمر ، فان علماء الاسلام أنفسهم كانوا ولا يزالون يرفضون الأخذ بالروايات الضعيفة في المكي والمدني وغيرها

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

(٢) تفسير الطبري ٢ / ٢٠١ - ٢٠٦ وانظر البرهان ١ / ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٣) هو الامام أبو عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر بن فرج الانصاري الخزرجي الاندلسي المشهور بالقرطبي . صاحب (الجامع لاحكام القرآن) توفي سنة ٦٧١ هـ

(٤) سورة البقرة ٢٧٨ .

(٥) تفسير القرطبي ٣ / ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٦) انظر على سبيل المثال . . . 252 . Cor . . . Intro . . . Blachère .

من الموضوعات التي تلقي الضياء ساطعاً على تتبع مراحل الوحي القرآني ، وترتيب سورة وآياته ، وتدرج تعاليمه وارشاداته . على أن بين المستشرقين من حاول أن يبحث هذا الموضوع على صعيد لا يختلف كثيراً عن صعيدنا ، كالاستاذ غريم H.Grimme الذي اعتمد على الروايات والأسانيد الاسلامية في ترتيب سور القرآن^(١) . ويؤخذ عليه مع ذلك أمران : أما أحدهما فعدم تمحيصه صحيح تلك الروايات وسقيمها وعجزه كسائر المستشرقين عن هذا التمحيص ، ولذلك لم يبال بترتيب القرآن على أساس واه من الاسانيد الضعيفة أحياناً والباطلة أحياناً أخرى . وأما الآخر فهو تخليه عن المنهج الذي اشترطه على نفسه من احترام الروايات ليصدر في نهاية المطاف - في مواطن مختلفة - عن رأي المستشرق نولدكه في وصف المراحل المتعاقبة على الوحي القرآني^(٢) .

والواقع أن المستشرق نولدكه Noldeke كان مقتنعاً بضرورة ترتيب القرآن زمنياً على غير الطريقة الاسلامية ، وقد رسم لنفسه منهجاً جديداً تأثر به كثيرون ، فأصبح موضوع هذا الترتيب يشغل

(١) انظر منهجه في الاعتماد على الروايات في كتابه :

H . Grimme , Mohammed . 2^e partie (Münster, 1895) ;
Gf . Blachère , Intro . Cor . , 250

(٢) انظر بعض مواطن تلاقيه مع نولدكه في Geschichte des Qorans, 73

أذهان المستشرقين جميعاً ، ويلقون عليه أخطر النتائج في عالم الدراسات القرآنية .

وقد ظهرت في أوربة في منتصف القرن التاسع عشر محاولات لترتيب سور القرآن ودراسة مراحلها التاريخية ، منها محاولة وليم موير William Muir الذي قسم المراحل القرآنية الى ست ، خمس في مكة وسادستها في المدينة ^(١) . واعتمد فيها - الى حد غير قليل - على سيرة الرسول ﷺ وأسانيدھا بعد دراستھا دراسة نقدية حشد لها الكثير من معلوماته التاريخية ^(٢) ، ولكنه وقع - مع ذلك - في أخطاء عديدة وأخذ بروايات واهية ، والمقارنة في هذا المجال بينه وبين غريم Grimme ستظل ممكنة ميسورة .

ومنها محاولة ويل Weil التي بدأها سنة ١٨٤٤ ولم تتخذ صورتها النهائية الا سنة ١٨٧٢ ، ولا يقيم فيها وزناً للروايات والاسانيد الاسلامية ^(٣)

(١) ويمكن دراسة هذه المحاولة في كتابين من تأليف موير أحدهما :

Life of Mahomet (London , 1858 - 61)

وقد طبع هذا الكتاب طبعة مزيدة منقحة سنة ١٩٢٣ في ادنبروغ

Edinburgh بإشراف T. H. Weir .

والثاني : The Coran , its composition and Teaching

(London , 1878)

Cf. Blach., Intro . Cor . , 248 . (٢)

(٣) وذلك في كتابه : G. Weil , Historisch - Kritische

Einleitung in der Koran (Bielefeld ,

1844 ; 2^e éd . Leipzig , 1872) .

لذلك كانت في نظر بلاشير « الطريقة الوحيدة المنمرة حقاً »^(١) ، وكانت من قبله في نظر نولدكه نقطة الانطلاق في إجراء محاولة لترتيب القرآن فيها أخذ ، وعلى كثير من أسسها بنى دراسته .

وكان ويل Weil قد قسم المراحل القرآنية الى أربع : ثلاث في مكة ورابعة في المدينة ، فتابعه على ذلك نولدكه سنة ١٨٦٠ عندما ظهر كتابه عن « تاريخ القرآن »^(٢) للمرة الاولى ، مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة في محتويات كل مرحلة على حدة ، ثم تابعه مرة ثانية مع نظائر هذه التعديلات عندما شاركه شفالي Schwally في نشر الكتاب منقحاً مزيداً .

وقد تأثر بهذه الطريقة كل من بل^(٣) R. Bell وروديل Rodwell^(٤) الانجليزيين وبلاشير الفرنسي^(٥) ، وتظل ترجمة بلاشير للقرآن في نظرنا ادق الترجمات ، للروح العلمي الذي يسودها ، لا يقلل من قيمتها الا الترتيب الزمني للسور القرآنية بطريقة يعترف بلاشير نفسه بأنها لا

(١) انظر : Blach ., Intro . Cor.,251

(٢) وهو كتابه المشهور الذي كثيراً ما رجعنا اليه في مباحثنا هذه :

Geschichte des Qorans .

R. Bell, the Qur'ân . Traslated (٣)

With a critical re - arrangement of the Surahs

(Edinburgh , 1937 sq.).

A. Rodwell, the Korân, Translation with the Suras (٤)

arranged in chronological order, London 1861

Blachère , Le Coran , Traduction selon un essai (٥)

de reclassement des sourates , Paris 1949-51 .

تخلو من تحكم شخصي وآراء كيفية^(١) دعا إليها ما يعتقد من أن القرآن وحده نقطة الانطلاق في تعاقب المراحل الإسلامية ، وترتيب السور ، وتدرج التعاليم ، وأن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والأخبار التي يرويها الصحابة عنه لا يمكن أن تستقل وحدها بإيضاح شيء سكت عنه القرآن ، وإنما تكمل تكميلاً ثانوياً ما جاء في نص القرآن^(٢) .

أما نحن فلا نرتاب قط — بعد الذي عرضناه من تشدد علمائنا في استقصاء كل ما يتعلق بالمكي والمدني — في أن الرواية الصحيحة هي الطريق الوحيدة الى ترتيب القرآن أمثل ترتيب زمني وأصلحه وأدقه. والروايات في هذا المجال لم ترد إلا عن الصحابة الذين شاهدوا مكان الوحي وعرفوا زمانه ، أو التابعين الذين سمعوا وصف ذلك وتفصيله من الصحابة . أما رسول الله ﷺ فلم يرد عنه شيء من هذا القبيل ، لأنه عليه السلام — كما يقول القاضي أبو بكر^(٣) في « الانتصار » : « لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة »^(٤) . ولا ريب أن كثيراً من الصحابة كانوا على علم كامل بالمكي والمدني به استطاعوا

(١) انظر Blach . , Intro . Cor . , 254

(٢) Id . , ibid . , 253

(٣) هو القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني ، وقد سبقت ترجمته ص ١٠٩ حاشية ١

(٤) البرهان ١/١٩١ (وانظر الاتقان ١/١٤) .

أن يستقصوا تلك الجزئيات الدقيقة التي حفلت بها كتب التفسير بالمأثور والمؤلفات الكثيرة في علوم القرآن ، وقد أشرنا الى جملة صالحة منها على سبيل التمثيل والاستشهاد . وفي وسعنا أن نكون فكرة عن غزارة علم الصحابة في هذه الموضوعات من خلال قول ابن مسعود : « والذي لا اله غيره ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت »^(١) . وابن مسعود - مهما وصفنا من سعة علمه - ليس الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يقسم هذا القسم منفرداً به من بين سائر الصحابة ، لان فيهم بلا ريب من اتيح له أن يشهد ماشهد ، وربما رأى بعضهم اكثر مما رآه ابن مسعود ؛ بل نحن لانستبعد أن يكون بين مجاهيل الصحابة من يكمل برواية تحملها شيئاً فإت علماء الصحابة ومشاهيرهم .

والاعتماد على الرواية الصحيحة لا يتنافى مع إعمال الفكر والاجتهاد ، ولا سيما في الموضوعات التي لاتكون فيها الرواية نصاً صريحاً ، ولهذا الاجتهاد صور واشكال متنوعة في مبحث المكي والمدني . فقد يقع الاختلاف في مكية بعض السور أو مدنيها ، وفي استثناء آيات مكية من سورة مدنية أو آيات مدنية من سورة

(١) الانتقان ١٤/١ والحديث أخرجه البخاري . وأخرج ابو نعيم في « الحلية » عن ايوب انه قال : سألت رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل ، وأشار الى سلع .

مكية ، وفي ترتيب منازل بمكة أو المدينة ، وفي الخصائص الاسلوية
أو الموضوعية لكل من المكي والمدني ، ثم لا يُفصل في الاختلاف
إلا بضرب من الاجتهاد .

فاذا زعم النحاس^(١) أن سورة النساء مكية مستنداً الى أن قوله
تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها »^(٢) نزل بمكة اتفاقاً
في شأن مفتاح الكعبة ، تصدى له السيوطي يضعف رأيه قائلاً :
« وذلك مستند واهٍ ، لانه لا يلزم من نزول آية أو آيات من سورة
طويلة نزل معظمها بالمدينة أن تكون مكية ، خصوصاً أن الأرجح
أن ما نزل بعد الهجرة مدني . ومن راجع أسباب نزول آياتها عرف
الرد عليه . ومما يرد عليه ايضاً ما أخرجه البخاري عن عائشة
قالت : « ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده » ، ودخولها عليه
كان بعد الهجرة اتفاقاً »^(٣)

وإذا كان في كل من المكي والمدني آيات مستثناة ، فمن العلماء من

(١) هو ابو جعفر النحاس ، احمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادي من
أئمة العلم واللغة بمصر ، توفي سنة ٣٣٨ . له كتاب قيم في « الناسخ والمنسوخ »
(أنظر إنباه الرواة ١٠١/١) وكتابه المذكور طبع في القاهرة بطبعة السعادة ١٣٢٣
(٢) سورة النساء ٥٨ .

(٣) الاتقان ١٩/١ وقد عقد السيوطي في الاتقان فصلاً لتحريير السور
المختلف في مكيتها او مدنيها عالج فيه الاختلاف بضرب من الاجتهاد (أنظر
الاتقان ١٨/١ - ٢٣) .

اعتمد في استثناءها على الاجتهاد دون النقل^(١) . ولا يعارض هذا ماورد عن ابن عباس : « كانت اذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ، ثم يزيد الله فيها ماشاء » ، لان إلحاق المكي بالمديني أو المديني بالمكي يُعرف وجه الحكمة فيه حينئذ عن طريق الاجتهاد . مثاله سورة الاسراء فهي مكية ، إلا أنهم استثنوا منها « وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك »^(٢) فرجحوا أنها آية مدنية « نزلت في وفد ثقيف ، أتوا النبي ﷺ فسألوه شططاً وقالوا : متعباً لهتنا حتى نأخذ ما يهدى لها ، فاذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وحرّمنا وأدينا كما حرّمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم »^(٣) .

ويعين العلماء — تبعاً للروايات والاسانيد — السور المكية والسور المدنية^(٤) ثم يرتبونها حسب تعاقبها في النزول^(٥) ، واذا هم

(١) الاتقان ١/٢٣ .

(٢) الاسراء ٧٣ .

(٣) القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ٩/٢٩٩ .

(٤) وقد نظم الحسن بن الحصار في كتابه « الناسخ والمنسوخ » أبياتاً في ذلك يفهم منها أن العلماء اتفقوا على مدنية عشرين سورة هي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والانفال ، والتوبة ، والنور ، والاحزاب ، وسجد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقون ، والطلاق ، والتحریم ، والنصر . واختلفوا في اثنتي عشرة سورة تعددت فيها الروايات وهي : الفاتحة ، والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والتطيف ، والقدر ، ولم يكن ، واذا زلزلت ، والاحلاص ، والفلق ، =

يترددون في أول ما نزل وآخره ، ويصل بهم الامر الى الاختلاف في سورة الفاتحة التي يرتلها المسلمون في كل ركعة من ركعات الصلاة ، فيرى بعضهم أنها مكية وآخرون أنها مدنية^(١) ، ويؤثر فريق ثالث القول بنزولها مرتين^(٢) ، ثم يرجح بعضهم أنها أول ما نزل بمكة ، فهي إذن أول ما نزل على الاطلاق^(٣) ، ويرجح آخرون أن عدداً من السور كان أسبق منها في النزول ، ففي مثل هذه المواطن يتنافس العلماء في ايراد الحجج والبراهين ، وهي حجج إلى الاجتهاد أقرب منها إلى النقل ، فهذا عالم كالواحدي^(٤) يستبعد مثلاً أن يكون الرسول ﷺ خلال عشر سنوات بمكة يؤدي الصلاة من غير الفاتحة^(٥) ! والواحدي

= الناس . وما سوى ذلك فهو مكّي باتفاق (أنظر الاتقان ١٧/١ - ١٨) وقد اثبت السيوطي هنا الايات التي نظمها ابن الحصار) وعلى ذلك يكون عدد السور المكية اثنتين وثمانين سورة ، لأن تعداد القرآن كله مائة واربع عشرة سورة . (١) أنظر على سبيل المثال البرهان ١٩٣/١ - ١٩٤ والزركشي يرد الى القسم المدني اكثر السور المختلف فيها ، فيكون عدد السور المكية عنده خمساً وثمانين ، بينما تكون السور المدنية تسعاً وعشرين .

(٢) قول ابن عباس والضحاك ومقاتل وعطاء : انها مكية . وقال مجاهد :

مدنية (البرهان ١٩٤/١) .

(٣) راجع ص ٦١ .

(٤) أنظر الاتقان ١٨/١ وقارن بالبرهان ٢٠٧/١ .

(٥) سيقت ترجمته ص ٥٤ حاشية ٣ .

(٦) الواحدي ، اسباب النزول ص ١٣ .

— كما نعلم — لم يُقَمِّ دراسته « لاسباب النزول » في كتابه المشهور إلا على الروايات والأسانيد ، لكنَّ باب الاجتهاد والاستنباط مفتوح دائماً على مصراعيه حتى عند أصحاب النقل والنص !

والمستشرق بلاشير بدلاً من أن يرى في تفكير الواحد هنا محاولةً للاجتهاد والاستنباط ، يستشعر فيه ضرباً من استسلام اليأس الذي انقطع كل رجاء عنده في معالجة الموضوع ، فاعترف بجبهه ووجد السلامة في هذا الاعتراف !^(١) ... ولا نرى بلاشير في هذا إلا مغالياً ، فليس من شأن العلماء أن يقطعوا جازمين في أمر خطير كالذي يتعلق بترتيب الوحي القرآني ، وإنما حسبهم أن يحاولوا — كما صنع الواحد — ترجيح شيء على شيء ، والجهل لا يعالج دائماً بالقطعي من الامور ، فمجرد الترجيح كافٍ لتحصيل العلم والمعرفة . وليست غايتنا هنا الدفاع عن الواحد ، بل التنبيه على أن كثيراً من جزئيات المسي والمدني انتهى به العلم إلينا عن طريق الاجتهاد ، وأنَّ العقل كالنقل ، والقياس كالسمع ، في ثبوت العلم بالشيء . وقد لاحظ الجعبري^(٢) هذا حين قال : « لمعرفة المسي والمدني طريقان : سماعي وقياسي »^(٣) ، وعرف السماعي بأنه « ما وصل إلينا نزوله

(١) أنظر Blachère , Intro . Cor . , 263

(٢) سبقت ترجمته ص ٥٤ حاشية ٤ .

(٣) البرهان ١٨٩/١ والاتقان ٢٩/١ .

بأحدهما » ، ثم أنشأ يذكر أمثلة وشواهد على القياسي . وإذا قرنا أمثله بأمثلة العلماء الذين مارسوا القرآن وتذوقوا فنونه وأساليبه استنبطنا من مجموعها بآقيا سياً نستطيع به أن نميز السور المكية والمدنية ، وتعرف على طابع كل منها وخصائصه ؛ وسنرى أن هذا الضابط قلماً يتخاف عند التطبيق . فمن خصائص السور المكية تبعاً لهذا الضابط :

١ - أن كل سورة فيها سجدة فهي مكية ^(١) .

٢ - أن كل سورة فيها لفظ « كلا » فهي مكية . ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن ^(٢) .

(١) الاتقان ٢٩/١ وقد لاحظ المستشرق بيهل Buhl أن اسم الله « الرحمن » ليس له ذكر في السور المدنية ، فهو من خصائص القسم المكي . ويرد عليه سورة الرحمن على القول بأنها مدنية ، ولكن الجمهور على أنها مكية (الاتقان ٢٠/١) وانظر Encycl . de l'Islam , II , 1137 b . وأوضح من هذا في الرد عليه قوله تعالى (وإلهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) الآية ١٦٣ من سورة البقرة ، وهي مدنية بلا خلاف .

(٢) قال الديريني :

وما نزلت « كلا » بيثوب فاعلمن ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى ويعلل العثماني ذلك بقوله : « وحكمة ذلك أن نصفه الأخير نزل أكثره بكثرة ، وأكثرها جبابرة ، فتكررت على وجه التهديد والتعنيف لهم ، والانكار عليهم ، بخلاف النصف الأول . وما نزل منه في اليهود لم يحتاج إلى إيرادها فيه لذمهم وضعفهم » . أنظر الاتقان ٢٩/١ وقارن بالبرهان ٣٦٩/١ . والعثماني هو أبو الحسن علي بن سعيد العثماني المقرئ ، صاحب كتاب « المرشد » في الوقف عند تلاوة القرآن . وقد اختصره زكريا الانصاري في كتاب سماه « المقصد لتلخيص مافي المرشد » وطبع في القاهرة سنة ١٩٣٤ م .

٣ - كل سورة فيها « يا أيها الناس » وليس فيها « يا أيها الذين آمنوا » فهي مكية إلا سورة الحج في أواخرها : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا »^(١) مع أنها مكية .

٤ - كل سورة فيها قصص الانبياء والامم الغابرة فهي مكية سوى البقرة^(٢) .

٥ - كل سورة فيها قصة آدم وابلis فهي مكية سوى البقرة أيضاً^(٣) .

(١) سورة الحج ٧٧ ويقابل هذا بطبيعة الحال - أن كل سورة فيها « يا أيها الذين آمنوا » فهي مدنية (أنظر البرهان ١/١٨٩) . ولكن الزركشي يعلق على هذا الضابط بقوله : « وهذا القول ان أخذ على اطلاقه ففيه نظر ، فان سور البقرة مدنية ، وفيها « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » - الآية ٢١ - وفيها « يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالاً طيباً » - الآية ١٦٨ - وسورة النساء مدنية وفيها « يا أيها الناس اتقوا ربكم » - الآية ١ - وفيها « ان يشأ يذهبكم أيها الناس » - الآية ١٣٣ - وسورة الحج مكية وفيها « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا » - الآية ٧٧ - فان اراد المفسرون ان الغالب ذلك فهو صحيح « البرهان ١/١٩٠ » .

ونحن لانرى داعياً لان تكون هذه الامارات غالبية فقط ، فهي - اذا حفظ ما استثنى منها جانباً وهو لايزيد عما ذكره الزركشي - امارات قطعياً لا تتخلف .

(٢) الاتقان ١/٢٩ .

(٣) البرهان ١/١٨٩ .

- ٦ - كل سورة تفتح بحروف التهجى كالم والر ونحو ذلك
فهي مكية سوى الزهراوين وهما البقرة وآل عمران ، وفي سورة
الرعد خلاف ، فبعضهم يرى أنها مدنية لا مكية ^(١) .
وهذه الخصائص الست - إذا حفظ ما استثنى منها جانباً -
أمارات قطعية لا تتخلف . وهناك أمارات غالبية يرجح امتياز القسم
المكي بها . فما يكثر في السور المكية ويشيع :
- ١ - قصر الآيات والسور وإيجازها وحرارة تعبيرها وتجانسها الصوتي
 - ٢ - الدعوة الى أصول الايمان بالله واليوم الآخر وتصوير
الجنة والنار .
 - ٣ - الدعوة الى التمسك بالاخلاق الكريمة والاستقامة على الخير .
 - ٤ - مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم .
 - ٥ - كثرة القسم جرياً على أساليب العرب ^(٢) .
- وأما السور المدنية فن خصائصها القطعية :
- ١ - أن كل سورة فيها إذن بالجهاد أو ذكر له وبيان لأحكامه
فهي مدنية .

(١) البرهان ١/ ١٨٨ .

(٢) ولبروكلمان Brockelmann في دائرة المعارف الاسلامية آراء
طريفة حول هذه الامارات الغالبة اكثرها صحيح من ناحية الدراسة الاسلوبية
أنظر Encyclopédie de l'Islam (art . Arabie , 411 a)

٢ - أن كل سورة فيها تفاصيل الاحكام والحدود والفرائض
والحقوق الشخصية والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية فهي مدنية^(١)
٣ - أن كل سورة فيها ذكر المناقنين فهي مدنية ما عدا سورة
العنكبوت فانها مكية^(٢) ، إلا أن الآيات الاحدى عشرة الاولى
منها مدنية ، وفيها ذكر المناقنين .

٤ - مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم الى عدم الغلو في دينهم^(٣) .

ومن الامارات الغالبة^(٤) التي يرجح امتياز القسم المدني بها :

١ - طول أكثر سوره وبعض آياته وإطنابها وأسلوبها

التشريعي الهادى .

٢ - تفصيل البراهين والادلة على الحقائق الدينية .

وهذه الخصائص الموضوعية والاسلوبية ، سواء أكانت قطعية

أم أغلبية - تصور الخطى الحكيمة المتدرجة التي كان يخطوها الاسلام

في تشريعه : فخطاب أهل المدينة لا يمكن أن يكون مماثلاً لخطاب

أهل مكة ، لأن البيئة الجديدة في المدينة أصبحت تستدعي التفصيل في

(١) الاتقان ٢٩/١ .

(٢) البرهان ١٨٨/١ .

(٣) كما في سُوْر البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة .

(٤) وآراء بلاشير - في هذا الموضوع - لانتخو من طرافة لولا أنه

يرمي من ورائها الى غاية لاتتفق وروح الدعوة الاسلامية (أنظر :

(Blachère , Coran , Traduction , 2^e vol , 722 - 28)

التشريع وفي بناء المجتمع الجديد . فكان لا بد أن يلين القرآن بعد
الايجاز ، ويفصل بعد الاجمال . ويراعي حال المخاطبين في كل
آياته وسوره .

في مكة قوم طغاة معاندون ، يضطهدون رسول الله والمؤمنين ،
فناسب أن ينزل على الرسول في مكة مثل قوله تعالى « قد نعلمُ إنه
ليحزُنكَ الذي يقولون » ^(١) وقوله تعالى « ولقد كذبت رُسُلٌ من
قبلك » ^(٢) وقوله تعالى ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظَلَّوا فيه
يعرجون . لقالوا إنما سُكِرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » ^(٣)
وهكذا كثرَ في مكة نزول الآيات التي تقرع المشركين ، وتشد
في تستفيه أحلامهم ، وتسلِّي الرسول والمؤمنين وتعلمهم الساحة
والصفح الجميل . أما المدينة فكان فيها بعد الهجرة ثلاثة أصناف من
الناس : المؤمنون من مهاجرين وأنصار ، ثم المنافقون ، ثم اليهود .
فأما اليهود فجادهم القرآن ودعاهم إلى كلمة سواء ؛ وأما المنافقون
ففضحهم وكشف مساوئهم ، وأما المؤمنون فشجعهم -- من ناحية -- على
المضي في الصراط المستقيم وشرع لهم -- من ناحية ثانية -- ما يتعلق
بالسلم والحرب ، وبجياة الفرد والمجموع ، وبالسياسة والاقتصاد . هذه

(١) سورة الانعام ٣٣ .

(٢) سورة الانعام ٣٤ .

(٣) سورة الحجر ١٤-١٥ .

الزكاة مثلاً لا معنى لفرضها في مكة والقوم فقراء مضطهدون . وتلك صلاة الخوف التي لا تكون إلا في الحرب لا يمكن أن تشرع في مكة ، لأن المؤمنين لم يؤذن لهم بالقتال إلا في المدينة ، وقد خلت السور المكية خلواً تماماً من ذكر الجهاد وكل ما يتعلق بالحرب .

إن تنوع الموضوعات هو الباعث الأهم على تنوع الأسلوب القرآني ، فما هما بالأسلوبين المتعارضين اللذين لا تربط بينهما صلة ، وإنما هو أسلوب واحد يشتد أو يلين . ويفصل أو يُجْمَل تبعاً لحال المخاطبين . وهذا سرٌّ من أسرار الإعجاز التي يمتاز بها القرآن الكريم .

فواتح السور

من خصائص السور المكية - كما رأينا - حروف التهجي يفتح الله بها مواضع من كتابه . وأهمية هذه الفواتح تحملنا على دراستها في بحث خاص نحاول أن نصل فيه الى الحكمة من وجودها .

إن في القرآن صيغاً مختلفة من هذه الفواتح ، فمنها البسيط المؤلف من حرف واحد ، وذلك في سور ثلاث : صاد وقاف والقلم (س ٣٨ ، ٥٠ ، ٦٨) حيث تفتح الاولى بحرف ص ، والثانية بحرف ق ، والثالثة بحرف ن . ومن هذه الفواتح عشر مؤلفة من حرفين سبع منها متماثلة تسمى « الحواميم » لأن أوائل السور المفتحة بها هي « حم » ، وذلك إبتداء من سورة ٤٠ حتى ٤٦^(١) ، والسورة الثانية والأربعون منها خاصة مضموم إلى حم فيها (عسق) وتتمة العشر (طه) في السورة العشرين ، (طس) في السورة السابعة والعشرين ، (يس) في السورة الثامنة والثلاثين . أما الفواتح المؤلفة من ثلاثة أحرف فيجدها القاريء في ثلاث عشرة سورة ، ست منها على هذا التركيب (الم) وهي في السور ٢ ، ٣ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،^(٢)

(١) سورة عافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الاحقاف .

(٢) البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة .

وخمس منها بلفظ (الر) في مستهل كل من سور يونس وهود ويوسف
وابراهيم والحجر (س ١٠، ١١، ١٢، ١٤، ١٥) واثنان منها
تأليفها هكذا (طسم) في السورتين السادسة والعشرين والثامنة
والعشرين^(١). بقي أن ثمة سورتين مفتحتين بأربعة أحرف،
إحدهما سورة الاعراف التي في أولها (المص) والآخرى سورة
الرعد التي في مستهلها (المر). وتكون سورة مريم أخيراً السورة
الوحيدة المفتحة بخمسة حروف مقطعة (كبيعص).

يتضح من هذا العرض المفصل أن مجموعة الفواتح القرآنية تسع
وعشرون، وأنها على ثلاثة عشر شكلاً، وأن أكثر الأحرف
وروداً فيها الألف واللام، ثم الميم، ثم الحاء، ثم الراء، ثم السين، ثم
الطاء، ثم الصاد، ثم الهاء، والياء والعين والقاف، وأخيراً الكاف
والنون، وجميع هذه الحروف الواردة في الفواتح من غير تكرار
يساوي أربعة عشر، وهي نصف الحروف الهجائية، وبذلك
يستأنس المفسرون القائلون بأن فواتح السور إنما ذكرت في القرآن
لتدل على أن هذا الكتاب الكريم مؤلف من حروف التهجى المعروفة،
فجاء بعضها مقطوعاً منفرداً، وجاء تمامها مؤلفاً مجتمعاً، ليتبين للعرب أن
القرآن نزل بالحروف التي يعرفونها فيكون ذلك تقريباً لهم ودلالة

على عجزهم أن يأتوا بمثله^(١). وقد أسهب في بيان هذا الرأي من المفسرين الرزخشري^(٢)، وتبعه البيضاوي^(٣)، كما انتصر لذلك ابن تيمية^(٤) وتلميذه الحافظ المزي^(٥).

ولاحظ أصحاب هذا الرأي - وهم في أوج حماسهم لفكرتهم هذه - أن تحدي القرآن للعرب أن يأتوا بمثله يزداد وضوحاً، ويكتسب قوة بظاهرة غريبة حقاً نعجب لدراستهم لها والتفاتهم إليها. لم يكتف القرآن باشتماله على فواتح مختلفة يبلغ تعدادها تمام حروف الهجاء، ولا بتأليفه تلك الفواتح من نصف الحروف الهجائية، بل حوى فوق ذلك من كل جنس من الحروف نصفه، فمن حروف

(١) أنظر الكشاف ١٦/١.

(٢) سبقت ترجمته ص ٦٦ حاشية ٢.

(٣) هو الامام المفسر ناصر الدين ابوسعيد عبدالله بن عمر البيضاوي صاحب التفسير المشهور المتوفى سنة ٦٨٥ هـ. وسيرد ذكره في مبحث التفسير.

(٤) هو الامام المجدد تقي الدين احمد بن تيمية الحراني الدمشقي، صاحب التأليف الكثيرة المفيدة. توفي سنة ٧٢٨. وقد وضع المستشرق الفرنسي هنري لاوست كتاباً قيماً في سيرة ابن تيمية وعقائده الاجتماعية والسياسية

Henri Laoust, Essai sur les doctrines sociales et politiques d'Ibn Taimiya, le Caire 1939.

(٥) هو يوسف بن عبد الرحمن، ابو الحجاج، وهو مشهور بالمزي (بكسر الميم وتشديد الزاي المكسورة) نسبة الى المزة قرية بدمشق، توفي سنة ٧٤٢ بدار الحديث الاشرفية من دمشق (الرسالة المستطرفة ص ١٢٦). وفيما يتعلق بانتصار ابن تيمية والمزي لهذا الرأي انظر تفسير ابن كثير ٣٨/١.

الحلق^(١) الحاء والعين والهاء ، ومن المهموسة^(٢) السين والحاء والكاف والصاد والهاء ، ومن المجهورة الهمزة والميم واللام والعين والراء والطاء والقاف والياء والنون ، ومن الحرفين الشفهيين الميم ، ومن القلقله القاف والطاء . . . الخ^(٣) ، ثم إن هذه الحروف ذكرت تارة مفردة ، وتارة حرفين حرفين ، وطوراً ثلاثة ثلاثة ، وأحياناً أربعة وخمسة ، لان تراكيب الكلام على هذا النمط ولا زيادة على الخمسة .

وإذا كنا اليوم — بعقلية القرن العشرين — لا نرى في هذا الامر أكثر من مجرد مصادفة فما كان ليخطر على بال السلف الصالح الا أن الفواتح نظمت في القرآن على هذا النمط منذ الأزل ، لتحتوي على كل ما من شأنه إعجاز البشر عن الاتيان بمثل هذا الكتاب العزيز ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وإن الاعتقاد بأولية هذه الاحرف قد أحاطها بجو من التورع عن تفسيرها ، والتخوف من إبداء رأي صريح فيها ، فهي من المتشابه الذي لا يعلم تأويله الا الله ، وهي — كما قال الشعبي^(٤) — : سر

(١) أحرف الحلق ستة : الهمزة والعين والحاء والغين والحاء .

(٢) المهموسة عشرة يجمعها قولك : (فحشّه شخص سكت) والباقية بمجهورة .

(٣) وقد اطال الزمخشري في بيان ذلك (الكشاف ١/١٧) وانظر البرهان

. ١٦٥/١ - ١٦٦

(٤) سبقت ترجمته ص ٤٠ حاشية ١

هذا القرآن^(١) ». وفي هذا المعنى قول علي بن أبي طالب : « ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي » وقول أبي بكر الصديق : في كل كتاب سر ، وسره في القرآن أوائل السور » ونقل أهل الأثر عن ابن مسعود والخلفاء الراشدين « أن هذه الحروف علم مستور وسر محجوب استأثر الله به »^(٢) . حتى الذين خاضوا في معنى هذه الفواتح لم يدلوا فيها برأي قاطع ، بل شرحوا وجهة نظرهم فيها مفوضين تأويلها الحقيقي الى الله . وأزلية هذه الاحرف ما انفكت على سائر الاقوال .. تحيظها بالسرية ، وسريتها تحيظها بالتفسيرات الباطنية ، وتفسيراتها الباطنية تخضع عليها ثوباً من الغموض لا داعي اليه ، ولا معول عليه .

وأدخل تلك الآراء في معنى الغموض قول من عدّ هذه الحروف على حساب الجمل ليستنبط منها مدة بقاء الامة الاسلامية ، أو التنبيه على كرامة شخص أو شيعة معينة .

فها هو السبيلي^(٣) يقول : لعل عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر للإشارة الى بقاء هذه الامة . وهاهو الخويبي^(٤)

(١) الاتقان ١٣/٢ . (٢) أنظر تفسير المنار ٨/٣٠٢ .

(٣) سبقت ترجمته ص ١٩ حاشية ٢ (وانظر الاتقان ١٦/٢ .

(٤) كذا في الاتقان ١٦/٢ ولعله أن يكون (الخُوَيِّي) بضم الخاء وفتح

الواو وتشديد الياء ، وهو الفقيه المناظر أحمد بن خليل بن سعادة ، صاحب الامام فخر الدين الرازي . توفى سنة ٦٣٧ (شذرات الذهب ٥/١٨٣) .

يروى أن بعض الائمة استخرج من قوله تعالى (الم غلبت الروم) أن يت المقدس يفتحه المسامون في سنة ثلاث وثمانين وخمس ومائة ، ووقع كما قال ^(١) ويروي العز بن عبد السلام ^(٢) أن علياً رضى الله عنه استخرج واقعة معاوية من (حم عسق) ^(٣) . ورأى بعض الشيعة في مجموعة هذه الفواتح اذا حذف المكرر فيها ما يفيد أن (صراط عليّ حقّ تمسكه) فيرد عليهم بعض السنين الظرفاء بخطاب مستنبط من الفواتح نفسها بحروفها ذاتها غير المكررة (صحّ طريقك مع السنة) ^(٤) . وهذا النوع من الاستخراج الحسائي يعرف باسم (عدّ أبي جاد) وقد شدد العلماء في انكاره والزجر عنه . وابن حجر العسقلاني ^(٥) يعتبره « باطلاً لا يجوز الاعتماد عليه ، فقد ثبت عن ابن عباس رضى الله عنه الزجر عن عدّ أبي جاد ، والاشارة إلى أن ذلك من جملة السحر ؛ وليس ذلك ببعيد ، فانه لا أصل له في الشريعة » اهـ ^(٦) . ولا ريب أن للصوفية في مجال هذه التفسيرات الباطنية آراء أبعد

(١) الاتقان ١٦/٢ .

(٢) سبقت ترجمته ص ١٩ حاشية ٣ .

(٣) الاتقان ١٦/٢ .

(٤) أنظر تفسير الالوسي ١٠٤/١ .

(٥) ابن حجر العسقلاني هو احمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي ، شهاب الدين ابو الفضل ، من أئمة الحديث وحفاظه وهو عسقلاني الاصل منسوب الى آل حجر كثير التصانيف توفي سنة ٨٥٢ (أنظر الرسالة المستطرفة ص ١٢١ - ١٢٢) .

(٦) الاتقان ١٦/٢ .

شطحاً ، وأغرب لفظاً ، وأغمض معنى . ولا نرى أدل على ذلك من قول الشيخ محي الدين بن عربي (في الفتوحات المكية) ما خلاصته ^(١) : « اعلم أن مبادئ السور المجهولة لا يعلم حقيقتها إلا أهل الصور المعقولة ، فجعلها تبارك وتعالى تسعاً وعشرين سورة ، وهو كمال الصورة ، (والقمرَ قدرناه منازل) ، والتاسع والعشرون القطب الذي به قوام الفك ، وهو علة وجوده وهو سورة آل عمران (الم الله) ولولا ذلك ما ثبتت الثمانية والعشرون ، وجملتها — على تكرار الحروف — ثمانية وسبعون حرفاً ، فالثمانية حقيقة البضع ، قال صلى الله عليه وسلم « الايمان بضع وسبعون » ، وهذه الحروف ثمانية وسبعون ، فلا يكمل عبد أسرار الايمان حتى يعلم حقائق هذه الحروف في سورها ... الخ » . إلى أن يقول في موضع آخر :

« ثم جعل سبحانه وتعالى هذه الحروف على مراتب ، منها موصول ومنها مقطوع ، ومنها مفرد ومثنى ومجموع ، ثم نبه أن في كل وصل قطعاً ، وليس في كل قطع وصل ، فكل وصل يدل على فصل ، وليس كل فصل يدل على وصل ، والوصل والفصل في الجمع وغير الجمع ، والفصل وحده في عين الفرق ، فما أفرده من هذا فإشارة إلى فناء رسم العبد أولاً ، وما أثبتته فإشارة الى وجود رسم العبودية حالاً ،

(١) نقلاً عن تفسير الالوسي ١/١٠١ . وابن عربي هو محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الاندلسي ، ابو بكر ، الملقب بالشيخ الاكبر ، له نحواربعمائة كتاب -

وما جمعه فاشارة الى الأبد بالموارد التي لا تنتهى ، والافراد للبحر الازلي ، والجمع للبحر الابدي ، والمثنى للبرزخ المحمدي الانساني ، والألف فيما نحن فيه إشارة إلى التوحيد ، والميم اشارة إلى الملك الذي لا يبيد ، واللام بينهما واسطة ليكون بينهما رابطة ... الخ»^(١).
هذه الشطحات الصوفية تنبئ عن رأي أصحابها خاصة ، لأنها تعتمد على أذواقهم ومواجيدهم ، وتستمدسريتها من مصطلحاتهم وأسرارهم ، فلا يمكن إذن أن تعطي صورة صادقة عن التفسير الاسلامي المعتمد لفواتح السور .
وفي دائرة هذا اللبس والغموض قال قوم لا يستخدمون اصطلاحات المتصوفين ، ولا يدينون بعدد أي جاد ولا سواه من الحاسبين : إن هذه الفواتح حروف مقطعة كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى ، أو يكتفى به عن كلمة تؤلف مع سواها جملاً يتصل معناها بما بعدها أو يشير الى الغرض من السورة المفتحة بها .
من ذلك قول ابن عباس في (كبيعص) : الكاف من كريم ، والهاء من هاد ، والياء من حكيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق^(٢) ؛ وقوله في (الر) : أنا الله أرى^(٣) ، وفي (المآص) : أنا الله أفصل^(٤)

= اشهرها (الفتوحات المكية) توفي سنة ٦٣٨ (انظر فواتح الوفيات ٢/٢٤١) .

(١) عن تفسير الالوسي ١٠٢/١

(٢) الاتقان ١٣/٢

(٣) البرهان ١٧٤/١

(٤) أنظر تفسير الطبري ١٧٧/٤

ورأي من ذهب الى أن (طسم) تعني طور سيناء وموسى ، لأن السورتين اللتين تفتتحان بهذه الحروف تقصان خبر صاحب التوراة عليه السلام في طور سيناء ^(١) .

ولا يخفى على أحد ما في هذه الآراء كلها من التخرصات والظنون فقد قيل في كل مما ذكرنا أقوال مختلفة يذهب فيها الباحثون مذاهب شتى . روي عن ابن عباس نفسه في (كهيعص) : كاف هاد أمين عالم صادق ، وروي عنه : الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصور ، وروي عنه فيها أيضاً : كبير هاد أمين عزيز صادق ^(٢) . وقال سواه في هذه الفاتحة ذاتها أقوالاً تشبه أقواله المتعددة تارة ، وتخالفها في زيادة ونقص تارة أخرى . وحكى الكرمانى ^(٣) في (عجائبه) أن الضحاك يرى أن معنى (الر) : أنا الله

(١) وقد اخذ بهذا الاحتمال المستشرق بوير . أنظر :

Bauer , über die Amordnung der Suren und über die geheimnisvollen Buchstaben in Qoran. in (Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft) , LXXV , Leipzig . 1921 (p . 19) .

ومن ذلك ان بوير يرى ايضاً (ibid . , p.20) أن (حم) تعني جهنم ، لان الحاء تلتبس مع الجيم في الرسم العربي ! وهو اذ يورد هذه الاحتمالات يعترف بأنها مجرد تخرصات وظنون .

(٢) أنظر هذه الاقوال المختلفة في (الاتقان ١٤/٢) وتعقيب المستشرق

شغالي عليها في II , 71 , Geschichte des Qorans ,

(٣) هو ابو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى الشافعي ، ويلقب تاج القراء . توفي بعد سنة ٥٠٠ هـ (أنظر ترجمته في بغية الوعاة ص ١١٣)

أعلم وأرفع^(١) ، على حين يضم إليها ابن عباس حمّ و نّ فتصير في رأيه حروف (الرحمن) مفرقة على سور مختلفة^(٢) . أما (المصّ) فتارة يروى أنّ معناها : أنا الله الصادق ، وتارة تدل على اسم الله (المصور) ، وأحياناً توميء إلى ثلاثة أسماء لله مختلفة ، فالالف من الله ، والميم من الرحمن ، والصاد من الصمد^(٣) . وأغرب من هذا كله أنّ مستشرقاً كبيراً كسبرنجر (Sprenger) اقترح حين لم يشف غليله ما قيل في (طسم) أن يعكس هذه الصيغة ويرى فيها الاحرف البارزة الغالبة في قوله تعالى (لا يمسّه إلا المطهرون) فالطاء هي الحرف البارز في (المطهرون) والسين والميم أقوى ما في (يمسّه) . ويذكر المستشرق بلاشير في كتابه (المدخل إلى دراسة القرآن) أنّ المستشرق لوث Loth على حذره قد تابع اسبرنجر على رأيه العقيم^(٤) .

ومن المؤكد أن مثل هذه التخرصات في تفسير أوائل السور لا تنتهي ولا تقف عند حد ، وما هي إلا تأويلات شخصية مردها هوى كل مفسر وميله . فلماذا تكون القاف مثلاً الحرف الاول من

(١) الاتقان ١٣/٢

(٢) تفسير الطبري ٥٧/١١ (وانظر الاتقان ١٣/٢)

(٣) أنظر هذه الاقوال في الاتقان ١٤/٢

(٤) أنظر Loth (O.) , Tabari's Korans commentar , in (Zeitschrift der Deutschen ... etc .) XXXV , p. 609 (cf. Blach., Intro , Cor . , p. 148 , note 200) .

اسم الله القاهر ، لا من اسمه القُدّوس أو القدير أو القوي ؟ ولماذا تدل العين على العليم لا على العزيز ، والنون على النور لا على الناصر ، والصاد على الصادق لا على الصمد ؟ ومن أين لنا أن (الم) هي الاحرف البارزة في (الرحمن) لا في (الرحيم) ولا في قولهم المشهور (اللهم) ^(١) ؟ .

وقال قوم — من غير أن يلجأوا في الفواتح إلى أخذ كل حرف منها من اسم من أسماء الله — إنها برمتها وعلى اختلاف صيغها اسم الله الأعظم ^(٢) ، عبّر عنه تعبيرات مختلفة تباين ما عهدناه في تأليف كلامنا ، وقد نقل هذا الرأي ابن عطية ^(٣) . وقريب من هذا الاتجاه الرأي القائل بأن أوائل السور قسم أقسم الله فيه بنفسه ^(٤) ، لأن كل فاتحة

(١) ومثل هذا الاستغراب بيديه القاضي الباقلاني من نظائر هذه التأويلات الشخصية التحكيمية (أنظر تفسير الرازي ١٧٧/٤) . وكيف لا نستغرب — مع القاضي الباقلاني — ما قيل من أن (طه) مثلاً معناه (يا بدر) لان الطاء بتسعة ، والهاء بخمسة ، فذلك أربعة عشر اشارة الى البدر لانه يتم فيها (الاتقان ١٨/٢) ؟!

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦/١ (وانظر الاتقان ١٥/٢)

(٣) كما في الاتقان ١٥٢/٢ وابن عطية هو الامام عبد الحق بن غالب بن عبد الرؤوف . وله تفسير يسمى (الحرر الوجيز) منه مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٨ تفسير . وقد توفي ابن عطية بمدينة لورقة سنة ٥٤٦ .

(٤) الاتقان ١٥/٢

منها اسم من أسماء الله . ولا يبعد عن هذا التأويل اعتبار هذه الحروف أسماءً عاميةً للقرآن بوجه عام ، أو لبعض سور القرآن المفتحة بها بوجه خاص ^(١) .

لكن أغرب ما في الباب ، وأبعده عن الحق والصواب ، ما ذهب إليه المستشرق الألماني نولدكه (Noldeke) في رأيه الأول الذي عدل عنه فيما بعد من الحكم بأن أوائل السور دخيلة على نص القرآن : ففي الطبعة الأولى لكتابه عن تاريخ القرآن بالاشتراك مع شفالي (Schwally) تظهر — لأول مرة في تاريخ الدراسات القرآنية — نظرية لا ترى في أوائل السور إلا حروفاً أولى أو أخيرة مأخوذة من أسماء بعض الصحابة الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة . فالسين من سعد بن أبي وقاص ، والميم من المغيرة ، والنون من عثمان ابن عفان ، والهاء من أبي هريرة وهكذا ^(٢) . ومع أن نولدكه شعر بخطأ نظريته فرجع عنها ، ومع أن شفالي أهملها وأغفل ذكرها فيما بعد في الطبعة الثانية ، فإن المستشرقين بُهْل ^(٣) وهرشفيلد ^(٤) Hirschfeld

(١) أنظر تفسير الطبري ٦٧/١ وتفسير ابن كثير ٣٦/١

(٢) Geschichte des Qorans , 1^{re} éd . , p . 215

(٣) Cf . Blach . , Intro . Cor . , p . 148

(٤) Hirschfeld, New Researches into the composition and

Exegesis of the Qoran . in (Asiatic Monographs , t. III; London 1902 (p . 142) .

قد تحمسا لها من جديد وتبنيهاها ، غافلين عن مدى بعدها عن المنطق السليم . وحسبنا أن المستشرق بلاشير يظهر تهاافت هذه النظرية بما لا يدع مجالاً لتقبلها واحترامها . فهو يستبعد مع لوت Lotti ومع Bauer من بعده أن يُدخل المؤمنون الذين ذُكرت أسماءهم آنفاً — وهم من هم ورعاً وتقياً — عناصر غير قرآنية في الكتاب المنزل الذي لا يزيد عنه ما ليس منه الا ضعيف الايمان ، قليل اليقين . ويرى بلاشير فوق ذلك : « أنه ليس من المعقول بحال من الاحوال أن يحتفظ أصحاب المصاحف المختلفة في نسخهم ذاتها بالحروف الاولى من أسماء معاصريهم ، إن علموا أنه لا يقصد بها إلا ذلك . ويضاف الى هذه الملاحظة القيمة أننا لا نكاد نجد مبرراً لحرص أبي عليّ أو ابن مسعود على أن يحتفظوا في مصاحفهم بالحروف الاولى من أسماء أشخاص كانوا ينافسونهم في استنساخ القرآن وجمعه » (١) .

وينتهي الاستاذ بلاشير إلى ضرورة الرجوع إلى النظرية الاسلامية نفسها ، باستخراج مختلف الآراء وتمحيصها ومقابلة بعضها ببعض . على أنه تعمد إغفال بعض الاقوال التي لا تزيد في نظره عن لغو وعبث ، وأعلن بوضوح « أن المسلمين الاتقياء الذين كانوا يرون من العبث كل محاولة لاختراق أسرار هذه الفواتح القرآنية ، أثبتوا

بما لا يدع مجالاً للشك أنهم وخدمهم العقلاء الحكماء»^(١).
وعندي أن ثمة قوماً لا يقلون عن هؤلاء تعقلاً وحكمة، قوماً
أحبوا أن يدخلوا البيوت من أبوابها وأن يكونوا أصرح رأياً
وأوضح تفسيراً في بيان الغرض من أوائل السور: وقد مرت فكرتهم
بأطوار ثلاثة حتى استحالت رأياً نضيجاً عميقاً.

لاحظوا أن بعض السور القرآنية تفتح بهذه الحروف كما تفتح
القصائد بلا وبل فلم يزيدوا في بادئ الأمر عن أن يسموا هذه
الحروف فواتح، وأن يعتبروها — في الواقع ونفس الأمر — مجرد
فواتح وضعها الله لقرآنه — وله أن يضع ما يشاء — كما وضع
العرب فواتح لقصائدهم. وقد قال بهذا مجاهد من كبار التابعين^(٢).
وانتقلت هذه الفكرة إلى مجال أوضح وأوسع حين أصبحت هذه
الفواتح في نظر بعضهم تنبيهات أو أدوات تنبيه «لم تستعمل
فيها الكلمات المشهورة كالألا وأما الاستفتاحيتين لأنها من الألفاظ
التي يتعارفها الناس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبه الكلام، فناسب
أن يؤتى فيه بالفاظ تنبيه لم تُعهد لتكون أبلغ في قرع السمع»^(٣).

Id . , ibid . , 149 (١)

(٢) الاتقان ١٥/٢

(٣) الاتقان ١٧/٢

والخويبي^(١) الذي يقرر هذا المعنى يجعل التنبيه للنبي الذي يجوز « أن يكون الله قد علم في بعض الاوقات كونه صلى الله عليه وسلم في عالم البشر مشغولاً ، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله الم والروح لم يسمع النبي صوت جبريل ، فيقبل عليه ويصغي اليه »^(٢) .

لكن الامام السيد رشيد رضا صاحب تفسير المنار المشهور يستبعد جعل التنبيه للنبي لانه عليه السلام « كان يتدبَّه وتغلب الروحانية على طبعه الشريف بمجرد نزول الروح الأمين عليه ودنوه منه ، كما يعلم مما ورد في نزول الوحي من الاحاديث الصحيحة ، ولا يظهر فيه وجه تخصيص بعض السور بالتنبيه »^(٣) . ويرى السيد رشيد بعد ذلك « أن التنبيه إنما كان أولاً وبالذات للمشر كين في مكة ثم لاهل الكتاب في المدينة » . ولم يكن باديء الامر أن له سلفاً في هذا التأويل ، ثم وجدته في القول الثاني عشر من التفسير الكبير للامام الرازي الذي ينقل عن ابن روق^(٤) وقطرب^(٥) « أن الكفار لما قالوا:

(١) كذا في الاتقان ١٧/٢ . وفي تفسير المنار (٣٠٢/٨) نقلاً من (شرح الاحياء) أن قائل هذا هو الحرابي . وقد سبق ان ذكرنا احتمال كونه (الخويبي) والتصحيح في مثل هذا كثير .

(٢) الاتقان ١٧/٢

(٣) تفسير المنار ٣٠٣/٨

(٤) هو محمد بن الحسن بن عبد الله بن روق الراسبي الروقي المحدث . توفي سنة ١٦٨ .

(٥) قطرب هو محمد بن المستنير ، من علماء اللغة المشهورين . كان على

مذهب اهل البصرة ، توفي سنة ٢٠٦ .

« لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » وتواصوا بالاعراض عنه أراد الله تعالى لما أحب من صلاحهم ونفعهم أن يورد عليهم ما لا يعرفونه ليكون سبباً لا سكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن فأنزل الله عليهم هذه الحروف ، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين : اسمعوا إلى ما يحيي به محمد ، فاذا أصغوا هجم عليهم القرآن ، فكان ذلك سبباً لا سماعهم وطريقاً إلى انتفاعهم ^(١) وقد أشار إلى هذا المعنى إشارة عابرة الزركشي في البرهان ^(٢) والسيوطي في الاتقان ^(٣) وكل من ابن جرير ^(٤) وابن كثير ^(٥) في تفسيريهما ويبقى السيد رشيد رضا في نظرنا خير من أوضح الغرض من افتتاح بعض السور القرآنية بهذه الحروف المقطعة. ونحن لذلك نقول معه مستعيرين عباراته بنصها : « من حسن البيان وبلاغة التعبير ، التي غايتها إفهام المراد مع الاقتناع والتأثير ، أن ينبه المتكلم المخاطب إلى مبهات كلامه والمقاصد الأولى بها ، ويحرص على أن يحيط علمه بما يريده هو منها ، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها ، ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها لكيلا يفوته شيء منها . وقد جعلت

(١) تفسير المنار ٣٠٢/٨

(٢) البرهان ١/١٧٥

(٣) الاتقان ٢/١٧

(٤) تفسير الطبري ١/٦٩

(٥) تفسير ابن كثير ١/٣٧

العرب منه هاء التنيه وأداة الاستفتاح ، فأى غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حد الإعجاز في البلاغة وحسن البيان ، ويجب أن يكون الامام المقتدى ، كما أنه هو الامام في الاصلاح والهدى؛ ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من رفع الصوت وتكليفه بما تقتضيه الحال من صيحة التخويف والزجر ، أو غنة الاسترحام والعطف ، أو رنة النعي وإثارة الحزن ، أو نغمة التشويق والشجو ، أو هيعة الاستصراخ عند الفزع ، أو صخب التهويش وقت الجدل . ومنه الاستعانة بالإشارات وتصوير المعاني بالحركات ، ومنه كتابه بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة أو وضع خط فوقها أو تحتها الخ ^(١) .

وإن انطباق هذه الحكمة على الواقع النفسي لمن كان القرآن موجهاً اليهم حين نزول الوحي ، لا يزيدنا إلا استمساكاً بهذا الرأي . ولأمر ما افتتحت جميع السور التي في أولها حروف مقطعة بذكر الكتاب أو معان تتعلق بالوحي والنبوة ^(٢) . ومن المعلوم

(٩) تفسير المنار ٢٩٩/٨

(١) وهذا ينطبق حتى على سور مريم ، والعنكبوت ، والروم ، ون ، لأنها - وان لم تفتتح بذكر الكتاب - قد اشتملت على معان تتعلق بأثبات الوحي والنبوة . وانظر تفصيل ذلك في تفسير المنار ٢٩٦/٨ - ٢٩٨ .
وقد نبه الى ذلك الامام الزركشي في (البرهان ١/١٧٠) فقال : « واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف ان يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن =

أن هذه السور كلها مكية إلا البقرة وآل عمران . فأما المكية فلدعوة المشركين إلى إثبات النبوة والوحي ، وأما الزهراوات المدينتان فلمجادلة أهل الكتاب والتي هي أحسن ^(١) . وكانت تلك الفواتح كفيلة بتنبيه هؤلاء وأولئك الى ما كان يلقي عليهم حتى لا يفوتهم شيء .

وما تنفك هذه الفواتح من عوامل الاستغراب ، ولا يخاق الاستغراب إلا الاهتمام ، ولا يثير الاهتمام إلا التنبيه ، ولن ينبه الناس ويقرع أسماعهم صوت أحلى وقعاً من هذه الحروف المقطعة الأزلية التي همستها السماء في اذن الارض !

= كقوله : (الم ذلك الكتاب) - سورة البقرة ٢١٠ - وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم ، فيسأل عن ذلك .

(١) ويزداد هذا الرأي وضوحاً اذا سلمنا بأن الزهراوين كانتا من اوائل السور نزولاً في المدينة كما هو المشهور . وبنزولها مفتتحتين بهذه الحروف المقطعة تمت الحكمة الالهية من تنبيه اليهود الى الدعوة الجديدة واثارة اهتمامهم بها ، فلم يعد في استمرار الافتتاح بتلك الحروف بعد الزهراوين حكمة ظاهرة باهرة ؛ ولذلك نزل الوحي بعدها خالياً من تلك الفواتح . فلا ضرورة للتسليم بصحة الاعتراض الذي وجهه ابن كثير في تفسيره (١/٣٧-٣٨) الى هذا القول بسبب مدنية البقرة وآل عمران وكونها ليستا خطاباً للمشركين : لان الحكمة من تخصيص الزهراوين بهذه الفواتح تكون - على ما بيناه - بالغة دامغة .

المحكم و المتشابه في القرآن

نستطيع أن نقول : إن القرآن كله محكم ، إن أردنا باحكامه اتقانه وجمال نظمه بحيث لا يتطرق إليه الضعف في ألفاظه ومعانيه ، وبهذا المعنى أنزل الله قوله الكريم « كتاب أحسنت آياته »^(١) ، كما نستطيع أن نقول : إن القرآن كله متشابه ، إن أردنا بتشابهه تماثل آياته في البلاغة والاعجاز ، وصعوبة المفاضلة بين أجزائه ، وبهذا المعنى أنزل الله قوله الحكيم « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني »^(٢) فالإحكام والتشابه في كل من الآيتين السابقتين ليسا مثاراً بحثنا عن محكم القرآن ومتشابهه ، إنما يثير بحثنا هذا الآية السابعة في سورة آل عمران ، حيث يقول الله تعالى « هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آياتٌ محكمات هنّ أمّ الكتاب ، وأُخْرَ متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله ، وما يعلمُ تأويله الا الله ، والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كلُّ من عند ربنا ، وما يذكرُ الا أولو الألباب »^(٣) .

(١) سورة هود ١

(٢) سورة الزمر ٢٣

(٣) سورة آل عمران ٧

من الواضح في هذه الآية أن المحكم يقابل المتشابه ، كما أن الراسخين في العلم يقابلون الذين في قلوبهم زيغ ، وقد حمل هذا التقابل العلماء على تعريف كل من المحكم والمتشابه ، فكثرت آراؤهم في هذا الموضوع وتعددت وجهات نظرهم^(١) ، ولكن آراءهم تؤول في النهاية الى أن المحكم هو الذي يدل على معناه بوضوح لاخفاء فيه ، والمتشابه هو الذي يخلو من الدلالة الراجعة الواضحة على معناه . فيدخل في المحكم النص والظاهر . أما النص فلأنه اللفظ الذي وضع للمعنى لايحتمل غيره ، وأما الظاهر فلأنه اللفظ الذي وضع للمعنى الراجع المتبادر . ويدخل في المتشابه المجمل والمؤول والمشكل ، لأن المجمل يحتاج الى تفصيل ، والمؤول لايدل على معنى إلا بعد التأويل ، والمشكل خفي الدلالة فيه أبس وإبهام^(٢) .

ووضوح الدلالة في المحكم يغنينا عن البحث عنه ، لأن مجرد قراءتنا له كافية لفهامنا المراد منه ، ولكن خفاء المتشابه جدير أن يشغلنا بعض الشيء ، لكي نعرفه ثم نجتنبه فلا تتبعه كالذين في قلوبهم زيغ .

إن أكثر العلماء يذهبون إلى أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، ويوجبون في الآية الوقف على اسم الجلالة ، أما الراسخون في العلم فقد

(١) الاتقان ٢/٢-٣

(٢) الاتقان ٥/٢

انتهى علمهم بتأويل القرآن الى أن قالوا : آمننا به كل من عند ربنا .
لكنَّ أبا الحسن الأشعري^(١) كان يرى أنَّ الوقوف في الآية
على قوله تعالى (والراسخون في العلم) فهم على ذلك يعلمون تأويل
المتشابه . وقد أوضح هذا الرأي أبو اسحاق الشيرازي^(٢) وانتصر له
فقال : « ليس في القرآن شيء استأثر الله تعالى بعلمه ، بل وقف
العلماء عليه ، لأنَّ الله تعالى أورد هذا مدحاً للعلماء ، فلو كانوا
لا يعرفون معناه لشاركوا العامة » . وتوسط الراغب الاصفهاني
فقسم المتشابه من حيث إمكان الوقوف على معناه إلى ثلاثة أضرب :
« ضرب لا سبيل الى الوقوف عليه ، كوقت الساعة وخروج الدابة
ونحو ذلك ، وضرب للانسان سبيل الى معرفته كالألفاظ الغريبة
والأحكام المغلقة ، وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض
الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم . وهو المشار اليه بقوله صلى
الله عليه وسلم لابن عباس : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل »^(٣) .
ولا ريب أنَّ في رأي الراغب قصداً واعتدالاً ، فذات الله
وحقائق صفاته لا يعلمها الا الله ، وفي هذا المعنى يقول عليه السلام

(١) سبقت ترجمته ص ٩ حاشية ٣

(٢) أبو اسحاق الشيرازي هو ابراهيم بن علي بن يوسف . اشتهر بقوة الحجج
في المناظرة . له تصانيف كثيرة اهمها (التبصرة) في اصول الفقه . توفي سنة
٤٧٦ (أنظر طبقات السبكي ٨٨/٣)

(٣) الاتقان ٢ / ٧ - ٨ . والراغب الاصفهاني هو الحسين بن محمد بن الفضل ،
ابو القاسم . اديب كبير . أهم كتبه (مفردات القرآن) توفي سنة ٥٠٢

في دعائه « أنت كما أثبتت على نفسك ، لا أحصي ثناء عليك »
والعلم بالغيب مما استأثر الله به ، مصداقاً للآية الكريمة « ان الله
عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري
نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن
الله عليم خبير »^(١) . ولقد رأينا في بحث فواتح السور كيف
أحيطت هذه الحروف بجو من التورع عن تأويل حقائقها ، وعرفنا
أن آراء العلماء فيها إنما كانت تدور حول حكمة وجودها لاحول
كنه حقيقتها ، ففي خفاء هذه الأمور وعجز الانسان عن الوصول
اليها ما يقلل من غروره ويخفض من كبريائه ، ويحمله على أن يقول :
« سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم »^(٢) .

والآيات المشككة الواردة في صفات الله تعالى ، كقوله
« الرحمن على العرش استوى » هي أهم ما يتعلق بهذا الضرب من
المتشابه الذي لاسبيل لأحد من البشر إلى الوقوف عليه . وقد أفردها
ابن اللبان بكتاب سماه « رد المتشابهات الى الآيات المحكمات »^(٣) . وذكر
الرازي الحكمة من متشابه الصفات فقال : « إن القرآن يشتمل على
دعوة الخواص والعوام ؛ وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمور عن

(١) سورة لقمان ٣٤

(٢) سورة البقرة ٣٢

(٣) الاتقان ٨/٢ وابن اللبان هو محمد بن احمد بن عبد المؤمن الاسعدي ،

شمس الدين . مفسر من اهل دمشق . له تفسير مخطوط (الاعلام ٣/٨٥٣)

إدراك الحقائق ، فمن سمع من العوام في أول الامر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ، ظن أن هذا عدم ونفي محض ، فيقع في التعطيل ، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه ، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح . فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الامر من باب المتشابه ، والقسم الثاني وهو الذي يكشف عن الحق الصريح هو المحكم . ا هـ .^(١)

وللعلماء في متشابه الصفات مذهبان :

الأول : مذهب السلف ، وهو الإيمان بهذه المتشابهات وتفويض معرفتها إلى الله تعالى . سئل الإمام مالك^(٢) عن الاستواء فقال : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، وأظنك رجل سوء ، أخرجوه عني . »^(٣)

والثاني : مذهب الخلف ، وهو حمل اللفظ الذي يستحيل ظاهره

(١) الزرقاني ، مناهل ١٧٩/٢

(٢) سبقت ترجمته ص ١٢٠ حاشية ١

(٣) الاتقان ٨/٢ وقد أخرج الدارمي عن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال

له ابن صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل ، فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله بن صبيغ . فأخذ عمر عرجوناً فضربه حتى دمي رأسه . وفي رواية أنه كتب إلى أبي موسى

الأشعري : ألا يجالسه أحد من المسلمين . الاتقان ٥/٢

على معنى يليق بذات الله . وينسب هذا المذهب إلى إمام الحرمين^(١) ،
وجماعة من المتأخرين .

ولتوضيح المذهبين نذكر بعض الآيات القرآنية الواردة في متشابه
الصفات . فمن ذلك « الرحمنُّ على العرش استوى »^(٢) و « وجاء ربك
والمَلِكُ صَفَاً صَفَاً »^(٣) « وهو القاهر فوق عباده »^(٤) « يا حسرتا على
ما فرطت في جنب الله^(٥) » ، « ويبقى وجه ربك^(٦) » « ولتُصنَعِ
على عيني^(٧) » ، « يد الله فوق أيديهم »^(٨) « ويحذركم الله نفسه^(٩) » .

فالسلف ينزهون الله عن هذه الظواهر المستحيلة عليه ، ويؤمنون
بها بالغيب كما ذكرها الله ، ويفوضون علم حقائقها إليه ، وأما الخلف

(١) امام الحرمين هو عبد الملك بن أبي عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني
الشافعي العراقي ، ابو المعالي ، كان شيخ الإمام الغزالي ومن أعلم أصحاب
الشافعي . توفي سنة ٤٧٨ هـ (أنظر ترجمته في وفيات الاعيان ١/٢٨٧) .

(٢) سورة طه ٥

(٣) سورة الفجر ٢٢

(٤) سورة الانعام ٦١

(٥) سورة الزمر ٥٦

(٦) سورة الرحمن ٢٧

(٧) سورة طه ٣٩

(٨) سورة الفتح ١٠

(٩) سورة آل عمران ٢٨

فيحملون الاستواء على العلو المعنوي بالتدبير من غير معاناة^(١)، ومجيء
الله على مجيء أمره^(٢) وفوقيته على العلو لافي جهة^(٣)، وجنبه على حقه^(٤)
ووجهه على ذاته^(٥)، وعينه على عنايته^(٦)، ويده على قدرته^(٧)، ونفسه
على عقوبته^(٨). وهكذا يؤول الخلف - على هذا المنوال - جميع
ما ورد من رضا الله ووجهه وغضبه وسخطه وحيائه بحملها على أقرب
مجاز، ويقولون: لا يراد من هذه الالفاظ إلا لازمها^(٩).

وقد فهم ابن اللبان في كتابه (رد الآيات المتشابهات) الحكمة
من ورود هذه الآيات فقال: « من المعلوم أن أفعال العباد لا بد فيها

(١) إلى هذا تؤول أكثر تفسيرات الخلف للاستواء، وانظر هذه الاقوال

المختلفة في (الاتقان ٩/٢ - ١٠ - والبرهان ٨٠/٢ - ٨٢)

(٢) البرهان ٨٣/٢ وقد حكى ابن الجوزي عن القاضي أبي يعلى تأويل

احمد في قوله تعالى: «أو يأتي ربك» - سورة الانعام ١٥٨ - قال:

وهل هو الا أمره؟! بدليل قوله: «أو يأتي أمر ربك» - سورة النحل

٣٣ - (أنظر البرهان ٧٩/٢)

(٣) الاتقان ١٢/٢

(٤) الاتقان ١٢/٢ ايضاً

(٥) البرهان ٨٦/٢

(٦) الاتقان ١١/٢

(٧) الاتقان ١١/٢ ايضاً

(٨) البرهان ٨٣/٢

(٩) الاتقان ١٢/٢

من توسط الجوارح مع أنها منسوبة إليه تعالى، وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين، مظهر عبادي منسوب لعباده وهو الصور والجوارح الجسمانية، ومظهر حقيقي منسوب إليه، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لفهامهم، والتأنيس لقلوبهم، ولقد نبه في كتابه على القسمين وأنه منزه عن الجوارح في الحالين، فنبه على الأول بقوله «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم» فهذا يفهم أن كل ما يظهر على أيدي العباد فهو منسوب إليه تعالى، ونبه على الثاني بقوله فيما أخبر عنه نبيه ﷺ في صحيح مسلم «ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» الخ... الحديث، وقد حقق الله ذلك لنبيه بقوله «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله» وبقوله «وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى» اهـ^(١).

ولعل اشتغال القرآن على المتشابه وعدم اقتصاره على المحكم وحده، أن يكون حافزاً للمؤمنين على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تقدرهم على فهم الآيات المتشابهات فيتخلصون من ظلمة التقليد، ويقرأون القرآن متدبرين خاشعين^(٢).

(١) الزرقاني، مناهل ١٩٣/٢ - ١٩٤

(٢) البرهان ٧٥/٢

منطوق القرآن ومفهومه

« القرآن يفسر بعضه بعضاً »^(١).

يردد المفسرون هذه العبارة كلما وجدوا أنفسهم أمام آية قرآنية تزداد دلالتها وضوحاً بمقارنتها بآية أخرى . وان لهم أن ينهجوا في تأويل القرآن هذا المنهج ، لأن دلالة القرآن تمتاز بالدقة والإحاطة والشمول ، فقلما نجد فيه عاماً أو مطلقاً أو مجملاً ينبغي أن يخصص أو يُقيد أو يفصل إلا تم له في موضع آخر ما ينبغي له من تخصيص أو تقييد أو تفصيل . ولقد كانت هذه الدلالة القرآنية الشاملة جديرة أن توحى إلى العلماء وضع مصطلحات خاصة يرمز بكل منها إلى السمة البارزة في كل فكرة يدعو إليها القرآن ، وفي كل مشهد يصوره ؛ ومن هنا وجد في الدراسات الإسلامية ما يسمى بمنطوق القرآن ومفهومه ، وعامه وخاصه ، ومطلقه ومقيده ، ومجمله ومفصله ، وعرفت هذه المصطلحات وأمثالها واستعرضت الشواهد الكثيرة الدالة عليها ، وتباينت مناهج العلماء في دراستها ، فمنهم من يبحثها على أساس تشريعي

(١) البرهان ١٧٥/٣ مسألة في أن أحسن طرق التفسير أن يفسر

القرآن بالقرآن .

وهم الاصوليون ، ومنهم من يبحثها على أساس منطقي وهم المتكلمون ، وآخرون — ونحن في بحثنا هذا منهم — يؤثرون أن ينظروا إلى هذه المصطلحات من خلال الزاوية اللغوية والادبية ، ليتبعوا بلذة وشغف طريقة القرآن في الأداء والتعبير .

وأول ما ينبغي معرفته من هذه المصطلحات منطوق القرآن ومفهومه ، لأنها يفصلان أنواع الدلالة القرآنية المستفادة من اللفظ أو المستنبطة من المعنى ، فيشملان النص والظاهر والمؤول ، وفحوى الخطاب ولحنه ، ومعاني الوصف والشرط والحصر . وسنزيد هذه المسألة ايضاحاً بنماذج مختلفة نجمعها مما تفرق في ثنايا كتاب الله الحكيم . قالوا في تعريف المنطوق : « انه ما دل عليه اللفظ في محل النطق ^(١) » فلاحظوا في تعريفه ان مجرد التلفظ بالآية هو منفذنا الى دلالتها . وذلك واضح جداً في « النص » الذي لا يحتمل اللفظ غيره ، كدلالة قوله تعالى « فصيامُ ثلاثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة » ^(٢) فلا يمكن ان يحتمل اللفظ غير كمال الأيام العشرة التي نطقت بها الآية ونصت عليها . وحتى ما يسمى « بالظاهر » الذي يفيد معنى متبادراً مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً ، هو نوع من المنطوق ،

(١) الاتقان ٥٢/٢

(٢) سورة البقرة ١٩٦

لأن دلالة على معناه المتبادر الراجح إنما تتم في محل النطق نفسه ، لأن الراجح من اللفظ المنطوق يقدم على مرجوحه ، يوضح ذلك قوله تعالى « فمن اضطرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه »^(١) الباغي يطلق على معنيين ، احدهما مرجوح وهو الجاهل ، والثاني راجح وهو الظالم ، لانه هو الظاهر المتبادر من سياقة الآية^(٢) . و « المؤول » الذي يستحيل حمله على ظاهره فيصرف إلى معنى آخر يعينه السياق هو كذلك نوع من المنطوق ، لأن ظاهره المستحيل مرجوح ، ومعناه الذي يعينه السياق راجح يكاد اللفظ نفسه ينطق به وينبئ عنه ، من ذلك قوله تعالى : « وهوَ معكمُ أينما كنتم »^(٣) . فإن حمل المعية على قرب الله بذاته مستحيل^(٤) ، أما تأويلها بالقدرة والعلم والرعاية فمعنى صحيح يصل إلى النفس عن طريق اللفظ المنطوق ذاته من غير تعمل ولا اصطناع .

أما المفهوم فقد اصطالحوا على أنه « ما دل عليه اللفظ في غير محل النطق »^(٥) ، فلاحظوا في تعريفه أن المعنى الذهني هو المنفذ الوحيد

(١) سورة الانعام ١٤٥

(٢) البرهان ٢٠٦/٢

(٣) سورة الحديد ٤

(٤) البرهان ٢٠٦/٢

(٥) الاتقان ٥٣/٢

إلى دلالاته . ويسمى مفهوم موافقة إذا وافق المنطوق بحكمه ، ومفهوم مخالفة إذا لم يوافق به ^(١) ، ولكل من هذين المفهومين فروع تتعلق به ، فمفهوم الموافقة إذا دل على المعنى الأول بالأخذ والاعتبار سمي « فحوى الخطاب » ، كدلالة « فلا تقل لهما أف » ^(٢) على تحريم ضرب الوالدين لانه أولى بالتحريم من قول أف لهما ، وإذا دل على المعنى المساوي سمي « لحن الخطاب » كدلالة « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصاون سعيراً » ^(٣) على تحريم إحراق أموال اليتامى ، لأن الائتلاف هو المقصود بالتحريم ، سواء أحصل بالأكل أم بالإحراق ، فكل منهما مساوٍ للآخر ^(٤) .

ومفهوم المخالفة على أنواع أهمها : مفهوم وصفي ، ومفهوم شرطي ومفهوم حصري ^(٥) .

ويتوسع في المفهوم الوصفي فلا يقتصر فيه على النعت ، بل يشمل كل ما أفاد معنى الوصفية كالحال والظرف والعدد ^(٦) .

(١) الاتقان ٥٣/٢ ايضاً

(٢) سورة الإسراء ٢٢ (وانظر الاتقان ٥٣/٢)

(٣) سورة النساء ١٠

(٤) محاضرات في أصول الفقه ، بدر المتولي عبد الباسط ١٨١/١

(٥) يذكر عادة من أنواع مفهوم المخالفة خمسة : الصفة والشرط

والغاية والعدد واللقب ، ولكننا اقتصرنا على أهمها

(٦) الاتقان ٥٣/٢

مثال النعت « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة »^(١) مفهومه أنه لا يجب علينا أن نتبين أو نتثبت في نبأ غير الفاسق^(٢) ، فإذا جاءنا من نعت بالعدالة بدلاً من الفسق نبأ قبلناه وسلمنا به وحسنا الظن بخبره ، ومن هنا استنبط العلماء وجوب قبول الخبر الذي يرويه الواحد العدل .

ومثال الحال : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون »^(٣) فان الغاية من الآية التدرج في تحريم المسكرات على المؤمنين ، فالصلاة لا تقرب إلا في حال الصحو التي يعلم فيها المصلي ما يقول ، وفي حال السكر لا يعي الانسان شيئاً مما يفعل ويقول ، ولذلك لا تجوز صلاة المؤمنين وهم سكارى .

ومثال الظرف : « فاذكروا الله عند المسعر المحرام »^(٤) فقد عينت الآية الظرف المكاني الذي يذكر الله فيه ذكراً خاصاً ، فلو ذكر الله في غير هذا المكان لكان تحصيلاً لشيء غير مطلوب^(٥) ، والأمر التعبدي لا يعال ، لأن تنفيذه على الوجه الذي أراده الشارع دليل على طاعة الله ، والتزيد فيه كالتقصان منه معصية ووضع للشيء في غير

(١) سورة الحجرات ٦

(٢) الاتقان ٥٣/٢

(٣) سورة النساء ٤٣

(٤) سورة البقرة ١٩٨

(٥) الاتقان ٥٣/٢

محلّه . ونقول مثل ذلك في قوله تعالى « الحج أشهرٌ معلومات »^(١) فهذا تعيين للظرف الزماني الذي يُحرّم فيه الحاج ، بحيث لو وقع إحرامه في غير هذه الأشهر لكان غير صحيح^(٢) .

ومثال العدد : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون »^(٣) فحدّ القذف ثمانون جلدة لا أكثر ولا أقل^(٤) .

وهذه الأمثلة الأربعة كلها شوامد على المفهوم الوصفي ، مع شيء من الاتساع فيه .

ومثال المفهوم الشرطي : « وإن كنّ أولاتٍ حملٍ فأنفقوا عليهن »^(٥) فاشتراط الحمل يفيد أن غير الحاملات لا يجب الإنفاق عليهن^(٦) .

(١) سورة البقرة ١٩٧

(٢) الاتقان ٥٣/٢

(٣) سورة النور ٤

(٤) الاتقان ٥٣/٢

(٥) سورة الطلاق ٦ (وانظر علم اصول الفقه ، لعبد الوهاب خلاف ص ١٧٩)

(٦) واضح ان الزوجات غير الحاملات اللاتي لا ينفق عليهن الأزواج ،

هن المستغنيات بما لديهن من المال ، وفقاً لقاعدة الاسلام في تحقيق الكيان

الاقتصادي المستقل للمرأة كتحيقته للرجل سواء بسواء ، « للرجال نصيب مما

اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » سورة النساء ٣٢ ، أما في حال فقر

المرأة فالرجل مسؤول في الانفاق عليها ، حاملاً كانت او غير حامل ، « الرجال

قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم »

سورة النساء ٣٤

ومثال المفهوم الحصري : « إياك نعبدُ وإياك نستعين^(١) » أي لا نعبد أحداً سواك ولا نستعين إلا بك .

وقد نص العلماء على أنه لا مفهوم للموصول وصلته في قوله : « وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم^(٢) » لأن الغالب أن يكنّ في حجور الأزواج^(٣) ، ولا مفهوم للشرطية في قوله « ولا تُكْرهُوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً^(٤) » لأن إرادتهن التحصن موافقة للواقع ، فلا يجوز إكراه الفتيات على البغاء إن مالت أنفسهن إلى الفحشاء ولم يردن التحصن ، لأن الآية لا تشترط شرطاً وإنما توافق واقع الفتيات عندما يكون واقعاً سليماً ليس فيه شذوذ .



(١) سورة الفاتحة ٥

(٢) سورة النساء ٢٢

(٣) الاتقان ٥٤/٢ وقارن بالبرهان ٢٣/٢

(٤) سورة النور ٣٤ (وانظر الاتقان ٥٤/٢)

عام القرآن وخاصة

(آ) نقصد بعام القرآن ، اللفظ الذي نجده فيه دالاً — في أصل وضعه اللغوي — على استغراقه جميع الافراد التي يصدق عليها معناه من غير حصر كمي ولا عددي^(١) ، فاذا قال تعالى « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى »^(٢) فلفظ (رجل) ليس بعام ، لأنه يدل على فرد واحد معين ، وإذا قال تعالى « فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته ، وهذا من عدوه »^(٣) فلفظ (رجلين) ليس بعام كذلك لأنه يدل على شخصين معينين ، ومثل ذلك يقال في (رجال) في قوله تعالى « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم »^(٤) ، وفي (امة) في قوله « ليسوا سواء » ، من أهل الكتاب أمة قائمة^(٥) ، وفي (ألف) في قوله : « فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مُردفين »^(٦)

(١) قارن بعلم أصول الفقه ، خلاف ، ص ٢١٣

(٢) سورة يس ٢٠

(٣) سورة القصص ١٥

(٤) سورة الأعراف ٤٦

(٥) سورة آل عمران ١١٣

(٦) سورة الأنفال ٩

لأنّ هذه الألفاظ تدل على كمية محصورة أو عدد معين ، ولا تدل على الشمول والاستغراق ، فليس فيها إذن معنى العموم .

والقرآن الذي نزل بلسان عربي مبين ، يعبر عن العام بالألفاظ التي وضعها العرب لإفادة الشمول والاستغراق . وقد دل الاستقراء على أنّ ألفاظ العموم ^(١) لا تخرج عن هذه التي سنذكرها تباعاً مع التمثيل من النصوص القرآنية .

أولاً - لفظ كل ، وجميع ، وكافة ، وما في معناها ، نحو « كل مَنْ عَلَيْهَا فَان » ^(٢) ، « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً » ^(٣) ، « ادخلوا في السِّلَامِ طَائِفَةٌ » ^(٤) .

ثانياً - أسماء الموصول أفراداً وتثنيةً وجمعاً ، وتذكيراً وتأنثياً نحو « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ النَّارِ الَّتِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » ^(٥) ، « وَالْمِزَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا » ^(٦) ، « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » ^(٧) ، « وَاللَّيْلِ يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ »

(١) أنظر ألفاظ العموم في الاتقان ٢٦/٢

(٢) سورة الرحمن ٢٦

(٣) سورة البقرة ٢٩

(٤) سورة البقرة ٢٠٨

(٥) سورة البقرة ١٧

(٦) سورة النساء ١٦

(٧) سورة يونس ٢٦

- مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ» (١).
- ثالثاً — المعرف بأل تعريف الجنس مفرداً كان نحو
«السارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما» (٢)، أو جمعاً نحو «قَدْ
أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» (٣).
- رابعاً — الجمع المعرف بالإضافة نحو «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي
أَوْلَادِكُمْ» (٤)، «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً» (٥).
- خامساً — أسماء الشرط، نحو «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا» (٦).
- سادساً — النكرة في سياق النفي، نحو «وإنْ مِنْ سَيِّءٍ إِلَّا
عِنْدَنَا خِزْيَانَةٌ» (٧).

وهذه الصيغ — بحسب الوضع اللغوي — تعين العموم تعييناً
حقيقياً ما لم يرد مخصص لها، وموارد التخصيص كثيرة في القرآن
حتى لقد تعذر على بعض العلماء أن يتصور عاماً باقياً على عمومه غير

(١) سورة النساء ١٥

(٢) سورة المائدة ٣٨

(٣) سورة المؤمنون ١

(٤) سورة النساء ١١

(٥) سورة التوبة ١٠٣

(٦) سورة الفرقان ٦٨

(٧) سورة الحجج ٢١

قابل للتخصيص ، ^(١) و حاول السيوطي أن يستنبط من القرآن مثلاً على ذلك فوجده في الآية « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ » ^(٢) ... الخ ، فالعموم مقصود في جميع المحارم المذكورين . ولم يكن الأمر محوجاً إلى هذا الجهد والعناء ، فالعام الباقي على عمومته موجود في القرآن ، ولكنه قليل بالنسبة الى العام المراد به الخصوص ، ومن أمثلة الباقي على عمومته قطعاً هذه السنن الالهية التي لا تحتمل التخصيص ولا التبديل في قوله تعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ^(٣) وقوله « وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها » ^(٤) وقوله « لكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ^(٥) .

(١) قال القاضي جلال الدين البلقيني : « ومثاله - أي العام الباقي على عمومته - عزيز ، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص ، فقوله « يا أيها الناس اتقوا ربكم » قد يخص منه غير المكلف و « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ المَيْتَةُ » خص منه حالة الاضرار ، وخص منه السمك والجراد و « حرّم الربا » خص منه العرايا « الاتقان

(٢) سورة النساء ٢٢

(٣) سورة الأنبياء ٣٠

(٤) سورة الأنعام ٣٨

(٥) سورة يونس ٤٩

ومن المحقق أن العام غالباً تصحبه قرينة تمنع بقاءه على عمومه ، نحو
« ما كان لأهل المدينة ، ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن
رسول الله »^(١) فلا يراد من أهل المدينة والأعراب إلا القادرون على
الجهاد ، أما العجزة فلا يشملهم التعبير ، لأن العقل يقضي بخروجهم ،
ومثل ذلك قوله تعالى « والله على الناس حج البيت »^(٢) فلا يراد بالناس
إلا المكلفون ، أما الصبية والمجانين فالعقل يقضي كذلك بخروجهم .
ومن العام الذي يراد به الخصوص ما يكون فيه الانتقال من العموم
لغرض بلاغي يزيد التعبير جمالا ، والفكرة وضوحاً ، كقوله تعالى
« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »^(٣) فالمقصود بالناس
هنا إنسان واحد هو محمد رسول الله ﷺ ، جمع ولم يفرده لأنه
المثل الأعلى للإنسانية .

وإذا خاطب الله نبيه بمثل قوله « يا أيها النبي اتق الله »^(٤) فخطابه
لا يعم الأمة بطريق الدلالة الوضعية ، ولكنه يعمها بدليل آخر هو
وجوب الاقتداء به صلوات الله عليه ، إلا إذا قام دليل على أن
الحكم خاص به .

(١) سورة التوبة ١٢١

(٢) سورة آل عمران ٩٧

(٣) سورة النساء ٥٣

(٤) سورة الاحزاب ١

والمدح والذم لا يخرجان العام عن عمومه ، مثال ذلك « والذين
يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب
أليم »^(١) ، « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات
الفرديوس نُزُلًا »^(٢) .

ب) أما خاص القرآن فهو اللفظ الموضوع للدلالة على فرد واحد
مثل محمد ، أو واحد بالنوع مثل رجل ، أو على أفراد محصورة الكم
والعدد ، كاثنتين وعشرة وألف ، وقوم وأمة وطائفة وفريق^(٣) .
واللفظ القرآني الخاص قد يكون مطلقاً أو مقيداً ، وأمراً
أو نهياً :

فالخاص المقيد كلفظ « مسفوحاً » في قوله : « قل لا أجد فيما أوحى
الي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم
خنزير »^(٤) ، فإن هذا اللفظ قيد لفظ (الدم) المطلق في قوله « حرمت
عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »^(٥) ،... فقد حمل هنا الخاص المطلق
على الخاص المقيد^(٦) .

(١) سورة التوبة ٣٥

(٢) سورة الكهف ١٠٨

(٣) خلاف ، علم أصول الفقه ص ٢٢٤

(٤) سورة الانعام ١٤٥

(٥) سورة المائدة ٤

(٦) أنظر خلاف ، علم أصول الفقه ص ٢٢٦

وصيغة الأمر إذا وردت في لفظ قرآني خاص تفيد الإيجاب والإلزام^(١) ، ، نحو « فاقطعوا أيديهما »^(٢) لكنها قد تصرف إلى معنى آخر بقرينة ، كالإباحة في قوله « وكلوا واشربوا »^(٣) والإشعار بالعجز « فأتوا بسورة من مثله »^(٤) والتهديد « اعملوا ما شئتم »^(٥) وتكرير طلب الشيء « فمن شهد منكم الشهر فليصمه »^(٦) أي كلما شهد أحدكم الشهر وجب عليه الصيام .

وصيغة النهي إذا وردت في لفظ قرآني خاص تفيد التحريم على وجه الإلزام^(٧) ، نحو « ولا تأكلوا أموالكم بينكم الباطل »^(٨) وقد تصرف إلى معنى آخر بقرينة ، كالدعاء « ربنا لاترغ قلوبنا »^(٩) أو الكراهة « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم

(١) خلاف ، علم أصول الفقه ص ٢٢٨

(٢) سورة المائدة ٤١

(٣) سورة الأعراف ٣٠

(٤) سورة البقرة ٢٣

(٥) سورة السجدة ٤٠

(٦) سورة البقرة ١٨٥

(٧) خلاف ، علم أصول الفقه ص ٢٣٠

(٨) سورة البقرة ١٨٨

(٩) سورة آل عمران ٨

تَسْوُوكُمْ»^(١) .

والحكم الذي يفيد الخصاص بدلالاته الحقيقية الوضعية حكم قطعي لاسيلا إلى الظن فيه، فإذا قال تعالى « فكفارته إطعام عشرة مساكين»^(٢) فالحكم إطعام هؤلاء العشرة ، بحيث لا يزداد عليهم ولا ينقص منهم ، وذلك لأن الخصاص الحقيقي لا يتصور فيه إلا الخصوص ، بعكس العام فانه يتصور فيه دائماً ما يخصه وقاما يبقى على عمومه .

المجمل والمبين

المُجْمَل هو ما لم تتضح دلالاته^(٣) ، أو هو - بعبارة أوضح - ماله دلالة على أحد أمرين لامزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه . وقد أنكر داود الظاهري^(٤) وقوعه في القرآن^(٥) ، والأصح وقوعه غير أنه لا يبقى

(١) سورة المائدة ١٠٤

(٢) سورة المائدة ٩٢

(٣) الاتقان ٣٠/٢

(٤) هو إمام أهل الظاهر داود بن علي بن خلف الاصبهاني ، أبوسليمان ، المعروف بالظاهري . إليه انتهت رئاسة العلم ببغداد . توفي سنة ٢٧٠ هـ (وفيات الأعيان ١/١٧٥) .

(٥) الاتقان ٣٠/٢

على إجماله ولا سيما في الأمور التي شرعها الله لعباده وأمرهم بها .
وفي إجمال النص ضرب من الغموض ينشأ من أحد الأسباب
الآتية :

غرابة لفظه ، « كالموع » فقد فسره السياق القرآني نفسه في قوله
تعالى « انّ الانسان خلق هَلْوَعاً ، إذا مسه الشرّ جزّوعاً ، وإذا مسه
الخير منّوعاً »^(١)

أو وقوع الاشتراك فيه ، كلفظ « عسعس » في قوله تعالى « والليل
إذا عسعس »^(٢) فانه صالح لإفادة الإقبال والإدبار^(٣)

أو اختلاف مرجع الضمير ، نحو « إليه يصعد الكلم والطيب ،
والعمل الصالح يرفعه »^(٤) يحتمل عود ضمير الفاعل في « يرفعه » الى
ماعاد عليه ضمير « اليه » وهو الله ، ويحتمل عوده إلى العمل ، والمعنى :
انّ العمل الصالح هو الذي يرفعه الكلم الطيب ؛ ويحتمل عوده إلى الكلم
أي أن الكلم الطيب - وهو التوحيد - يرفع العمل الصالح ، لأنه لا يصح
العمل إلا مع الايمان^(٥) .

(١) سورة المعارج ١٩-٢١ (وانظر البرهان ١٧٦/٢)

(٢) سورة التكوير ١٧

(٣) الاتقان ٣٠/٢

(٤) سورة فاطر ١٠

(٥) الاتقان ٣٠/٢

أو التقديم والتأخير ، نحو « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان
لزاماً، وأجل مسمى »^(١) أي : ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً^(٢) .
على أن هذا الغموض العارض الناشئ عن تردد المجلد بين أمرين
لا يلبث أن يزول ، فاذا ورد عليه بياحه سمي مفصلاً أو مفسراً أو مبيناً .
وتبيين المجلد إما أن يرد متصلاً^(٣) ، نحو « من الفجر » فإنه فسر
بمجل قوله تعالى « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود »^(٤) ؛
إذ لولا (من الفجر) لبقى الكلام الأول على ترده واحتماله^(٥) .
وإما أن يرد منفصلاً في آية أخرى^(٦) ، نحو « وجوه يومئذ ناظرة .
إلى ربها ناظرة »^(٧) فإنه دل على جواز الرؤية ، ويفسر به قوله تعالى
« لا تُدرّكه الأبصار »^(٨) ، حيث كان متردداً بين نفي الرؤية أصلاً

(١) سورة طه ١٢٩

(٢) الاتقان ٣١/٢

(٣) الاتقان ٣١/٢ أيضاً

(٤) سورة البقرة ١٨٧ وراجع في (ص ١٥ حاشية ٤) قصة عدي بن حاتم
في شأن هذه الآية .

(٥) البرهان ٢١٥/٢

(٦) الاتقان ٣١/٢

(٧) سورة القيامة ٢٢، ٢٣

(٨) سورة الأنعام ١٠٣

وبين نفي الإحاطة والحصر دون أصل الرؤية^(١) .
وقد يقع تبيين المجمل بالسنة النبوية^(٢) ، لأن « القرآن والحديث
أبدأ متعاضدان على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة ،
حتى إن كلا منهما يخص عموم الآخر ، ويبين إجماله »^(٣) .
وأكثر ما يكون ذلك في الالفاظ الشرعية المنقولة عن معانيها
اللغوية ، « كالصلاة » فقد فسر أقوالها وأفعالها الرسول ﷺ في قوله
« صلوا كما رأيتموني أصلي » وكذلك الزكاة بين الرسول مقاديرها ،
والحج فصل مناسكه^(٤) .

ومن ذلك تفسيره عليه السلام « قرّة أعين » في قوله تعالى « فلا
تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين »^(٥) فقد قال : « فيها ما لا عين رأت
ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بله ما اطلعت عليه »^(٦)
وفي بيان معاضدة السنة للقرآن وتفسيرها لإجماله ألف الإمام

(١) البرهان ٢/٢١٦

(٢) الاتقان ٢/٣١

(٣) البرهان ٢/١٢٩ النوع الاربعون في بيان معاضدة السنة للقرآن

(٤) الاتقان ٢/١٣١ وقارن بالبرهان ٢/١٨٤

(٥) سورة السجدة ١٧

(٦) البرهان ٢/١٣٠

أبو الحكم ابن بركان^(١) كتابه المسمى « بالارشاد في تفسير القرآن »^(٢)
وقال : « ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن ، وفيه أصله ،
قرب أو بعد ، فهمه من فهمه ، وعمه عنه من عمه »^(٣) .

النص والظاهر

يراد بالنص ما دل بصيغته نفسها على ما يقصد أصلاً من سياقه^(٤) ،
كقوله تعالى : « وأحلّ الله البيعَ وحرمَ الربا »^(٥) فالمعنى المقصود
أصالةً من هذا السياق القرآني نفي كل نوع من أنواع المماثلة بين البيع
الحلال والربا الحرام .

وبديهي أنه يجب العمل به ، لأنه من مقاصد القرآن التي تدل عليها
عباراته دلالة واضحة صريحة .

(١) هو الامام عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد السلام اللخمي الإشبيلي ،
المعروف بابن بركان ، حامل لواء اللغة والنحو بالاندلس في عصره . توفي سنة
٦٢٧ (أنظر بغية الوعاة ٣٠٦ وشذرات الذهب ١٢٤/٥)

(٢) من هذا الكتاب نسخة مصورة بمعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية

(٣) البرهان ١٢٩/٢

(٤) خلاف ، علم أصول الفقه ص ١٨٩ - ١٩٠

(٥) سورة البقرة ٢٧٥

أما الظاهر فيراد به ما يتبادر إلى الفهم من عبارته نفسها من غير حاجة إلى قرينة ، ولكن مفهومه غير مقصود أصالة من سياقه ^(١) ، كقوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ^(٢) فالمعنى المتبادر إلى الفهم من غير توقف على قرينة هو إباحتها نكاح ما حل من النساء ، ولكنه لم يقصد من السياق أصلاً ، وإنما قصد به أصلاً قصر العدد على أربع أو الاكتفاء بواحدة .

ويجب العمل بالظاهر أيضاً ، لأن اللفظ لا يصرف عن المتبادر منه إلا بقرينة ، فاذا وجدت هذه القرينة عمل بغير المتبادر منه ^(٣) .

(١) خلاف ، علم اصول الفقه ص ١٨٨

(٢) سورة النساء ٣

(٣) خلاف ، علم اصول الفقه ص ١٨٩

التفسير : نشأته وتطوره

لا ريب أن التفسير مر بأطوار كثيرة حتى اتخذ هذه الصورة التي نجده عليها الآن في بطون المؤلفات والتصانيف ، بين مطبوع ومخطوط . ولقد نشأ التفسير مبكراً في عصر النبي ﷺ الذي كان أول شارح لكتاب الله ، يبين للناس ما نزل على قلبه . أما صحابته الكرام فما كانوا يجرون على تفسير القرآن وهو عليه السلام بين أظهرهم ، يتحمل هذا العبء العظيم ، ويؤديه حق الأداء ، حتى إذا لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى كان لا بد للصحابة العلماء بكتاب الله ، الواقفين على أسراره ، المهتمدين بهدي النبي ﷺ ، من أن يقوموا بقسطهم في بيان ما علموه ، وتوضيح ما فهموه . والمفسرون من الصحابة كثيرون ، إلا أن مشاهيرهم عشرة « الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله ابن الزبير . أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . والرواية عن الثلاثة نزره جداً ، وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم » (١) .

(١) الاتقان ٢/٣١٨

وأجدد هؤلاء العشرة جميعاً بلقب المفسر هو عبد الله بن عباس الذي شهد له رسول الله ﷺ بالعلم ، ودعا له بقوله : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل »^(١) وسماه ترجمان القرآن^(٢) . ولكن الناس تزيدوا في الرواية عن ابن عباس ، وتجراً بعضهم على الوضع عليه ، والدس في كلامه . حتى قال الإمام الشافعي « لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شيه بمائة حديث »^(٣) .

ومن الذين ورد عنهم شيء من التفسير من الصحابة ، غير أولئك العشرة ، أبو هريرة ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، والسيدة عائشة أم المؤمنين ، إلا أن ما روي عنهم قليل بالنسبة الى العشرة السابقين .

وتلقى أقوال الصحابة نفر من كرام التابعين في الأمصار الإسلامية المختلفة ، فنشأت في مكة طبقة للمفسرين ، وفي المدينة طبقة ثانية ، وفي العراق ثالثة . قال ابن تيمية^(٤) : « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة ، لانهم أصحاب ابن عباس ، كجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير وطاووس وغيرهم ، وكذلك في الكوفة

(١) البرهان ١٦١/٢

(٢) الاتقان ٣١٩/٢

(٣) الاتقان ٣٢٢/٢

(٤) سبقت ترجمته ص ١٩٢ حاشية ٤

أصحاب ابن مسعود ، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس^(١) .

ومن التابعين أخذ تابعو التابعين ، فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير ، كما فعل سفيان بن عيينة^(٢) ، وو كيع بن الجراح^(٣) وشعبة بن الحجاج^(٤) ، ويزيد بن هرون وعبد بن حميد^(٥) ، فكانوا بذلك إرهاباً لابن جرير الطبري^(٦) الذي يوشك المفسرون جميعاً من بعده أن يكونوا عالة عليه . وبعد ذلك اتجه العلماء في تفاسيرهم اتجاهات متباينة ، فكان ما يسمى بالتفسير بالمأثور ، وهو امتداد للتفاسير السابقة المسندة إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وكان ما يسمى بالتفسير بالرأي ، وفيه تعددت المناهج ، وتضاربت الأفكار ، فحمد بعضه وذم بعضه ، تبعاً لقربه من هداية القرآن أو بعده عنها .
(آ) وأجل التفاسير بالمأثور هو تفسير ابن جرير الطبري ، ويسمى كتابه (جامع البيان ، في تفسير القرآن) ومن خصائصه أنه عرض فيه لأقوال الصحابة والتابعين مع تحرير أسانيدها ، وترجيح بعضها على بعض ،

(١) نقل هذه العبارة السيوطي في الاتقان ج ٢/٣٢٣

(٢) سبقت ترجمته ص ١٧ حاشية ٢

(٣) سبقت ترجمته ص ١٨ حاشية ١

(٤) سبقت ترجمته ص ١٧ حاشية ١

(٥) أنظر البرهان ١٥٩/٢

(٦) سبقت ترجمته ص ٣ حاشية ٢ (ولزيد الاطلاع على ترجمته أنظر طبقات

المفسرين للسيوطي ٣٠-٣١ وشذرات الذهب ٢/٢٦٠-٢٦١ وتاريخ بغداد ٢/١٦٢)

واستنباط الكثير من الأحكام وذكر بعض وجوه الإعراب التي تزيد المعنى وضوحاً . غير أنه - اعتماداً منه على معرفة الناس حال الأسانيد - كان أحياناً يغفل بعضها ، ويذكر منها غير الصحيح بدون أن ينبه عليه . ويقرب من تفسير الطبري ، وربما يفوقه في بعض الأمور ، تفسير ابن كثير^(١) (عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤)، ومن مزاياه الدقة في الإسناد ، وبساطة العبارة ، والوضوح في الفكرة .

وتبعاً لهذا المنهج ألف السيوطي (ت ٩١١) كتابه القيم «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» ، وقد اعتمد فيه - كما يفهم من عنوانه - على الاخبار الصحيحة المأثورة التي تجعله أقرب الى الفكرة الاسلامية منه إلى الشروح الانسانية .

لكن التفسير بالمأثور معرض غالباً للنقد الشديد ، لأن الصحيح من الروايات قد اختلط بغير الصحيح ، ولزنادقة اليهود والفرس نشاط لا يبجله أحد في الدس على الاسلام وتشويه تعاليمه ، ولأصحاب المذاهب والشيع ولع غريب يجمع معاني القرآن وتنزيلها وفق هواهم ، فكان على المفسر بالمأثور أن يدقق في تعبيره ، ويحترس في روايته ، ويحتاط كثيراً في ذكر الاسانيد .

ب) أما التفسير بالرأي فقد اختلف العلماء حوله ، فمن محرم له

(١) سبقت ترجمته ص ١٠٢ حاشية ٤

ومن مجوز ، ولكن اختلافهم يؤول في الحقيقة الى أن المحرم منه هو
الجزم بأن مراد الله كذا من غير برهان أو محاولة تفسير الكتاب
الكريم مع جهل المفسر بقواعد اللغة وأصول الشرع ، أو تأييد بعض
الأهواء بآيات من القرآن زوراً وبهتاناً ، أما اذا كانت الشروط
المطلوبة متوفرة في المفسر فلا مانع من محاولته التفسير بالرأي ، بل لعنا
لا نبعد إن قلنا إن القرآن نفسه يدعو إلى هذا الاجتهاد في تدبر آياته
وقفه تعاليمه . قال تعالى « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »^(١)
وقال : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر
أولو الألباب »^(٢) .

وقد نقل السيوطي عن الزركشي (في البرهان) خلاصة الشروط
التي لا بد منها لباحة التفسير بالرأي^(٣) ، فرآها تدرج تحت أربعة :
الأول: النقل عن رسول الله (ﷺ) مع التحرز عن الضعيف
والموضوع .

الثاني: الأخذ بقول الصحابي ، فقد قيل إنه في حكم المرفوع مطلقاً .
وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه .

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلى
ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب .

(١) سورة محمد ٢٤

(٢) سورة ص ٢٩ (٣) انظر الاتقان ٣٠٢/٢ والبرهان ١٥٦/٢ - ١٦١

الرابع : الأخذ بما يقتضيه الكلام ، ويدل عليه قانون الشرع .
وهذا النوع الرابع هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس في قوله :
« اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

وأشهر التفاسير التي تتوفر فيها أكثر هذه الشروط تفسير الرازي^(١)
المسمى (مفاتيح الغيب) وتفسير البيضاوي^(٢) المسمى (أنوار التنزيل
وأسرار التأويل) وتفسير أبي السعود^(٣) المسمى (إرشاد العقل السليم
إلى مزايا القرآن الكريم) وتفسير النسفي^(٤) المسمى (مدارك التنزيل ،
وحقائق التأويل) وتفسير الخازن^(٥) المسمى (لباب التأويل في معاني
التنزيل) .

والرازي في تفسيره يسلك مسلك الحكماء الالهيين في الاستدلالات
الكلامية المنطقية ، ويعنى يبحث الكونيات عناية خاصة ويقسم الآية
أو الآيات التي يكون بصدد تفسيرها إلى عدد من المسائل ، ثم يسترسل
في تأويلها مدافعاً عن عقيدة أهل السنة والجماعة .

(١) هو الامام فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، توفي سنة ٦٠٦ (أنظر
وفيات الاعيان ١/٤٧٤)

(٢) سبقت ترجمته ص ١٩٢ حاشية ٣

(٣) هو محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوي . توفي سنة ٩٨٢ هـ

(٤) هو ابو البركات عبدالله بن احمد بن محمود النسفي المتوفى سنة ٧١٠

(٥) الخازن هو علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي المتوفى سنة ٧٤١

والبيضاوي في تفسيره يعني بتقرير الأدلة على أصول أهل السنة ، ولا يفوته التنبيه على قواعد اللغة ، إلا أنه ليس بالثابت فيما يرويه من الأحاديث في ختام كل سورة لبيان فضلها ، فأكثر مروياته فيها غير صحيح . وله حواش كثيرة أفضلها حاشية الشهاب الخفاجي وهي المتداولة .

أما أبو السعود فمخبره تقريره الأدلة على عقائد أهل السنة ، يعني بتبيان المباحث المتعلقة بإعجاز القرآن ، وأسلوبه في ذلك مشرق ، وتدوقه للبلاغة القرآنية سليم .

وأما النسفي فيعنيه بالدرجة الأولى الدفاع عن وجهة نظر أهل السنة والجماعة ، والرد على أهل البدع والاهواء ، وتفسيره جامع لوجوه الإعراب والقراءات ، وفيه إشارات دائمة إلى روائع البلاغة القرآنية ، في عبارة موجزة ، بل شديدة الإيجاز .

والخازن أخيراً على عنايته بالمأثور ، لا يذكر أسانيد ، ويعجب العامة كثيراً بتفسيره لما فيه من القصص والإسرائيليات .

والتفسير بالرأي حتى مع استيفائه جميع الشروط التي تجعله محموداً لا مسوغ له إذا عارضه التفسير بالمأثور الذي ثبت لنا بالنص القطعي ، لأن الرأي اجتهاد ، ولا مجال للاجتهاد في مورد النص ، وأما إذا لم يكن تعارض بين التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور فكل منهما يؤيد الآخر ويثبتته ، وذلك أكثر ما نجد في كتب التفسير ، كالأقوال الكثيرة

في تفسير قوله تعالى « فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » فالسابق من رجحت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، على رأي ؛ والسابق المخلص ، والمقتصد المرئي ، والظالم كافر النعمة غير الجاحد لها على رأي ثان ؛ والسابق هو الذي تمحض للخير ، والمقتصد هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، والظالم هو المرجأ إلى أمر الله ، على رأي ثالث ، وهكذا (٢) . وهي أقوال كما ترى ليس بينها تنافٍ ولا تعارض .

(ج) وتفسير الفرق الإسلامية المختلفة ترجع — في الحقيقة — إلى التفسير بالرأي ، غير أنها تدخل في النوع المذموم منه ، لأن أصحابها لم يؤلفوها إلا لتأييد أهوائهم ، أو الانتصار لمذاويهم ومواجيدهم ، من ذلك تفاسير المعتزلة والمتصوفة والباطنية .

ويغلب على تفاسير المعتزلة الطابع العقلي ، والمذهب الكلامي ؛ تبعاً لقاعدتهم المشهورة « الحسن ما حسنه العقل ، والقيح ما قبحه العقل » (٣) ولا ترد النصوص النبوية فيها إلا على أنها شيء ثانوي ، نادراً ما يلجأون

(١) سورة فاطر ٣٢

(٢) وانظر بقية الاقوال في الانقان ٣٠٦/٢ وفي تفسير ابن كثير ٢٥٤-٢٥٦

(٣) في دائرة المعارف الاسلامية بحث لا بأس به عن المعتزلة . انظر :

Encyclop. de l'Islam , art . Mutazila III , 811 - 7 .

إليه لشرح معاني الآيات. وخير من يمثل هذه النزعة العقلية في التفسير الزمخشري^(١) (محمود بن عمر الملقب بجار الله المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) في كتابه (الكشاف) الذي يمتاز بإيراد النكات البلاغية وتحقيق بعض وجوه الإعجاز، بطريق الفنقلة (أي إن قلتَ قلت). وهو إلى ذلك خالٍ من الاسرائيليات التي تكثر في بعض كتب التفسير بالمأثور، وعبارته بليغة موجزة ليس فيها حشو وتطويل.

وإليك نموذجاً من تفسيره. قال في بيان قوله تعالى «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة»^(٢). «فان قلت: لم اسند الختم الى الله تعالى؟ وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه، وهو قبيح. والله يتعالى عن فعل القبيح... بدليل «وما أنا بظلام للعبيد» «وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين». «ان الله لا يأمر بالفحشاء»^(٣) الخ... ثم أول اسناد الختم الى الله بأن الكلام استعارة أو مجاز، على معنى أن الشيطان هو الخاتم أو الكافر، واسند

(١) سبقت ترجمته ص ٦٦ حاشية ٢ (ولمزيد الاطلاع على ترجمته أنظر طبقات المفسرين للسيوطي ٤١؛ وفيات الاعيان ٢/٨١-٨٤؛ بغية الوعاة ٣٨٨ - ٣٨٩؛ إنباه الرواة ٣/٢٦٥)

(٢) سورة البقرة ٧

(٣) تفسير الكشاف ١/٢٦-٢٧

الى الله تعالى لانه هو الذي أقدره ومكنه^(١).

ويغلب على تفاسير المتصوفة الشطحات التي تبعدهم عن النسق
القرآني ، وتجعل كلامهم غامضاً إلا على المشتغل بالشؤون الروحية ،
الذي تعلم أساليب المتصوفة ومرن عليها .

وأشهر التفاسير التي من هذا النوع التفسير المنسوب الى الشيخ
محيي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ ، وان كان كثير من العلماء
لا يصححون نسبته اليه .

واليك نموذجاً من هذا التفسير ، حول تأويل قوله تعالى « ان
الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم
جلوداً غير هاليدوقوا العذاب ، ان الله كان عزيزاً حكيماً » ففيه ما نصه :
(ان الذين كفروا بآياتنا) أي حُجبوا عن تجليات صفاتنا وأفعالنا ،
اذ مطلع الآية كونه متجلياً بالعلم والحكمة والملك في آل ابراهيم (سوف
نصليهم) نار شوق الكمال ، لاقتضاء غرائزهم وطبائعهم بحسب استعدادهم
ذلك مع رسوخ الحجاب ولزومه ، أو نار قهر من تجليات صفات قهره
تناسب أحوالهم ، أو نار شره نفوسهم وحدة شوقها وطلبها لما ضريت

(١) الكشف ٢٨/١ وتفسير محمد بن بحر الاصفهاني (المتوفى سنة ٥٣٢٢هـ) المسمى
(جامع التأويل لمحكم التنزيل) على مذهب المعتزلة ايضاً ، وهو يقع - كما يقول ابن
النديم في اربعة عشر مجلداً ، الا ان المطبوع اقواله الموجودة في تفسير الرازي
وقد جمعها سعيد الانصاري وطبعها في كلكتا سنة ١٣٤٠ هـ .

به من كالات صفاتها وشهواتها مع حرمانها عنها (كلما نضجت جلودهم)
رفعت حجبتهم الجسمية بانسلاخهم عنها (بدلناهم) حجباً غيرها جديدة
(ليدوقوا العذاب) نيران الحرمان (ان الله كان عزيزاً) قويا يقهرهم
ويذلمهم بذل صفات نفوسهم ، ويحرقهم بنيران تَوَقَّانها الى كمالاتهم
مع حرمانهم أبدأ (حكيماً) يجازهم بما يناسبهم من العذاب الذي
اختاروه لأنفسهم بدواعيهم الغضبية والشهوية وغيرها ، وميولهم الى
الملاذ الجسمية ، فلذلك بدلوا حجباً ظمانية بعد حجب « اه^(١)

فالتذوق الوجداني القائم على ضرب من الحدس النفسي هو الذي
يسود هذه الشروح ، ولذلك تكثر فيها العبارات الغامضة التي ليس
وراءها طائل. والدين لا يؤخذ من ذوق المتذوقين ، ولا وجد المتواجدين.
ويقرب من تفسير المتصوفة ما يسمى بالتفسير الإشاري ، وهو
الذي تؤوّل به الآيات على غير ظاهرها مع محاولة الجمع بين الظاهر
والخفي . من ذلك تفسير الألوسي (المتوفى سنة ١٢٧٠) ويسمى (روح
المعاني) فبعد أن يورد فيه مؤلفه تفسير الآيات حسب الظاهر ، يشير
الى بعض المعاني الخفية التي تستنبط بطريق الرمز والاشارة ، كقوله

(١) سورة النساء ٥٥

(٢) تفسير الشيخ الأكبر ، ج ١ ص ١٥٢ ، وقد طبع هذا الكتاب في
مجلدين في بولاق سنة ١٢٨٣ هـ و ١٨٦٥ م . وقد سبقت ترجمة ابن عربي
ص ١٩٦ حاشية ١

في تفسير الآية « وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون »^(١) : « وإذ أخذنا ميثاقكم المأخوذ بدلائل العقل ، بتوحيد الأفعال والصفات ، ورفعنا فوقكم طورَ الدماغ ، للتمكن من فهم المعاني وقبولها . أو أشار سبحانه بالطور الى موسى القلب ، ورفعه الى علوه واستيلاته في جو الإرشاد ، وقلنا (خذوا) أي اقبلوا (ما آتيناكم) من كتاب العقل الفرقاني بجد ، ووعوا ما فيه من الحكم والمعارف والعلوم والشرائع ، لكي تتقوا الشرك والجهل والفسق ، ثم أعرضتم بإقبالكم إلى الجهة السفلية بعد ذلك . فلولا حكمة الله يأماله ، وحكمه بإفضاله ، لعاجلتكم العقوبة ، ولحلَّ بكم عظيم المصيبة »^(٢) اهـ .

أما تفاسير الباطنية الذين يقتصرون على الاخذ بباطن القرآن ويهملون ظاهره ، مستدلين بقوله تعالى « فضرَبَ بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب »^(٣) فليس فيها إلا التأويلات الفاسدة المخالفة لأصول الشرع وقواعد اللغة . وتفاسير الباطنية أشد بعداً عن النسق القرآني من تفاسير التصوف والتفاسير الإشارية ،

(١) سورة البقرة ٩٣

(٢) روح المعاني ١/٢٨٢

(٣) سورة الحديد ١٣

وإن كانت تشترك جميعاً في مخالفة ظاهر القرآن واستلهاهم معانٍ ما أنزل الله بها من سلطان .

(د) هذا وإنا نضطر أحياناً للرجوع إلى نوع معين من التفاسير ، فإذا كنا نبحت عن النكات البلاغية رجعنا إلى الزمخشري ، وإذا التمسنا المباحث الكلامية رجعنا إلى الرازي ، وإذا أردنا إعراب القرآن فعلينا بالبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (المتوفى سنة ٧٤٥) ففيه كثير من المباحث النحوية ، والمسائل المتعلقة بالقراءات ، ولم نجد فيه ما نسلكه به في عداد التفسير بالرأي ، كما أنه لا يعنى بالنصوص النبوية إلا قليلاً ، فليس من باب التفسير بالمأثور .

(هـ) وقد ألفت في القرن الأخير تفاسير لبعض العلماء المعاصرين فيها محاولات للتجديد . وأقلها نصيباً من النجاح — بلا ريب — « الجواهر في تفسير القرآن » لطنطاوي جوهرى ، فإن في تفسيره كل شيء ما عدا التفسير . أما تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا فإنه نمط خاص في تأويل كلام الله ، يرجع به مؤلفه غالباً إلى آثار السلف محاولاً التوفيق بينها وبين مقتضيات العصر الحاضر ، ويخالفه النجاح في أكثر هذه المحاولات ، إلا أنه أحياناً يستمسك ببعض الآراء الضعيفة ويدافع عنها بقوة وعناد . ومع ذلك ، فالمنهج الذي يصدر عنه يدل على تعمقه للأسلوب القرآني ، ودراسته له على أنه للهداية والإعجاز . ولسيد قطب في تفسيره (ظلال القرآن) لمحات موفقة في فهم أسلوب القرآن

في التعبير والتصوير ، إلا أن الغرض الأول منه تبسيط المبادئ القرآنية للنشء ، فهو الى التوجيه أقرب منه إلى التعليم .
والتفسير بالمأثور إذا اجتمع إليه حسن الاستنباط ، وسعة الثقافة ، والمقدرة على الترجيح هو أولى التفاسير بالاعتبار . ونحن مع ذلك لا ننصح بالاختصار عليه ، فلا بدلنا لتأويل الآية أو الآيات من الرجوع إلى مختلف التفاسير . ثم نحاول أن نختار لأنفسنا أصلح الآراء فيها ، إلا أن يثبت لنا على وجه القطع أثر صحيح في الموضوع فنأخذ به ونطرح ما عداه ، إذ لا مسوغ للاجتهد في مورد النص .

اعجاز القرآن

نحن نعلم أن القرآن تحدى فصحاء العرب بمعارضته ، وطاولهم في المعارضة ، ولكنهم انهزموا أمام تحديه ، وأعلنوا عجزهم عن تقليده ، لأنه يعلو وما يُعلى ، وما هو بقول بشر .
تحداهم أول الأمر بالإتيان بمثل هذا القرآن ، وهو جميعه حديث الله ، ومن أصدق من الله قبلاً ، فقال لهم في سورة الإسراء : « قل لئن اجتمعت الانسُ والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »^(١) ثم تنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن الصادق الذي لا يخالف الواقع في شيء إلى التحدي بعشر سور

مثله ، ولو كانت مفتريات لا أصل لها ولا سند ، فقال في سورة هود :
« أم يقولون افتراه ؟ قل فأتوا بعشر سُورٍ مثله مفتريات ، وادعوا
من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم
فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وألا إله إلا هو . فهل أنتم مسلمون »^(١)
فلما عجزوا حتى عن السور العشر المفتريات ، تنازل إلى تحديهم بسورة
واحدة من مثله ، فقال في سورة البقرة : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا
على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن
كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فاتقوا النار التي وقودها
الناس والحجارة ، أعدت للكافرين »^(٢) .

وهكذا أعجز القرآن الخلق جميعاً عن معارضته ، ومعنى إعجازه
لهم إيقاعهم في العجز عن الإتيان بما تحداهم به ، وإثباته دوام عجزهم
عن ذلك ، ولقد كان هذا الإعجاز القرآني خليقاً أن يثير في الحياة
الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية يتصدى بها العلماء
للكشف عن وجوه البلاغة القرآنية ، وعن أسلوب القرآن الفذ في
التصوير والتعبير . ولقد بذل أولئك العلماء جهوداً مشكورة ، وقاموا
بمحاولات مضيئة ، لإبراز البلاغة القرآنية في صورة موحية ذات
ظلال ، ولكنهم وقفوا غالباً عند النص الواحد ، فاقتطعوه اقتطاعاً
من الوحدة القرآنية الكبرى ، ودرسوه على حدة دراسة تحليلية

(١) سورة هود ١٣ (٢) سورة البقرة ٢٢ ، ٢٣ وانظر البرهان ١١٠/٢

جزئية ذهب بمعالم جمالها خلافهم الذي لا يتناهى حول مشكلة اللفظ والمعنى ، فكانت النزعة الكلامية تفسد عليهم تذوقهم للنصوص ، وإدراكهم مواطن البلاغة والإعجاز .

ولعل الجاحظ (ت ٢٥٥) أول من تكلم على بعض المباحث المتعلقة بالإعجاز في كتابه (نظم القرآن) ، ولم يصلنا هذا الكتاب ، ولكن للجاحظ نفسه إشارات إلى هذا المصنف في كتابه (الحيوان) حيث يقول . « ولي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة . فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة : « لا يُصدَّعون عنها ولا ينزفون » وهاتان الكلمتان جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا . وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني^(١) » ولا يبعد أن يكون محمد بن زيد الواسطي (ت ٣٠٦)^(٢) قد استفاد من كتاب الجاحظ وبنى عليه حين صنف كتابه (إعجاز القرآن) الذي لم يصل إلينا كذلك ، وإنما وصل إلينا ما ينبيء عنه في (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني^(٣) الذي نعلم

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١٥٢/٢ حاشية ١ (٢) راجع كشف الظنون ١/١٢٠

(٣) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد واضع أصول البلاغة . أشهر كتبه

(دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) توفي سنة ٤٧١ هـ إنباه الرواة ٢/١٨٢ .

أنه شرح كتاب الواسطي شرحين أحدهما كبير سماه المعتضد ،
والآخر أصغر منه . ولقد كان عبد القاهر ذواقة للأسلوب القرآني ،
حتى أوشك أن يسبق عصره في بعض لمحاته الموقفة التي نفذ بها إلى
إدراك الجمال الفني في كتاب الله . واستمع إليه وهو يفسر هذه
الصورة البارعة في قوله تعالى (واشتعل الرأس شيباً) فسيعجبك منه
بلا ريب حسه المرهف الدقيق وفهمه طريقة القرآن المفضلة في التعبير
والتصوير . قال . « إن في الاستعارة ما لا يمكن بيبانه إلا من بعد
العلم بالنظم ، والوقوف على حقيقته . ومن دقيق ذلك وخفيه أنك
ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى (واشتعل الرأس شيباً)^(١) لم يزيدوا
فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ، ولم يروا
للمزية موجباً سواها . هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم ، وليس
الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ،
وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة ؛
ولكن لأن يسلك بالكلام طريقاً ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو
لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند إليه ، ويؤتى بالذي الفعل له في
المعنى منصوباً بعده ، مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك
الاول إنما كان من أجل هذا الثاني ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملازمة

كقولهم طاب زيد نفساً ، وقرَّ عمرو عيناً ، وتصيب عرقاً ، وكرم أصلاً ، وحسن وجهاً ، وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء الى ما ذلك الشيء من سببه. وذلك أنا نعلم أن « اشتعل » للشيب في المعنى ، وإن كان هو للرأس فقط ، كما أن طاب للنفس وقرَّ للعين ، وتصيب للعرق ، وإن أسند الى ما أسند اليه . يبين أن الشرف كان لان سألِك فيه هذا المسلك ، وتُوخي به هذا المذهب ، أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسنده الى الشيب صريحاً ، فتقول : اشتعل شيب الرأس ، والشيب في الرأس ، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن ، وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها ؟ فان قلت : فما السبب في أن كان « اشتعل » اذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ، ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه الينونة ؟ فانَّ السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس ، الذي هو أصل المعنى ، الشمول ، وأنه قد شاع فيه وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقر به ، وعمَّ جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به . وهذا ما لا يكون اذا قيل : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووازن ذلك أن تقول : اشتعل البيت ناراً ، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه ، وتقول : اشتعلت النار في البيت ، فلا يفيد ذلك ، بل

لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانباً منه ، فأما الشمول وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة . ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل : « وفجرنا الأرض عيوناً^(١) » التفجير للعيون في المعنى ، وواقع على الأرض في اللفظ كما أسند هناك الاشتعال الى الرأس . وقد حصل بذلك من معنى الشمول ما هنامثل الذي حصل هناك . وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيوناً كلها ، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان فيها . ولو أُجري اللفظ على ظاهره فقيل : وفجرنا عيون الأرض ، أو العيون في الأرض ، لم يفد ذلك ، ولم يدل عليه ، ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض ، وتبجس من أماكن فيها^(٢) .

آثرنا أن نقل هذا النص برمته — على طوله — لكيلا نذهب بتصرفنا فيه جمال فكرته ولقد بدا لنا عبد القاهر — بعبارة الفياضة هذه — مشغولاً بالتصوير القرآني ، ناعماً باخيلته البارعة ، مدركاً تناسقه الجمالي الاخاذ ، وان كان هنا كسواه من بلغاء عصره واقفاً عند لمحة من لمحات القرآن الجزئية ، غير مستوف خصائصه العامة ، ولا طريقته الموحدة في التعبير المتحرك النابض بالحياة .

(١) سورة القمر ١٢

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧٩-٨٠ وانظر تلخيص البيان للشريف الرضي ص ٢٢٠

ثم يأتي بعد عبدالقاهر الرماني^(١) (ت ٣٨٤) بكتابه في (الاعجاز)، ولم يصدر فيه عن رأي مبتكر، ولا استشفاف أدق لأسلوب القرآن، ثم يضع القاضي أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣)^(٢) كتابه المشهور (إعجاز القرآن) الذي جمع فيه كثيراً من المباحث البلاغية القرآنية ولكنه — على سعته وشموله — لا يصور إلا الفكرة السائدة عن الاعجاز في عصره، ممزوجة بالمسائل الكلامية الكثيرة التي تفقد الكتاب سماته في استقصاء الجمال الفني في القرآن.

نخلص من هذا كله الى أن الباحثين القدامى في البلاغة القرآنية قد شغلوا أنفسهم بمسائل كثيرة هي أبعد ما تكون عن الجو الفني المحض، فلم يتح لهم شغفهم بالتبويب والتقسيم فرصة لادرأك الخصائص العامة المشتركة التي يصدر عنها كتاب الله في تصويره وتعبيره فيهن النفوس، ويحرك المشاعر، ويفيض الدموع.

على أن النهضة الأدبية العربية في القرن الاخير قد وجهت أنظار الباحثين إلى مقالات جديدة في عناصر الجمال الفني في القرآن، فللسيد رشيد رضا صاحب المنار لمحات موقفة في فهم القرآن، ومثل

(١) سبقت ترجمته ص ٤ حاشية ١ وقد طبعت رسالته (النكت في إعجاز القرآن) في دار المعارف بالقاهرة مع كتاب (بيان إعجاز القرآن) للخطابي، ورسالة عبد القادر الجرجاني المسماة (بالرسالة الشافية) بتحقيق الدكتور محمد خلف الله والاستاذ محمد زغول سلام

(٢) سبقت ترجمته ص ١٠٩ حاشية ١

ذلك لاستاذه الامام الشيخ محمد عبده ، والسيد رشيد يذكرها له في تفسيره ، ومصطفى صادق الرافعي كلمات رائعة في هذا المجال في الجزء الثاني من كتابه (تاريخ آداب العرب) وقد خصه بالقرآن والبلاغة النبوية ، ولسيد قطب بعد هذا كله في كتابه (التصوير الفني في القرآن) تخريجات ذكية ، واستنباطات سديدة ، وأفكار ناضجة ، في استلهام الجمال القرآني بأسلوب مشرق جذاب .

ولقد عني مصطفى صادق الرافعي عناية خاصة بالنظم الموسيقي في القرآن ، فرأى : « انه مما لا يتعلق به أحد ، ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه ، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجر ، والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق ، والتفشي والتكرير »^(١) .

ولا بد لنا من ذكر بعض الأمثلة التي سردها ، ليزداد رأيه وضوحاً قال . « ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها ، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة ، فيبيء بعضها لبعض ، ويساند بعضها بعضاً ، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف ، مساوقة لها في النظم الموسيقي ، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب

(١) تاريخ آداب العرب ، للرافعي ٢/٢٢٥ .

الثقل أيها كان ، فلا تعذب ولا تساغ ، وربما كانت أو كس النصيين في حظ الكلام من الحرف والحركة ، فاذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيباً ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان ، واكتفتها بضروب من النغم الموسيقي ، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه ، وجاءت متمكنة في موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة .

من ذلك لفظ (النذر) جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً ، فضلاً عن جسأة هذا الحرف ونبوّه في اللسان ، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام ، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه . ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر »^(١) فتأمل هذا التركيب ، وأنعم ثم أنعم على تأمله ، وتذوق مواقع الحروف ، وأجر حركاتها في حسّ السمع ، وتأمل مواضع القلقة في دال (لقد) وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا) مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التابع في الفتحات إذا هي

جرت على اللسان ، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها ، كما تكون الأحماض في الأطعمة»^(١). ويرى الرافعي أن القرآن كان «نمطاً واحداً في القوة والإبداع وأن مرد ذلك إلى روح التركيب التي تعطف عليها جوانب الكلام الإلهي ، وهذه الروح — على حد تعبيره — «لم تُعرف قط في كلام عربي غير القرآن ، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس ، ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين ، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها ، ثم إلى تأليف هذا النظم ، فمن هنا تعلق بعضه على بعض ، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في جملة التركيب كما عرفت ، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب ، كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال إلى نحوها مما يدور عليه»^(٢).

وإنما كان حرص الرافعي على الأصل اللغوي في الإعجاز ، والتزامه له وعنايته به ، لأنه كان آخذاً نفسه بالكشف عن أسرار النظم الموسيقي في القرآن ، هذا النظم الذي يشبه السحر والذي ألف العرب على تعاديبهم

(١) تاريخ آداب العرب ، للرافعي ٢/٢٣٩

(٢) تاريخ آداب العرب ، للرافعي ٢/٢٦٠

وكون منهم أمة واحدة تطرب للحن واحد ، وتجتمع عليه قلوبها في الأرض بينما ترتفع به أرواحها في السماء .

وقد نحاسيد قطب في دراسته للقرآن منحى آخر ، فلم تكن مفردات القرآن وحدها شاغلة له بموسيقاها ، ولا تراكيب القرآن وحدها مستأثرة باهتمامه بتناسقها وترابطها ، وإنما كان نظره مركزاً في الأداة المفضلة للتعبير في كتاب الله ، ولقد وجدها في التصوير وراح يتحدث عنها بأسلوب شعري يستهوي النفوس ويهديها بحق إلى جمال القرآن : « التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن : فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض ،

وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات ، المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة فتنم عن الأحاسيس المضمرة .
إنها الحياة هنا ، وليست حكاية الحياة .

فاذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية ، وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المرئي ، إنما هي ألفاظ جامدة ، لألوان تصور ، ولا شخوص تعبر ، أدر كنا موضع الإعجاز في تعبير القرآن « اه^(١) .

وفي الفصول التي تلي هذا الفصل من كتابه (التصوير الفني في القرآن) أنشأ سيد قطب يذكر الدليل إثر الدليل على صحة نظريته ، وسلامة فكرته ، فعقد فصلاً للتخييل الحسي والتجسيم ، وفصلاً للتناسق الفني ، وثالثاً للقصة في القرآن ، ثم عرض بعض النماذج الإنسانية التي تنطق بها الآيات مؤكداً في نهاية المطاف أن الجدل القرآني قائم على ضرب من المنطق الوجداني الذي تشترك فيه « الألفاظ المعبرة ، والتعابير المصورة ، والصور الشاخصة ، والمشاهد الناطقة ، والقصص الكثيرة »^(٢)

(١) سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص ٣٣

(٢) » » » ص ١٨٧

ولعلّ الغاية التي انتهى إليها سيد قطب من فهم الأسلوب القرآني أن تكون أصدق ترجمة لمفهوما الحديث لإعجاز القرآن ، لأنها تساعد جيلنا الجديد على استرواح الجمال الفني الخالص في كتاب الله وتمكن الدارسين من استخلاص ذلك بأنفسهم ، والاستمتاع به بوجدانهم وشعورهم . ولما كان العرب المعاصرون للقرآن قد سُحروا قبل كل شيء بأسلوبه الذي حاولوا أن يعارضوه فما استطاعوا ، حتى إذا فهموه أدركوا جماله ومسّ قلوبهم بتأثيره ، فاننا سنقتصر في بحثنا هذا على الجانب الفني الخالص الذي نجده عنصراً مستقلاً بنفسه كفاً لإثبات فكرة الإعجاز وخلود القرآن بأسلوبه الذي يعلو ولا يُعْلَى . أما ما يتساق مع هذا العنصر الجمالي الفني من الأغراض الدينية والعلمية التي توسع فيها السيد رشيد رضا ، كاشتغال القرآن على العلوم الدينية والتشريعية ، وتحقيقه مسائل كانت مجهولة للبشر ، وعجز الزمان عن إبطال شيء منه ، ^(١) فهي أمور لا سبيل إلى إنكارها ، بل ليقومنّ عليها من الأدلة والبراهين مالا يحصى ، غير أنها أدخل في معاني الفلسفة القرآنية منها في بلاغة القرآن ، وليست هي مادة التحدي لفصحاء العرب ، وإنما تحدى القرآن العرب بأن يأتوا بمثل أسلوبه ، وأن

(٣) أنظر تفسير المنار ، ج ١ ص ١٩٨ الى ٢٣٨ (فصل في تحقيق وجوه الإعجاز ، بمنتهى الاختصار والابحاز) وقد جرى على هذا الزرقاني في مناهل العرفان ، في بحثه عن إعجاز القرآن ، ج ٢ ص ٢٢٧ الى ٢٧٨

يعبروا بمثل تعبيره وأن يبلغوا ذروته التي لا تُسمى في التصوير؛ فما إعجاز هذا الكتاب الكريم إلا سحره ، ولقد فعل سحره هذا فعله في القلوب في أوائل الوحي ، قبل أن تنزل آياته التشريعية ، ونبوءاته الغيبية ونظراته الكلية الكبرى إلى الكون والحياة والإنسان .

ونحن إذا ألقينا نظرة على كتاب من الكتب التقليدية في (علوم القرآن) - كإتقان السيوطي مثلاً - لنستخلص منه ما يتعلق بالأسلوب القرآني فقط كوجه من وجوه الإعجاز بالنسبة إلى السلف وقعنا على أبواب مختلفة توحى عناوينها بالكثير مما ينطق به مفهومنا الحديث للإعجاز ، ولكننا حين نمضي في قراءتها لانستطيع أن نتمأى فيها جمال القرآن ، وإنما نستطيع أن نكون بها فكرة عن ولوع علمائنا الأقدمين بالتفريع والتبويب واستنباط القواعد البلاغية الكثيرة من الشواهد القليلة . ها هو السيوطي يصهر في « إتقانه » جميع المباحث القرآنية البلاغية التي التقطها من عدد لا يستهان به من المصنفات السابقة ، وهو يشير إليها بأمانة وإخلاص ، فيدرس تشبيه القرآن واستعارته ، وكنايته وتعريضه ، وحقيقته ومجازه ، وحصره واختصاصه ، وإيجازه وإطنابه ، وخبره وإنشائه ، وجدله وأمثاله وأقسامه ، فلا يكاد يفوته فن من فنون القرآن الأدبية ، ولا يكاد ينسى جملة مستجادة لأحد المفسرين يبرز بها موطناً من مواطن الجمال القرآني ، ونحن مع ذلك - يا كبارنا العنصر الأسلوبي وإشادتنا به كعنصر أساسي في الإعجاز - لانستطيع

أن نكتشف في شيء من تلك المباحث التقليدية منبع السحر الأصيل للقرآن . إلا أننا لشديد ثقتنا بأن السحر كامن في صميم النسق القرآني في كل مقطع منه ومشهد ، سنستعير بعض عناوين « الإلتقان » وبعض الشواهد القرآنية مع تعقيب السيوطي عليها ، ثم تتبعها بطريقة فهمنا لها وتمآينا مواطن الجمال فيها ، ولن يضيرنا أن تكون عناوين أبحاثنا مشتركة ، لأن الاعطالات الخارجية الشكلية لا تغير شيئاً من روحانية القرآن الداخلية العميقة .

تسمية القرآن واستعاراته

يذكر السيوطي في هذا الباب تعريف التشبيه وأدواته وأقسامه باعتبار طرفيه وباعتبار وجهه ، حتى إذا قسمه باعتبار وجهه إلى مفرد ومركب قال : « والمركب أن ينتزع وجه الشبه من أمور مجموع بعضها إلى بعض ، كقوله « كمثل الحمار يحمل أسفاراً »^(١) فالتشبيه مركب من أحوال الحمار ، وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه ، وقوله : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » إلى قوله « لم تغن بالأمس »^(٢) فإن فيه عشر جمل وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه ، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضيها ، وانقراض نعيمها ، واغترار الناس بها ، بحال

(١) سورة الجمعة ٥

(٢) سورة يونس ٢٤

ماء نزل من السماء ، وأنبت أنواع العشب، وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة، حتى إذا طمع أهلها فيها وظنوا أنها مسدّمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة، فكأنها لم تكن بالأمس^(١) .

وانه ليعيننا أن نقف قليلاً عند تشبيه الحياة الدنيا ، فلقد أصاب السيوطي في استخلاص وجه الشبه ، وتقسيمه هذا التركيب القرآني إلى عشر جمل ، أما موضع الجمال الحقيقي في هذا المشهد — مشهد الحياة القصيرة التي يوشك أن تزول — فلم يتبعه السيوطي في تناسق الجمل العشر ، والصور التي تطويها كل جملة منها في أوقات يتفاوت عرضها الخيالي طولاً وقصراً ، لأن هذا التفاوت في العرض الخيالي تبعاً لمراحل المشهد المصور لم يكن جزءاً من التشبيه المركب ، فما على السيوطي إلا أن يذكر المعنى العام للآية ، وقد وفق فيه وأجاد . وإن علينا نحن أن نشير إلى المراحل التي أبطأ فيها التصوير وتمهل ، أو التي اندفع فيها وأسرع ، حتى تم لهذا المشهد القرآني من الإعجاز بالألفاظ الجامدة ما لا يتم للفنان من الإبداع بالريشة والألوان .

لقد استخدمت في هذا المشهد الوسائل المقصورة لعرض مراحل النبات ، فالفاء التعقيمية تطوي المشاهد بسرعة عظيمة ، ما كاد الماء

(١) الاتقان ج/ ٧٠-٧١ وفي (تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف

الرضي ص ١٥٥) : « أخذت الأرض زخرفها » : أي لبست زينتها بألوان الأزهار ، وأصابع الرياض كما يقال : أخذت المرأة قناعها .

ينزل من السماء حتى اختلط به نبات الارض مباشرة ، وأصبح فجأة في
متناول الناس يأكلونه ، والأنعام تتمتع به ، « إنما مثل الحياة الدنيا
كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والأنعام »
ولكن أهل هذه الارض المتمتعين بنباتها البهيج يمتد بهم الغرور ،
ويلجون في اللهو كأنهم يعيشون أبداً ، وكأنهم يقدرون على إخلاد
الأرض وإخلاد أنفسهم فيها ، غارقين في متعها ، متقلبين في نعمائها ،
مسحورين بزخرفها ، فاستخدمت « حتى » الدالة على امتداد الصورة
امتداداً يُعرف أوله ويُجهل منتهاه ، وتتابع أوصاف الغرور الانساني
تتري ، لكل وصف منها تعبير متمهل متبطيء ، فأما الأرض فشحُصت
مرتين ، وقامت بحر كتين ، إذ أخذت بنفسها زخرفها كما تفعل العروس
في يوم جلوتها ، وتطلبت الزينة تطلباً وسعت إليها سعياً فلم تُزَيْن ولكنها
ازيَنت ، وأما أهل الأرض فانتفخت أوداجهم زهواً واختيالاً ،
وصعروا خدودهم عُجباً وكبراً ، وأيقنوا - وإن كان يقينهم ظناً
وخيالاً - أنهم في الأرض على كل شيء قادرين ، ولكن الظن
لا يغني عن الحق شيئاً ، وهذه الآماد الطوال كلها ليست إلا ومضات
خيالية تتلاشى كما تتلاشى الأطياف ، ففي لحظة من ليل أو نهار يأتي
تلك الأرض أمر الله فيطوي تلك الأخيلة الكواذب في وقت كلمح
البصر بل هو أقرب ، « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن
فيكون » وانظر فما من زخرف ، وانظر فما من زينة ، ثم انظر فالناس

المغرورون أعجز من أن يتصوروا ولو بالخيال ربوعهم ومغانيمهم في تلك الأرض التي أصبح نباتها حصيداً هشيماً تذروه الرياح «حتى إذا أخذت الأرض زخرفاً وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تكن بالأمس . كذلك فصل الآيات لقوم يتفكرون » .

ويذكر السيوطي بعد ذلك في الباب نفسه ما يتعلق بالاستعارة ويقسمها باعتبار أركانها إلى خمسة أقسام ، ويستشهد بوفرة من الأمثلة على كل قسم منها ، فاذا مرّ بقوله تعالى « والصبح إذا تنفس »^(١) جعل ذلك من باب استعارة محسوس لمحسوس بوجه محسوس ، وأوضح ذلك بقوله « استعير خروج النفس شيئاً فشيئاً لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلاً قليلاً ، بجامع التابع على طريق التدرّج ، وكل ذلك محسوس »^(٢) وقد فاته أن ينبه هنا على ظاهرة التشخيص ، وسمتها في القرآن واضحة كل الوضوح ، فالحياة تخلع في هذه الآية على الصبح ، حتى لقد صار كائناً حياً يتنفس ، بل إنساناً ذا عواطف وخلجات نفسية تشرق الحياة بأشراقه من ثغره المنفرج عن ابتسامته وديعة وهو يتنفس بهدوء . وإذا تلا قوله تعالى « بل نقذف بالحق على

(١) سورة التكوّير ١٨

(٢) الاتقان ٧٤/٢ وأجمل من هذا قول الشريف الرضي (في مجازات القرآن

٣٦٠) : « والتنفس هنا عبارة عن خروج ضوء الصبح من عموم غسق الليل ، فكأنه متنفس من كرب ، أو متروّح من هم » .

الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق ^(١) لا يرى في ذلك إلا ضرباً من استعارة محسوس لمعقول بوجه عقلي « فالقذف والدمغ مستعاران وهما محسوسان ، والحق والباطل مستعار لهما وهما معقولان » ^(٢) فما في التعبير بالقذف من إيحاء ، وبالدمغ من إشعاع ، يظل غامضاً بهذا التفسير ، ولكن جمال النص يكاد ينطق بالإفصاح عن نفسه حين تخيل في الآية الحق — وهو معنى مجرد — أشبه بالجسم القوي العنيف الذي ينفذ في جسم الباطل الضعيف الخفيف ، فيرزح الباطل تحت وطأة الحق الشديدة التي تدمغه دمعاً وتكاد تلصقه بالتراب ، وترهق روحه . وهكذا يجتمع في هذا المثل التجسيم والتشخيص والتخييل ؛ أما التجسيم ففي تصوير الحق بالقذيفة الثقيلة ، وأما التشخيص ففي دمع الحق الباطل وإزهاقه ، وأما التخييل ففي تصور نوع الثقل الذي تحدته حركة القذف ثم الازهاق ، فانها أصوات شدادتوشك أن تكون صدى لعظام الباطل وهي تتحطم وتقعقع ^(٣) . وإذا قرأ السيوطي قوله تعالى في وصف جهنم « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور ، تكاد تميز من الغيظ » ^(٤) لم يجد في هذا المشهد المروع إلا

(١) سورة الأنبياء ١٨

(٢) الاتقان ٧٤/٢

(٣) ولقد أصاب الشريف الرضي حين لاحظ أن « الدمغ إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال ، وعلى طريق الغلبة والاستعلاء . فكان الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه » مجازات القرآن ٢٢٨

(٤) سورة الملك ٧-٨

استعارة معقول لمحسوس والجامع عقلي ، مع أن تشخيص جهنم في هذه الآية هو الذي يجعل المشهد حافلاً بالحياة والحركة ، فهي مغيظة محنقة تحاول أن تكظم غيظها حين أُلقيَ إليها المجرمون ، ولكن منظرهم البشع كان أشد من أن تتحملة وتصبر عليه ، فتلقتهم بالسنة لهبها وهي تتر وتشهق ، وبمهلها وقطرانها وهي تغلي وتفور ، حتى كاد صدرها ينفجر حقداً عليهم ، ومقتناً لوجوههم السود . فليس في الصورة مجرد استعارة معقول لمحسوس ، وإنما استعيرت لجهنم شخصية آدمية ، لها انفعالات وجدانية ، وخواجات عاطفية ، فهي تشهق شهيق الباكين ، وهي تغضب وتثور ، وهي ذات نفس حادة الشعور ^(١) .

لسنا ندعي أن تحليلات الأقدمين لمشاهد القرآن الفنية لم تكن تتيح لهم أن يستشعروا جمال هذا الكتاب الكريم ، وإنما نريد أن نقول : إن استشعارهم ذلك الجمال كان بطبيعة الحال متأثراً بمنهجهم الذي يجعل للقاعدة البلاغية المكان الأول ، ولكن للتقعيد مساوية كثيرة أهمها أن جفاف العاطفة يُفقد المشهد المرسوم قيمته التصويرية الفنية . ولذلك نجد لزماً علينا أن نشيد ببعض التحليلات الموفقة التي تبرز جمال الصورة القرآنية عند علمائنا السالفين ، فالسيوطي لدى

(١) ولقد تلمس الشريف الرضي جمال هذه الصورة حين رأى أن الله سبحانه « وصف النار بصفة المغيظ الغضبان ، الذي من شأنه أن يبالغ في الانتقام ، ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام » مجازات القرآن ص ٣٣٩

تفسير قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر)^(١) ينقل خلاصة آراء البلاغيين في الاستعاضة عن « بلغ » بـ « اصدع » ، ويكاد تعقيبه يشعر بأنه أدرك أن الاستعارة هنا ضرب من التجسيم مع التخيل لشيء معنوي مجرد ، فهو يقول . « استعير الصدع — وهو كسر الزجاج ، وهو محسوس — للتبليغ وهو معقول ، والجامع التأثير ، وهو أبلغ من « بلغ » وإن كان بمعناه لأن تأثير الصدع أبلغ من تأثير التبليغ ، فقد لا يؤثر التبليغ ، والصدع يؤثر جزماً^(٢) وكأن السيوطي يقول بتعبير آخر: إن ما أمر به عليه السلام جسم فأصبح مادة سريعة العطب قابلة للشق والكسر ، فليصدعها بقوة وليخيل إلى قارىء هذه العبارة أنه يسمع حركة هذه المادة المصدوعة ، فذلك أدل على نفاذ تبليغه إلى القلوب من أي صيغة أخرى . ولك أن تستحسن أيضاً تذوقه جمال هذه الاستعارة في قوله تعالى « فوجد فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه »^(٣) فإنه يقول : « شبه ميلانه للسقوط بانحراف الحي ، فأثبت

(١) سورة الحج ٩٤

(٢) الاتقان ٧٥/٢ (وقارن بمجازات القرآن للشريف الرضي ص ١٨٩)

وينقل السيوطي في تفسير هذه الآية عن ابن أبي الإصبع أن معناها « صرح بجميع ما أوحى إليك ، وبلغ كل ما أمرت ببيانه وإن شق ذلك على بعض القلوب فأنصدت ، والمشابهة بينها فيما يؤثره التصريح في القلوب فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من القبض والانبساط ، ويلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار ، كما يظهر على ظاهر الزجاج المصدوعة » الاتقان ج ٢ ص ٩٢

(٣) سورة الكهف ٧٧

له الإرادة التي هي من خواص العقلاء»^(١) ومن ذلك قوله في « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا »^(٢) شبه استظهار العبد بالله ووثوقه بحمايته ، والنجاة من المكاره باستمسك الواقع في مهواة بحبل وثيق مدلى من مكان مرتفع يأمن انقطاعه » ومن ذلك قوله في « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض »^(٣) أصل الموح حركة الماء ، فاستعمل في حركتهم على سبيل الاستعارة ، والجامع سرعة الاضطراب وتتابعه في الكثرة »^(٤).

والخلاصة ، أننا لا نريد أن نستبدل بالتجسيم والتشخيص والتخييل عبارات البلاغيين القدامى « التشبيه والاستعارة وما شابه ذلك » ، لأن هذه التسميات المختلفة شكليات لاتمس جوهر الموضوع في شيء ؛ وإنما نريد ألا نغفل عن الحياة والحركة والتناسق الفني في المشاهد القرآنية ، فانها أوضح من أن تكتم ، وأقوى من أن تهمل ، وبعد ذلك فلنعبّر عن الصورة المحسنة أو المتخيلة بالتعبير الذي تؤثره ، فيما أن يكون من الاصطلاحات القديمة التي تَبَثَّ فيها الحياة وتُنْفَخ فيها الروح ، وإما أن يكون بالفاظنا الحديثة السهلة التي تنفر من

(١) الاتقان ٧٦/٢ وقارن بالبرهان ٢٩١/٢ ؛ وتأويل مشكل القرآن

لابن قتيبة ١٠٠

(٢) سورة آل عمران ١٠٣ وانظر الاتقان ٧٦/٢

(٣) سورة الكهف ١٠٠

(٤) الاتقان ٧٤/٢ وقارن بمجازات القرآن ٢١٧

التعميد وتأبى كلفة التعميد ، وتصور الحياة بريشة الحياة نفسها
وبأصباغها الزاهية وألوانها البديعة .

المجاز والكناية

لقد استدعى بحثنا عن التشبيه والاستعارة أن نُجري شيئاً من
التعديل في تصورنا طريقة القرآن في التعبير ، كما كان يفهمها علماءنا
السالفون رضي الله عنهم وأرضاهم ، ونفعنا بعلومهم . وكان هذا
التعديل الطفيف ضرورياً بالنسبة إلى التشبيه والاستعارة لقيام أكثر
الصور المفصلة على أحدهما ، وتركيبها منهما . فغير هذين البابين قلما
يُحوجنا إلى تعديل في تصوره أو فهمه ، فنستطيع أن ندرسه على ما نجده
في ثنايا الكتب القديمة ، لأنه يدخل في التصوير العام ، أو التعبير المجمل ،
الذي برع الأقدمون في تفريعه وتبويبه وتوفير الشواهد عليه ،
وفهموه من روح التركيب في كل نص على حدة ؛ تستوي في ذلك
مباحثهم عن المجاز العام الذي ليست علاقته المشابهة ، وعن الكناية
وأشكال الرموز بها ، وعن الإيجاز والمساواة والإطناب ، وعن الخبر
والإنشاء ، وما شابه ذلك . ولقد يتيسر لأحدنا لدى عرض تلك
المباحث وشواهد ذوق خاص يودّ لو يضيفه إلى المفهومات القديمة
ولكن ذلك لن يغير من طبيعة الموضوع شيئاً ، لأن علماءنا السالفين
كانوا في ذلك كله أقرب منا إلى النبع وأقدر منا على تتبع خصائص
الأسلوب العربي ، ولا سيما الأسلوب القرآني . فما يضيفه أحدنا إلى

ملاحظاتهم وتوجيهاتهم ليس إلا قبساً من نارهم وشعاعاً من نورهم .
فلنسمع إليهم يحدثونا عن مجاز القرآن ولنستجد ما استجدوه من
ألوان التعبير المجازي ، فنحن معهم أمام ما سموه بالمجاز العقلي الذي
علاقته المشابهة ، وهو واقع في التركيب ، وأمام ما سموه بالمجاز اللغوي
الذي يستعمل فيه اللفظ في غير ما وضع له ، وهو واقع في المفرد .
ولن نخوض الآن معهم في أقسام كل من المجازين ، فلتفصيل ذلك نرجع
إلى كتب البلاغة ، وإنما نتابعهم في بعض شواهدهم ، فمن المجاز العقلي
ما يكون أحد طرفيه حقيقياً دون الآخر ، كقوله تعالى (فأمة هاوية)^(١)
قالوا في توضيح ذلك : « فاسم الام » الهاوية « مجاز ، أي كما أن الام
كافلة لولدها وملجأه ، كذلك النار للكافرين كافلة ومأوى ومرجع »^(٢)
وهذا فهم شديد ، خصوصاً إذا وقفنا عند هذا التركيب وحده ولم
نربطه بالنسق القرآني الذي صاحبه ، فان ربطناه به وقرأنا الآيات كلها
« وأما من خفت موازينه فأمة هاوية . وما أدراك ما هي ؟ نار حامية »^(٣)
تجلى لنا من مجموع المشهد معنى آخر لطيف ، فالأعمال المعنوية جسّمت
ووزنت بموازن حسية ، فاذا هي خفاف ترتفع بها كفه الموازين ،
فلا يقابل خفتها وارتفاعها إلا هاوية سحيقة منخفضة في الدرك الأسفل

(١) سورة القارعة ٩

(٢) الاتقان ٦٠/٢

(٣) سورة القارعة ٨-١١

من النار الحامية التي لا يكون للمجرم في ذلك الهول أم سواها يلجأ إليها ويعتصم بها . وساءت ملجأً ومعتصماً !

ومن المجاز اللغوي إطلاق اسم الكل على الجزء ، نحو « يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت »^(١) أي أناملهم ، ونكتة التعبير عنها بالأصابع الإشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة في الفرار ،^(٢) وفي ذلك تصوير لحالتهم النفسية وما أصابهم من الذعر والهلع وهم يولون هارين .

ومن الغريب حقاً أن بعض العلماء أنكروا وقوع المجاز في القرآن « منهم الظاهرية^(٣) وابن القاص^(٤) من الشافعية ، وابن خُوَيْرَمَنْذَاذ^(٥) من المالكية ، وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب والقرآن منزّه عنه ، وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير ، وذلك محال على الله تعالى . لكن الذين تذوقوا جمال الأسلوب القرآني يرون أن

(١) سورة البقرة ١٩

(٢) الاتقان ٦٠/٢ (وانظر البرهان ٢/٢٦٢)

(٣) عم أهل الظاهر ، أتباع الإمام داود بن علي بن خلف المعروف بالظاهري لأخذه بظاهر النصوص . وقد سبقت ترجمته ص ٢٣٠ حاشية ٤

(٤) ابن القاص هو أحمد الطبري ، أبو العباس ، من فقهاء الشافعية . من

كتبه (أدب القاضي) توفي سنة ٣٣٥ هـ (طبقات الشافعية ٢/١٠٣)

(٥) ابن خُوَيْرَمَنْذَاذ (بمعجمتين أو إهمال الأولى) من علماء المالكية ، تلميذ

الأبهري . توفي في حدود سنة ٤٠٠ هـ .

هذه الشبهة باطلة « ولو سقط المجاز من القرآن لسقط منه شطر الحسن ، فقد اتفق الباعث على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، ولو وجب خلو القرآن من المجاز لوجب خلوه من الحذف والتوكيد وتثنية القصص وغيرها»^(١) ولما كان بعض العلماء يعتبر الكناية ضرباً من ضروب المجاز ، فقد أنكر وقوعها في القرآن منكر والمجاز فيه . ولكن للكناية مفهوماً آخر غير مفهوم المجاز ، فهي لفظ أريد به لازم معناه ، وهي — على هذا — كثيرة في القرآن ، لأنها من أبلغ الأساليب في الرموز والإيماء . وللقرآن قصد إلى الرمز في مواطن لا يجمل فيها التصريح ، فإذا أراد الله أن يعبر عن الغاية من المعاشرة الزوجية — وهي التناسل — رمز إلى ذلك بلفظ « الحرت » في قوله « نساؤكم حرت لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم »^(٢) ويكمل وصف تلك العلاقة بين الزوجين — بما فيها من مخالطة وملابسة — بأنها لباس من كل منهما للآخر « هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن »^(٣) . ومن هذا الباب في الإيماء اللطيف الذي يعلمنا أدب التعبير « أو لامستم النساء »^(٤) ، « أحل لكم ليلة الصيام الرفث

(١) الاتقان ٥٩/٢

(٢) سورة البقرة ٢٢٣ (وانظر الاتقان ٧٩/٢) .

(٣) سورة البقرة ١٨٧ (وانظر البرهان ٣٠٤/٢ ومجازات القرآن ٣٥٤)

(٤) سورة النساء ٤٣

إلى نساتكم»^(١) « فلما تغشأها حملت حملاً خفيفاً^(٢) » ومن أجمل الكنايات في مثل هذه المعاني «والذين هم لفروجهم حافظون»^(٣) « والحافظين فروجهم والحافظات »^(٤) لأن المراد بالفروج هنا فروج القمصان والثياب ،^(٥) فما تنفرج ثياب المؤمنين عن ربية ولا تنكشف دروع المؤمنات عن منكر ، بل المؤمنون والمؤمنات نقيه ثيابهم ، طاهرة أذيالهم ، عفيفة أنفسهم ، على حد قوله تعالى « وثيابك فطهر »^(٦) كناية عن عفة النفس وطهارة الذيل^(٧) . ولذلك سمو هذا النوع من التعبير « كناية عن كناية » ، وبه قال المفسرون في تأويل قوله تعالى « ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا »^(٨) فإحصانها فرجها كناية عن طهارة ذيلها وعفتها الكاملة^(٩) ، وكان النفخ في جيب درعها — كما ورد — تأكيداً لهذا المعنى الرمزي الذي يجمع إلى أدب التعبير إشارة لانظيرها

(١) سورة البقرة ١٨٧

(٢) سورة الاعراف ١٨٩ (وانظر البرهان ٣٠٤/٢)

(٣) سورة المؤمنون ٥

(٤) سورة الاحزاب ٣٥

(٥) انظر البرهان ٣٠٥/٢

(٦) سورة المدثر ٤

(٧) مجازات القرآن ٣٥٣ ؛ تأويل مشكل القرآن ١٠٧

(٨) سورة التحريم

(٩) الاتقان ٧٩/٢ وانظر البرهان ٣٠٥/٢ - ٣٠٦

بعفة السيدة مريم التي فضلها الله على نساء العالمين .
وُتستخدم الكناية في القرآن لاختصار مقدمات لا أهمية لها
بالتنبية على النتيجة الحاسمة التي يتقرر فيها المصير . مثاله « تَبَّتْ يَدَا أَبِي
لَهَبٍ وَتَبَّ »^(١) فهذه كناية عن أنه جهنمي^(٢) ، وأن مصيره إلى اللهب
« حَمَالَةَ الْخَطْبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ »^(٣) فهي تسعى بالنميمة ،
ومصيرها أن تكون حطباءً للجهنم^(٤) ، وأن تكون مغلوطة اليد . وواضح
أن الكناية هنا لخصت في ومضة واحدة المصير الذي يراد تصويره .
ولقد بلغ بالقرآن حرصه على الرمز والايحاء أن يكتفي عن الحقائق
الدينية الكبرى المتعلقة بذات الله وصفاته ، بأسلوب تزيده المبالغة
حسناً ، لأنه يقرب الفكرة المجردة من الصورة المحسوسة ، فتستحيل
المبالغة فيه بلاغةً ، ويصير التهويل فيه تخيلاً . فالله يقول في سعة جوده
وكرمه : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ »^(٥) ويؤثر للتعبير
عن هذا المعنى اللفظ نفسه الذي يكتفي به عن إسراف العبد وتبذيره
في قوله « وَلَا تَبْسُطُهَا كُلَّ الْبَسْطِ »^(٦) أي لا تباليغ في الإنفاق والعطاء

(١) سورة المسد ١

(٢) البرهان ٣٠٨/٢

(٣) سورة المسد ٤ - ٥

(٤) البرهان ٣٠٨/٢

(٥) سورة المائدة ٦٤ (وانظر البرهان ٣٠٨/٢ والاتقان ٧٩/٢)

(٦) سورة الإسراء ٢٩

كمن يبسط يده فلا يردها عن الإنفاق شيء . وفي هذا الجو الرمزي نستطيع أن تتلمّ جمال الكناية عن الشؤون الغيبية « بالمفتاح » : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو »^(١) وجمال الكناية عن أزلية الأرزاق والمقدرات بالخزائن : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم »^(٢) .

وإن القرآن ليدعك أحياناً ترسم في خيالك صورة ناطقة لا تقف عند الرمز الكنائي ، بل تجاوزه إلى التعريض . وإذا كنت في الكناية تذكر اللفظ وتريد لازم معناه ، فإنك في التعريض تذكر اللفظ وتلوح به إلى ما ليس من معناه ، لا حقيقةً ولا مجازاً . مثاله : « وقالوا : لا تنفروا في الحر ، قل نارُ جهنم أشدُّ حرّاً »^(٣) « فلو أجرينا الكلام على ظاهره لكان إخباراً بازدياد حرّ جهنم ، وكونه أشد من حر الدنيا وهو معلوم للمخاطبين بالقرآن ، فلا معنى لذكره والتنبيه عليه ، ولكن الغرض الحقيقي التعريض بهؤلاء المتخلفين عن القتال المعتذرين بشدة الحر بأنهم سيردون جهنم ويجدون حرها الذي لا يوصف . هذا ما نفهمه من الآية ، ولكن السبكي في كتابه « الإغريض ،

(١) سورة الأنعام ٥٩ (وانظر مجازات القرآن ١٣٦)

(٢) سورة الحجر ٢١

(٣) سورة التوبة ٨١

في الفرق بين الكناية والتعريض^(١) يذهب في فهمها مذهباً آخر يقيمه على منهجه في التفرقة بين هذين الأسلوبين فهو يقول : « الكناية لفظ استعمل في معناه مراداً منه لازمُ المعنى، فهي بحسب استعمال اللفظ في المعنى حقيقة، والتجوز في إرادة إفادة ما لم يوضع له، وقد لا يراد بها المعنى بل يعبر بالملزوم عن اللازم، وهي حينئذ مجاز، ومن أمثله : « قل نارُ جهنم أشد حراً » : فإنه لم يقصد إفادة ذلك، لأنه معلوم، بل إفادة لازمه : وهو أنهم يردونها ويجدون حرّاً إن لم يجاهدوا . وأما التعريض فهو لفظ استعمل في معناه للتلويح بغيره، نحو « بل فعله كبيرهم هذا »^(٢) نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتخذة آلهة، لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرها عن ذلك الفعل، والإله لا يكون عاجزاً^(٣) .

ولا ريب أن معنى التلويح والتعريض ظاهر في قوله « بل فعله كبيرهم هذا » ولكنه ليس أقل ظهوراً ووضوحاً في الآية السابقة « قل نارُ جهنم أشد حراً » كما فهمناها، فكلا المثليين يصلح شاهداً على التعريض الذي فيه معنى أبلغ من الكناية .

(١) السبكي هو تقي الدين علي بن عبد الكافي المتوفى سنة ٥٧٥٦هـ وكتابه

(الإغريض) ذكره في (كشف الظنون ١ / ١٣٠)

(٢) سورة الأنبياء ٦٣

(٣) نقلاً عن الاتقان ٢ / ٨١

ويدق التعبير القرآني في مواطن التعريض ، وما يزال يدق ويلطف ويرق حتى يصبح ظللاً خفياً رفاقاً تستثير الكرامة الانسانية من غير أن تجرحها أو تخدش إحساسها كما في قوله « ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون »^(٢) فالمعنى بلا ريب : وما لكم لا تعبدون الذي فطركم ، ولكنه لم يقسُ في تعريضه بهم ، بل كان في تعبيره - كما يقول السكاكي^(٣) بحق - ضرباً من « التلطف بهم واحتراز عن مخاشنتهم »^(٤) .

وهكذا لم تخلُ آراء الأقدمين في بلاغة القرآن من ذكاء في التخريج ، وقوة في الاستنباط ، ولطف في التذوق .

(١) سورة يس ٢٢

(٢) البرهان ٣١٣/٢

(٣) السكاكي هو يوسف بن أبي بكر بن محمد ، أبو يعقوب - صاحب

(مفتاح العلوم) توفي سنة ٦٢٦ هـ . (بغية الوعاة ص ٤٢٥)

(٤) الاتقان ٨١/٢

خاتمة

و كنا نريد للقلم في هذا الميدان أن يصول ويجول ، فنتحدث عن القرآن - في بنائه الفني - كيف ينسق مقتضيات الأحوال مع ألفاظها وتراكيبها وصورها تنسيقات عجيبة ، فيكون فيه للإسهاب ألوان من الصور المتمهلة ودرجات من الإيقاعات المتصاعدة ، وللإختصار وثبات في التلوين ، وقفزات في الإيقاع . ولكن تصوير هذا كله ضرب من التوسع في الأسلوب القرآني لم يكن مقصوداً لذاته في كتابنا هذا ، فقد اتجهنا بالدرجة الأولى إلى علوم القرآن ، فألمننا بأكثرها إلماً ، وحاولنا تتبعها في أطوارها التاريخية ، ثم أوأمانا من غير إسهاب إلى أسلوب القرآن في التصوير والتعبير .

وفي اعتقادنا أن القرآن - في بنائه الفني - خليق أن يفرد له كتاب مستقل سهل العبارة مشرق الديباجة تعرض به فكرة (الإعجاز) عرضاً جديداً يكمن فيه سحر القرآن وجمال بيانه . ولعلنا أن نسهم في هذا إذا يسر الله لنا الوقت والجهد والنشاط ، وهي على كل حال أمنية حلوة ينطوي عليها الصدر منذ زمن بعيد .
والله نسأل أن ينفع بكتابنا هذا كل من قرأه ، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم .

(١)

مسرد الأعلام

(الأشخاص)

	٤ -
أحمد الدمياطي (صاحب إتعايف البشر)	آدم (أبو البشر) ١٤٠، ٩٨
١٣٩ ح ٢، ١٥٣ ح ١.	الآلوسي (محمود) صاحب روح المعاني ١٩٥
أحمد محمد شاكر ٧٨ ح ٥، ٧٩ ح ٢،	ح ١٩٧، ٤، ١ ح ٢٤٦
٨٢ ح ٢، ١٢٨ ح ١	ابراهيم الخليل (عليه السلام) ٩٩، ٥٣
الأزهري (صاحب التهذيب) ١٣٤ ح ١	ابراهيم بن محمد الشيرازي (القيه الشافعي)
اسكندر كاظم (ميرزا) ١٠٠ ح ٢	١٥٧ ح ٥
أبو الأسود الدؤلي ١٦٠ ح ٢، ١١٥ ح ٤،	أبي بن كم (الصحابي) ٦٨، ٦٠ ح ١
١١٦ ح ٣ و ٥، ١١٧، ١١٨	و ٢، ٢٢، ٧٣، ٧٤، ٨٨ ح ١، ٩١
ابن أشته (محمد بن عبد الله، أبو بكر)	ح ٢، ١٢٩ ح ٣، ١٣٨ ح ٣،
٨٦ ح ١، ٩١ ح ١، ٩٢	١٤٩، ١٥١، ١٥٣ ح ٥،
الأشعري (الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل)	٢٣٦، ٢٠٢
٩٠ ح ٣، ١٠٠، ٢١٠	أحمد بن حنبل (الإمام) ١٨، ٥٧،
ابن أبي الإصبع (عبد العظيم بن عبد الواحد)	٦٢ ح ١، ٦٤، ٧٥، ٧٦ ح ٢،
٢٠ ح ١، ٢٦٩ ح ٢	٧٨ ح ٥، ٧٩ ح ١ و ٢، ٨٢
الأصفهاني (محمد بن بحر، المفسر) ٢٤٥ *	ح ٢، ١٠٨، ١٢٤، ١٢٨ ح ١،
١ ح	٢١٤ ح ٢
الأعمش (سليمان بن مهران) ١٨،	
٤٠ ح ١، ١٥٠، ١٥٣ ح ٥	

(١) أسقطنا في ترتيب الاسماء الأحراف التالية: الد، ابو، ابن، ورمزنا بحرف (ح) إلى الحاشية. وأشرنا بنجمة (*) قبل رقم الصفحة إلى الموضوع الذي تُرجم فيه العَلَمُ المبحوث عنه.

بروكلمان (المستشرق Brockelmann)
 ١١٣ ح ١ ، ١٨٦ ح ٢
 البزار (الحافظ احمد بن عمرو بن عبد الخالق)
 ١٥٠ ح ١ ، ٥٩
 ابن بشكوال (صاحب الصلة) ٢ ح ١
 ابن بطوطة (الرحالة المشهور) ١٠١
 بفنملر (Pfanmüller) ١٢٦ ح ١
 أبو بكر الصديق ١٦ ، ٣٨ ح ٢ ، ٧٣ ،
 ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ،
 ٨٧ ح ١ ، ٩٠ ، ٩١ ح ٢ ، ٩٤ ،
 ٩٥ ، ٩٧ ، ١٤١ ، ١٩٤
 أبو بكر (الصحابي) ١٢٩ ح ٣ ، ١٣١
 بل (المستشرق R. Bell) ١٧٧ ح ٣
 بلاشير (المستشرق R. Blachère)
 ٧ ح ١ ، ١٢ ح ٢ ، ٦٨ ح ٢ ،
 ٧٣ ح ٢ ، ٨٨ ح ١ ، ٨٩ ح ١ ،
 ٩٢ ح ١ ، ٩٣ ح ١ ، ٩٤ ح ١ ،
 ٩٤ ح ٢ ، ١٠٠ ح ٢ ، ١٠٢ ح ١ ،
 ١٠٣ ح ١ ، ١٠٤ ح ١ ، ١١٧ ح ١ ،
 ١١٨ ح ١ ، ١٢٥ ح ٣ ، ١٤٠ ح ١ ،
 ١٢٦ ح ١ ، ١٣٧ ح ١ ، ١٣٧ ح ١ ،
 ١٥٠ ح ٢ ، ١٥٤ ح ١ ، ١٦١ ح ١ ،
 ١٧٥ ح ١ ، ١٧٦ ح ٢ ، ١٧٧ ح ١ ،
 ١٧٨ ح ١ ، ١٨٢ ح ١ ، ١٨٢ ح ١ ،
 ١٨٧ ح ٤ ، ٢٠١ ح ٣ ، ٢٠٢ ح ١
 البُلُقيني (جلال الدين ، عبد الرحمن بن عمر
 بن رسلان) ٢١ ح ١ ، * ٢٢ ح ٤ ،
 ٢٢٦ ح ١
 ابن البناء (ابو العباس المراكشي) ١٠٧ ح ٢

إمام الحرمين (عبد الملك بن أبي عبد الله ،
 الجويني) * ٢١٣ ح ١
 ابن الأثير (أبو بكر) ١٨ ح ٤
 أنس بن مالك (الصحابي) ٦٨ ح ١ ،
 ٦٩ ح ٢ ، ٨٧ ح ١ ، ١٢٩ ح ٣ ،
 ١٤٨ ، ١٧٠ ح ١ ، ٢٣٧
 الأوزاعي ١٨
 أوس بن حذيفة ١٢٤
 أبو أيوب الأنصاري (الصحابي) ١٢٩
 ح ٣ ، ١٤٩

- ب -

الباقلاني (محمد بن الطيب ، ابو بكر)
 * ١٠٩ ح ١ ، ١١١ ، ١٣٠ ،
 ١٤٥ ح ٢ ، ١٥٩ ح ٣ ، ١٧٨ ح ٣ ،
 ٢٠٠ ح ١
 البخاري (الامام) ١٨ ، ٢٢ ح ٤ ،
 ٢٨ ح ٤ ، ٢٩ ح ٢ ، ٤٩ ، ٥٢ ح ١ ،
 ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ح ١ ،
 ٦٢ ح ١ ، ٦٧ ، ٦٨ ح ١ ، ٢ ،
 ٧٦ ح ٢ ، ٨١ ، ٨٢ ح ٢ ، ٨٥ ،
 ٨٧ ح ١ ، ٨٨ ح ١ ، ٩٣ ح ٢ ،
 ١٢٨ ح ١ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ح ١
 بدر المتولي عبد الباسط ٢١٩ ح ٤
 برتزل (المستشرق Pretzel) ١٠١ ح ١ ،
 ١٦١ ح ١
 ابن بركان (أبو الحكم ، عبد السلام بن
 عبد الرحمن) * ٢٣٤ ح ١
 برجستراسر (المستشرق G. Bergsträsser)
 ١٠١ ، ١٠١ ح ١ ، ١٥٤ ح ٣

ابن جرير (محمد) = انظر الطبري
 ابن جرير ١٨
 ابن الجزري (ابو الحبر، شمس الدين .
 شيخ القراء) * ٧٢ ح ٣ ، ٩٧ ،
 ١٠٢ ، ١٣٠ ح ٥ ، ١٣٣ ح ٣ ،
 ١٣٨ ح ١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ح ١ و ٢ ،
 ١٤٥ ح ٢ ، ١٦٠ ، ١٦١ ح ٣ ،
 ١٦٢ ح ٤
 الجعبري (ابراهيم بن عمر بن ابراهيم) * ٥٤
 ح ٤ ، ١٨٣
 أبو جعفر بن الزبير ٧٤ ح ٣ ، * ٧٨ ح ٣
 أبو جعفر (يزيد بن القعقاع ، القاري) .
 * ١٥١ ح ٢
 جندب (الصحابي) ٦٣
 ابن جني (ابو الفتح ، عثمان) ١٥٥ ح ١
 أبو جهل (عمرو بن هشام) ٦٠
 أبو جهم (الصحابي) ١٢٩ ح ٣
 ابن الجوزي ٢١ ، ٢١٤ ح ١
 جولدزيهر (المستشرق Goldziher)
 ٦ ح ٣
 جوينبول (المستشرق Juynboll)
 ٧ ح ١
 جيفري (المستشرق Arthur Jeffery)
 ٩٦ ح ٣
 - ح -
 أبو حاتم السجستاني (سهل بن محمد)
 * ١١٩ ح ٣ ، ١٤٨
 ابن ابي حاتم (الحافظ عبد الرحمن ، ابو محمد)
 ١٥٠ ح ١

بُهل (المستشرق Buhl) ٧٣ ح ٢ ،
 ١٣٢ ح ١ ، ١٨٤ ح ١ ، ٢٠١ ، ١٠١
 بوير (المستشرق Bauer) ١٩٨ ح ١
 البيضاوي (ناصر الدين ابو سعيد ، المقسر)
 * ١٩٢ ح ٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
 البيهقي (الحافظ احمد بن الحسين بن علي ،
 ابو بكر) ٣٨ ح ١ ، ٥٩ ، * ١٦٨
 ح ١ ، ١٦٩

- ت -

الترمذي (صاحب السنن) ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ،
 ١٣٨ ح ٣
 التوحيدى (أبو حيان) ٧٨ ح ١
 ابن تيمية (شيخ الاسلام تقي الدين احمد)
 ٥١ ح ١ ، ٦٦ ، * ١٩٢ ح ٤ ،
 ٢٣٧

- ث -

ثابت بن فيس (الصحابي) ٧٣
 ثعلب (احمد بن يحيى) ص ١٣٤ ح ١

- ج -

جابر بن عبد الله (الصحابي) * ٤٠ ح ١ ،
 ٢٣٧
 الجاحظ ٩ ، ١١٨ ح ٤ ، ٢٥١
 جبريل (ملك الوحي) ٣٨ ح ١ ، ٤٣ ،
 ح ١ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٩ ،
 ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ١٣٨ ح ٣ ،
 ٢٠٤

ح ٧ ، * ١٤٩ ح ٥ ، ١٥٠ ،
١٥١ ح ٥
حزبة بن عبد المطالب (عم النبي) ٦٠
أبو حنيفة (الإمام) ٤٠ ح ١ ، ١٥٥ ،
١٦٢

الحَوْفِي = انظر علي بن ابراهيم
أبو حيان (الأندلسي) ٢٤٨

- خ -

الحازن (علاء الدين علي بن محمد المفسر) *
٢٤١ ح ٥ ، ٢٤٢
خالد بن دينار ٣٨ ح ١
خالد بن الوايد ٧٣
خالد بن أبي الهيثاج (المشهور بجمال خطه)
١٢٥

ابن خالويه (الحسين بن احمد) ١٥٤ ح ٣
الحذري (ابو سعيد) الصحابي ١٦ ح ١ ،
١٢٩ ح ٣
أبو خزعة الأتصاري (الصحابي) ٨٢ ح
٨٤ ، ٨٣ ، ١

الخطابي ٢٨ ح ١ ، ٢٥٥ ح ١
الخطيب البغدادي ٩ ح ٤ ، ٥٩
خلاف (عبد الوهاب) ٢٢١ ح ٥ ، ٢٢٣
ح ١ ، ٢٢٨ ح ٣ ، ٦ ، ٢٢٩ ح ١
و ٧ ، ٢٣٤ ح ٤ ، ٢٣٥ ح ١ و ٣

خَلْفَ بن هشام (الفارسي) * ١٥١ ح ١
ابن خلكان ١١٧ ، ١١٨ ح ٣
الحليل بن احمد الفراهيدي * ١١٩ ح ١ ،
١٣١

ابن خوزيمندا (من علماء المالكية) *
٢٧٣ > ٥

الحارث بن هشام (الصحابي) ٢٨ ح ٣
حاطب بن أبي بلتعة (الصحابي) ١٧١ ح ٢
الحاكم (ابو عبد الله ، صاحب المستدرك)
٥٥ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٣ ،
١٦١

ابن حبان (الحافظ) ١٣٣ ح ١
الحجاج بن يوسف الثقفي ١٠٢ ، ١١٤ ،
١١٥ ح ٣ ، ١١٨ ، ١٢٣ ح ١

ابن حجر (المسقلاني) ٤١ ح ١ ، ٥٥ ،
٥٩ ، ٦٣ ح ١ ، ٦٨ ح ٢ ، ٨٣ ،
٨٨ ح ٢ ، ٨٤ ح ٢ ، * ١٩٥ ح ٥
حَدَيْفَةُ بن الهيثام (الصحابي) ٨٧ ، ٩٠ ،
١٢٩ ح ٣ ، ١٦٨

الحَرَّالِي (علي بن الحسن التجيبي) * ١٤٤ ح ١
الحري ٢٠٤ ح ١
الحسن البصري ١٧ ، ٥٦ ، ١١٥ ح ١ ،
* ١٥١ ح ٣

الحسن بن الحصار ١٨١ ح ٤
الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري (ابو
القاسم) * ١٦٤ ح ٢ ، ١٦٦ ح ١
حفص بن ميسرة ٦٣
حفص (القاري) ١٥٥ ، ١٦٢ ح ١
و ٢ و ٣

حفصة (ام المؤمنين) ٦٩ ، ٨٢ ، ٨٥ ،
٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ،
٩٥ ، ٩٦

أبو الحَكَم بن برجان = انظر ابن برجان
الحليمي (ابو عبد الله ، حسين بن الحسن)
* ١٢٠ ح ٣

حزبة بن حبيب الزيات (القاري) ١٣٠

٣٧٢ ح ١٤٨، ٢ ح ١٤٨

- و -

الرازي (الإمام فخر الدين) ٢٦ ح ٣،

٣٤، ١٩٤ ح ٤، ٢٠٠ ح ١،

٢٠٤، ٢٤١ ح ١، ٢٤٥ ح ١،

٢٤٨

رافع (بواب مروان بن الحكم) ٥٢

الرافعي (مصطفى صادق) ٢٤، ٢٥١،

٢٥٦ ح ١، ٢٥٨ ح ١، ٢٥٨ ح

٢ و ١

الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد) *

٣ ح ٢١٠

رشيد رضا ٣ ح ١، ٢٥٠، ٢٩ ح ١، ٤٦،

٢٥٥، ٢٤٨، ٢٠٥، ٢٠٤، ١ ح

٢٦١، ٢٥٦

الرشيد (الخليفة هارون) ٢٠، ٢١

رضا (محمد رشيد) = انظر رشيد رضا

الرماني (علي بن عيسى) * ٤ ح ١، ٢٥٥،

رودويل (المستشرق A. Rodwell)

٤ ح ١٧٧

ابن روق (محمد بن الحسن بن عبد الله

الراسبي) ٤ ح ٢٠٤

- ز -

الزبيدي ٩ ح ٢

الزبير بن العوام (الصحابي) ٥٦ ح ١

الزجاج (أبراهيم بن السري، أبو إسحاق)

١٠ ح ٣ *

زر بن حبيش ١٥٠

الزرقاني (محمد بن عبد العظيم) ٢١ ح ١،

الْحَوْثِي (أحمد بن خليل بن سماعة) *

١٩٤ ح ٤، ٢٠٤ ح ١

- د -

الدارمي (صاحب المسند) ٢١٧ ح ٣

الداني (أبو عمرو) ٩١ ح ١، ٩٥ ح ٤،

١٠٨ ح ٣، ١١٩ ح ٢، ١٢٠ ح

٢، ١٢١ ح ٢ و ٣، ١٥٠ ح ٣،

١٥٢ ح ١، ١٦١ ح ١

داود الظاهري * ٢٣٠ ح ٤، ٢٧٣ ح ٣

أبو داود (صاحب السنن) ١٢٤

ابن أبي داود (صاحب كتاب المصاحف) *

٨٣ ح ٣، ٨٤، ٨٥، ٨٧ ح ١،

٨٨ ح ٢، ٩١ ح ٢ و ١، ٩٢ ح ١

٩٣ ح ٢ و ٣، ٩٤ ح ١، ٩٦

١٠٠ ح ٣، ١٠٠ ح ٢، ١١٤ ح ١ و ٢

٣، ١١٥ ح ١، ١١٧ ح ٣،

١١٩ ح ٣، ١٢٤ ح ٢

دراز (محمد عبد الله) ٢٤، ٣٦ ح ١،

٤٨ ح ٣، ١٠٠ ح ٢

درباس (الذي أخذ عنه القاري) ابن مَحْيِصَن

٤ ح ١٥١

أبو ارداء (الصحابي) ٦٨، ٦ ح ١ و ٢

٧٢

ابن دقيق العيد ٥١ ح ٥

الدوري (القاري) ١٥١ ح ٥

الديري ١٨٤ ح ٢

دي غويه = انظر غويه

- ذ -

الذهبي (الحافظ شمس الدين) * ٧٠ ح ٣،

أبو زيد بن السكن (الصحابي) ٦٨ ح ١

- س -

سالم بن معقل (مولى أبي حذيفة) ٦٨ ح

١ و ٢ ، ٦٩ ، ٩١ ح ٢

سبر نجر (المستشرق Sprenger) ١٩٩

ابن سسع (أبو الربيع بن سليمان السبتي)

* ٢٢ ح ٢

السبكي (تقي الدين علي بن عبد الكافي) *

٢٧٨ ح ١

السجستاني (أبو بكر ، محمد بن عزيز) *

١٨ ح ٤

السخاوي (علي بن محمد بن عبد الصمد) *

١٩ ح ٤ ، ٢٢ ، ٨٤ ح ٢

ابن سعد (صاحب الطبقات الكبرى) ٧٣

٢ ح ٨٢ ، ٢ ح ٩١ ح ٣

سعد بن أبي وقاص (الصحابي) ٤٠ ح ١

٦٩ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ٢٠١

سعيد الأنصاري (ناشر تفسير الأصفهاني)

٢٤٥ ح ١

سعيد بن جبَيْر ١٧ ، ٢٣٧

سعيد بن عبَّيد (الصحابي) ٦٨ ح ٢

سعيد بن العاص (الصحابي) ٨٧ ، ٨٨ ،

٩٤ ح ٢

سعيد بن المسيَّب (التميمي) ٥٦

ابو السمود (محمد بن محمد بن مصطفى ،

المفسر) * ٢٤١ ح ٣ ، ٢٤٢

سفيان الثوري ١٨

سفيان بن عيينة ١٧٥ ح ٢ ، ٢٣٨

السكاكي (يوسف بن أبي بكر بن محمد) *

٢٧٩ ح ٣

٢٤ ، ٤٢ ح ١ ، ٧١ ، ٣ ح ٧٣ ح ١

٩٩ ح ٢ ، ١٠٥ ح ٢ ، ١٠٦ ح ١

١٠٧ ح ١ ، ١١٠ ح ١ ، ١١٢ ح ١

١١٦ ح ١ ، ١١٩ ح ١ ، ١٢٢ ح ١

١٢٨ ح ١ ، ١٤٤ ح ١ ، ١٤٥ ح ٢

١٤٥ ح ٢ ، ٢١٢ ح ١ ، ٢١٥ ح ١

الزرقاني (صاحب النرح على موطن مالك)

١٤٧ ح ٢

الزركشي (الإمام بدر الدين) ٢ ح ٢ ، ٢

٣ ح ٣ ، ٧ ، ١٣ ، ٢٢ ح ٢٣ ، ٢٣

٢ ح ٢ ، ٤ ، ٤١ ح ١ ، ٤٢ ح ١ ، ٢

٤٤ ح ١ ، ٥٧ ح ١ ، ٦١ ح ٢ ، ٢

٦٦ ح ٧٠ ، ٢ ح ٧٠ ، ٢ ح ٧٤ ح ٣

٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ح ١ ، ٨٠ ، ١٠٧

٢ ح ١١٦ ، ٣ ح ١٢٢ ، ٢ ح ١٢٣

٣ ح ١٣٤ ، ٢ ح ١٣٦ ح ١ ، ١

١٣٨ ح ٢ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ح ١

٢ و ٣ ، ١٨٢ ح ١ ، ١٨٥ ح ١ ، ١

٢٠٥ ، ٢٠٦ ح ١ ، ٢٤٠

زكريا الأنصاري (صاحب المقصد ، لتلخيص

ما في المرشد) ١٨٤ ح ٢

الزحشري ٣٧ ، * ٦٦ ح ٢ ، ١٥٢ ، ١٩٢ ،

١٩٣ ح ٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨

أبو الزناد ٤٠ ح ١

زيد بن أسلم ١٧ ، ٢٣٨

زيد بن ثابت (الصحابي) ١٧ ، ٤٠ ح ١ ،

٦٨ ح ١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٤

٨١ - ٨٥ ح ١ ، ٨٧ ح ١ ، ٨٨ ح ١ ،

٨٩ ح ١ ، ٩٠ ، ٩٣ ح ٤ ، ٩٩ ، ٩٩

١٠٨ ح ١ ، ١٠٩ ، ١٣٤ ح ١ ، ١

٢٣٦

سيد قطب ٢٤، ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٥٩،
٢٦٠، ٢٦١

- ش -

انشاطي (ابو محمد القاسم، القارى) * ١٦١
ح ٢

الشافعي (الإمام) ٩، ٢٠، ٢١، ٢٣٧،
ابن شاذان الرازي (أبو الفضل) *
١٤٥ ح ١، ١٥٤

أبو شامة (عبدالرحمن بن إسماعيل) * ٢٢
ح ٢، ٤٢ ح ١ و ٢، ٤٣، ٤٤ ح
١، ٨٣ ح ١

الشريف الرضي (الشاعر) ٢٥٤ ح ٢،
٢٦٦ ح ٢، ٢٦٧ ح ٣، ٢٦٨ ح
١، ٢٦٩ ح ٢

شريك بن سحابة (الصحابي) ٥٨
شعبة بن الحجاج * ١٧ ح ١، ٢٣٨
الشعبي (عامر بن شراحيل، التابعي) *
٤٠ ح ١، ١٢٢ ح ١، ١٩٣

شغالي (المستشرق Schwally) ٧١ ح
٧١ ح ١، ٧٣ ح ٢، ٨٨ ح ٢، ٩٢
ح ١، ١٠٣، ١٧٧، ١٩٨ ح ٢،
٢٠١

ابن شَنَبُود (محمد بن أحمد بن ابراهيم،
القارى) * ١٥١ ح ١، ١٥٣ ح ٤
الشَنَبُودِي (محمد بن أحمد بن ابراهيم، أبو
الفرج، القارى) * ١٥١ ح ٦
شَنُرَّر (Schnurrer) ١٢٦ ح ٢

ابن شهاب ٨٦، ٨٧
شوفان (Chauvin) ١٠٣ ح ٢
ابن أبي شيبة ٦٣

سلام بن سليمان الطويل ١٤٩

سلمان بن سرد (الصحابي) ١٢٩ ح ٣
أم سلمة (أم المؤمنين) ٦٤، ٦٩، ٩٦

سليمان بن مهران : انظر الأعمش
سليمان بن يسار ٢١٢ ح ٣

سمرة بن جندب (الصحابي) ١٢٩ ح ٣
ابن السَّمِينَع (محمد بن عبد الرحمن،
القارى) ١٦٢

سهل بن محمد (الصحابي) ٥٨
السَّهْلِي (عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد)
١٩٩ ح ٢

سوفاجيه (المستشرق J. Sauvaget)
٧ ح ١

السوسبي (القارى) * ١٥١ ح ٥
سُوَيْد بن غفلة ٩٩

ابن سيده (صاحب المختص) ١٠ ح ٤

ابن سيرين (محمد) * ٥٥٣ ح ٢، ١١٥، ١١٧
السيوطي ٢ ح ١، ١٨٠ ح ٢، ٢٣٠ ح ٢ و ٣

٤٤، ٣٨ ح ١، ٤٢ ح ٢، ٤٩ ح
١، ٥٣، ٥٤، ٥٧ ح ١، ٦٢ ح

١ و ٢، ٦٨، ٦٩، ٧٢ ح ٢،
٧٤ ح ٣، ٨٣ ح ١، ٩٤، ٩٩ ح

١، ١٠٨ ح ٢ و ٣، ١١٢ ح ١،
١١٣ ح ١، ١١٥ ح ١، ١٢٩ ح

٣ و ٤، ١٣١ ح ٣، ١٣٢، ١٦٠،
١٦٥ ح ٢، ١٦٦ ح ١، ١٦٩،

١٧٣ ح ٢، ١٨٠ ح ٣، ١٨١ ح ٤
٢٠٥، ٢٢٦، ٢٣٨ ح ١ و ٢،

٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٤ ح ١، ٢٦٢،
٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧،
٢٦٩، ٢٦٨

- ع -

عائشة (أم المؤمنين) ٢٨ ح ٢ و ٤ ، ٢٩
ح ٢ ، ٣٨ ح ٢ ، ٤٩ ، ٦٩ ، ٩٦
٩٧ ، ١٦٦ ح ١ ، ٢٣٧

عاصم الجحدري ١٦١

عاصم بن عدي ٥٨

عاصم بن ابي النجود الأسدي (القاري)
١٤٩ ، * ١٥٠ ح ١

أبو العالية ٣٨ ح ١

عامر بن عبد القيس (مقرئ المصحف
البري) ٩٩

ابن عامر (عبد الله اليحصبي ، القاري)
١٣٠ ، * ١٤٩ ح ٢ ، ١٥٣ ح ١

عبادة بن الصامت (الصحابي) ٦٩

ابن عباس (عبد الله) ١٧ ، ٤٣ ح ١ ،
٥٢ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٨

٧٩ ، ٨٧ ، ١١٥ ح ٣ ، ١٤١ ح ١ ،
١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٨١ ،

١٨٢ ح ٢ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧

ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله ، ابو
عمر) ١٣٤ ح ٢ ، * ١٣٥ ح ٢ ،

١٣٧ ، ١٥٨

عيد بن حميد ٢٣٨

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام (الصحابي)
٨٧

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ٢٣٨
أبو عبد الرحمن السلمي (مقرئ المصحف
الكوفي) ٩٩

عبد الرحمن بن عوف (الصحابي) ١٢٩ ح ٣

شَيْذَلَة (أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك)

* ٤٣ ح ٣ ، ٥٠ ، ١٣

الشيرازي (أبو إسحاق ، إبراهيم بن علي
ابن يوسف) * ٢١٠ ح ٢

- ص -

ابن صَبِيغ (عبد الله) ٢١٢ ح ٣

ابن الصلاح (أبو عمرو) ٥٥

- ض -

الضحاك (التابعي) ١٨٢ ، ٥٦ ، ١٨٢ ح ٢ ،
١٩٨

- ط -

ابو طالب (عم النبي) ٦٠ ، ٦١

طاهر الجزائري ١٤ ، ٨

طاووس (التابعي) ٢٣٧

الطبراني (الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب
أبو القاسم) ٥٠ ح ١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، *

١٦٦ ح ٢

الطبري (شيخ المفسرين) * ٣ ح ٢ ، ٥٠ ،

٦٤ ، ٧٣ ح ٢ ، ٨٧ ح ١ ، ٩٠ ،

٩١ ح ١ ، ١٢٨ ح ١ ، ١٣٧ ح ٤ ،

١٤٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ح ٢ ، ١٩٧ ،

٢٠١ ح ٢ ، ١٩٩ ح ٤ ، ٢٠١ ح ١ ،

٢٠٥ ح ٤ ، ٢٣٨

طلحة (الصحابي) ٦٩

ابو طلحة الأنصاري (الصحابي) ١٢٩ ح ٣

طنطاوي جوهرى ٢ ، ٢٤ ، ٢٤٨

الطوفي (نجم الدين ، سليمان بن عبد القوي

ابن عبد الكريم) * ٢٠٠ ح ٢

- ف -

- فؤاد الأول (ملك مصر السابق) ١٢٧
الفراء (يحيى بن زياد الدبلي) * ٩ ح ٢ ،
١٠
فضالة بن عبيد (الصحابي) ٧٠
ابن فضل الله العمري * ١٠٣ ح ١
فاوجل (المستشرق Flügel) ١٢٦
ابن فؤوك (محمد بن الحسن) ٤٧ ح ٣

- ق -

- القاسم بن سلام = ابو عبيد
القاسمي (محمد جمال الدين) ٤٤ ، ١٣٢ ح
١٣٨ ، ١ ح
ابن القاسم (احمد الطبري ، ابو العباس) *
٢٧٣ ح ٤
قتادة ١٧ ، ٤٠ ح ١ ، ٦٨ ح ١ ، ١١٥
٣ ح
ابن قتيبة (عمدة الله مسلم) ١٤٤ ، *
١٤٥ ح ٢
القرطبي (ابو عبدالله ، محمد بن احمد) ٦٧
١٥٥ ح ٦ ، ١٧٣ ح ١ ، * ١٧٤
٣ ح ١٨١ ، ٣ ح
القشيري (ابو الفتح) ٥١ ح ١
قطرب (محمد بن المسنير) * ٢٠٤ ح ٥
القيفطي (علي بن يوسف) ٤٩ ح ١
أبو قلابة ٩٠ ، ٩١ ح ١
ابن القيم ٢٠ ، ٢٩ ح ١

- ك -

- كازانوف (Casanova) ٧٣ ح ٢ ،
١٠١ ح ١ و ٢ و ٣ ، ١٠٢ ح ٢ ،

- عكرمة ١٧ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ١٤٩ ، ١٧٩ ،
٢٣٧ ، ١ ح
علي بن إبراهيم (الحوفي) * ١٩ ح ١ ، ٢١٠
علي بن أبي طالب ١٦ ، ١٧ ، ٣٨ ح ١
٤٠ ح ١ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ٩٩ ،
١٠٠ ح ٢ ، ١١٥ ح ٣ ، ١١٦ ،
١٥٠ ، ١٥٧ ح ١ ، ١٥٩ ح ٣ ،
١٧٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ،
٢٣٦

علي بن المديني (شيخ البخاري) * ١٨ ح
٥٤ ، ٢

ابن عمار (أبو العباس) * ١٤٨ ح ٣
العفاني (أبو الحسن ، علي بن سعيد ، المقرئ
صاحب كتاب المرشد في الوقف)
١٨٤ ح ٢

عمر بن الخطاب ١٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ،
— ٨٦ ، ٩٢ ح ١ ، ٩٥ ، ١٢٩ ،
٣ ح ٣ ، ١٣٥ ح ٣ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،
١ ح ١٦٦ ، ١٦٩ ،

عمر بن عبد العزيز (الخليفة) ١٥٥
عمرو بن أبي سلمة (الصحابي) ١٢٩ ح ٣
عمرو بن العاص (الصحابي) ١٢٩ ح ٣
أبو عمرو بن العلاء ١١٥ ح ٤ ، * ١٤٩ ح ٣
عمرو بن معديكرب ٥٢
عيسى بن مريم (عليهما السلام) ٧

- غ -

- غريم (المستشرق H. Grimme) ١٧٥
١٧٦
الغزالي (حجة الإسلام) ٦ ، ٢١٣ ح ١
غويه (المستشرق دي غويه De Goeje)
١ ح ٦

١١٩،٣ ح ١٠٨،٧٧،٤ ح ٢٨
ح ١٢٠،١ ح ١٤٠،٢ ح ١٤١،٢ ح
٢١٢،٣ ح ١٥٨،٢ ح ١٤٧،١
المأمون (الخليفة) ح ١٢٣
الماوردي (علي بن حبيب) * ح ٦٩
ابن المبارك (صاحب كتاب الإبريز)
١٠٥ المبرد ح ١١٦
بجاهد بن جبر ١٧،٥٦،١٤٩،١٥١
ح ١٨٢،٤ ح ٢٠٣،٢٣٧
ابن بجاهد (أحمد بن موسى بن العباس ،
شيوخ القراء) * ح ١٤٧،٣ ح ١٤٨،
١٥٠،١٥٤
بجمع بن جارية (الصحابي) ٧٠
المحاسبي (الحارث بن أسد) * ح ٨١،
٩٤
محمد أحمد دهان ح ١٦١
محمد بن جعفر الخزازي (أبو الفضل) *
ح ١٦٢
محمد بن جعفر الكتاني ح ١٦٦
محمد خلف الله ٢٥٥ ح ١
محمد زغلول سلام ٢٥٥ ح ١
محمد بن سعدان النحوي (أبو جعفر) *
١٣٠ ح ٧
محمد عبده (الأستاذ الإمام) ٢٥٦
محمد علي سلامة ح ٥٥
ابن مَحْبُصِين (القاري) * ح ١٥١
مراكسي (Maracci) ١٢٦
ابن مردويه ٦٤
مروان بن الحكم ٩٥،٥١
أبو مريم النسائي (الصحابي) ١٦٦
المنزلي (الحافظ يوسف بن عبد الرحمن ،

١٠٤ ح ١٠٥،١ ح ١٠٤
الكافيجي (محمد بن سليمان ، محي الدين ،
أبو عبد الله) * ح ٢٣
الكتاني = انظر محمد بن جعفر
ابن كثير (الحافظ) ح ٤٥،١ ح ٥٢،١
ح ٥٣،١ ح ٦٢،١ ح ١٠٢،٤
ح ١٩٢،٥ ح ٢٠٠،٢ ح ٢٠١،١
ح ٢٠٥،٥ ح ٢٠٧،١ ح ٢٣٩،٥
٢٤٣
الكرماني (أبو القاسم برهان الدين محمود
ابن حمزة) * ح ١٩٨
كرنكو (المستشرق Krenkow) ،١١
ح ١٢
الكسائي (علي بن حمزة) * ح ١٥٠
كواتريمير (Quatremère) ١٠٠

- ل -

لاوست (المستشرق هنري Henri La-
oust) ح ١٩٢ (٤)
ابن اللبان (محمد بن أحمد بن عبد المؤمن ،
المفسر) * ح ٢١١،٣ ح ٢١٤
اللبخاني (علي بن حازم) * ح ١٠،٤ ح ١٠،
أبو لُب (عم النبي) ٢٧٦
لوث (المستشرق O. Loth) ح ١٩٩
٢٠٢

- م -

ابن ماجه (صاحب السنن) ١٢٤
ماسينيون (المستشرق L. Massignon)
ح ١٥٣
مالك بن أنس (إمام أهل المدينة) ١٧،

- ن -

- نافع بن عبد الرحمن بن ابي نعيم (القارى *)
١٤٩٩ ح ١
النحاس (أبو جعفر ، احمد بن محمد بن
إسماعيل) * ١٨٠ ح ١
التخمي ٢٢ ح ١
ابن التميم (صاحب الفهرست) ٩٢ ، ١٢٥
ح ٢ ، ٢٤٥ ح ١
التسفي (أبو البركات ، عبد الله بن أحمد بن
محمود) * ٢٤١ ح ٤ ، ٢٤٢
نصر بن عاصم الايبي * ١١٥ ح ٤ ، ١١٨ ح ٤
أبو نضرة ٣٨ ح ١
التمان بن بشير (الصحابي)
أبو نعيم الاصفهاني ١٧٩ ح ١
نوح (عليه السلام) ٥٣
نولدكه (المستشرق Noldeke) ١٧٥ ح
٢٠١ ، ١٧٧ ، ٢
النووي (الامام) ٤٣ ح ١ ، ٧٣ ح ٢ ،
* ١٢١ ح ٤ ، ١٥٧ ح ٤

- ه -

- ابو هريرة (الصحابي) ٢٤ ح ١ ، ٦٩ ،
١٢٩ ، ٧٢ ح ٣ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
٢٣٧ ، ٢٠١
هشام بن حكيم (الصحابي) ١٢٨ ، ١٢٩
ح ٣ ، ١٣٥ ح ٣
هشام بن عروة ٢٨ ح ٤ ، ٨٣
ابن هشام (صاحب السيرة) ١٧١ ح ٢
هنكلان (Hinkelmann) ١٢٦
هلال بن أمية (الصحابي) ٥٨ ح ١

- ابو الحجاج * ١٩٢ ح ٥
مسلم (صاحب الصحيح) ١٥ ح ٤ ، ١٦ ،
ح ١ ، ٧٢ ، ١٢٨ ، ١٧٠ ح ١ ،
٢١٥
مسلمة بن مخلد (الصحابي) ٧٠
مسيلة الكذاب ٨١
مصطفى زيد ٣٥ ح ٢
معاذ بن جبل (الصحابي) ٦٨ ح ١ و ٢ ،
٩١ ح ٢ ، ١٢٩ ح ٣
معاوية بن ابي سفيان ٧٣ ، ١٠٥
المنيرة بن شهاب (مقرر المصحف الشامي)
١٤٩ ، ١٤٩ ، ٢٠١
مقاتل (التميمي) ١٨٢ ح ٢
أبو مقبل (الحسين بن عمر بن قيس ،
الصحابي) ١٧٣ ح ١
المقداد بن عمرو (الصحابي) ٩١ ح ٢
المقدسي (صاحب احسن التقاسيم) ٦ ح ١
ابن مقسيم (محمد بن الحسن ، أبو بكر ،
القارى *) ١٥٣ ح ٢
مكي (بن ابي طالب) * ٤٩ ح ١ ، ١٤٨
ح ٢
موريتز (Moritz) ١٢٥ ح ٣
موسى (عليه السلام) ٢٧ ، ٢٨
أبو موسى الأشعري (الصحابي) ١٧ ،
٧١ ، ٧٢ ، ٩١ ح ٢ ، ٢١٢ ح ٣
موسى بن عقبة ٨٦
مولاي عثمان ١٢٦
موير (وليم المستشرق William Muir)
١٧٦

يحيى بن المبارك اليزيدي (القارى) * ١٥١
ح ٥

يحيى بن معين ١٨

يحيى بن وثاب ١٥٠

يحيى بن يمر * ١١٥ ح ١١٧٠ ، ٣ : ١١٨٠
يزيد انفارسي ٧٨

يزيد بن القعقاع = أبو جعفر (القارى)

يزيد بن هارون (من أتباع التابعين) ٢٣٨

أبو اليسر بن عمرو (الصحابي ، الانصاري)

١٧٣ ح ١

يعقوب (عليه السلام) ٩٩

يعقوب بن إسحاق الحضرمي (القارى)

١٣٩ ح ٢ * ١٤٩ ح ٤ ، ٤ : ١٥٠

أبو يعنسى (أحمد بن علي الموصلي الحافظ) (١)

١٢٩

أبو يعلى (القاضي محمد بن الحسين بن محمد

الفراء) ١٢٩ ح ١ ، ١٤٠ ح ٢

هيرشفيلد (المستشرق Hirschfeld)

٢٠١ ح ٤

- و -

وألة بن الأستق (الصحابي) ١٤٩
الواحدى (علي بن الحسين ، أبو الحسين)

١٥١ ح ١ ، ٥٣ ح ١ ، ٥٤ ح ٣ ،

١٨٢ ح ٦

الواسطي ، محمد بن زيد ٢٥٢

الواسطي (أبو بكر ، محمد بن محمد بن

سليمان ، الحافظ الممّر) ١٣٥

وكيع بن الجراح * ١٨ ح ١ ، ٢٣٨

الوليد بن عبد الملك (الخليفة) ١٢٥

ويل (المستشرق G. Weil) ١٧٦ ح ٣

١٧٧

- ي -

يحيى بن آدم ١٨

يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب

جريدة المراجع

على حروف المعجم

١ — باللغة العربية

- إنحاف فضلاء البشر ، بالقراءات الأربع عشر (لأحمد الدمياطي المشهور
بالبنا) القاهرة سنة ١٣٥٩ هـ .
- الإتقان في علوم القرآن (للسيوطي) جزءان ، مطبعة حجازي بالقاهرة
ط/٣ ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م .
- أحسن التقاسيم ، في معرفة الأقاليم (للمقدسي ، شمس الدين محمد بن أحمد
ابن أبي بكر) باعثناء دي غويه . ليدن ١٨٧٧ .
- أحكام القرآن (لابن العربي) القاهرة ، مطبعة السعادة ١٣٣١ هـ .
- إحياء علوم الدين (للغزالي) القاهرة ١٣٤٦ .
- إرشاد العقل السليم ، إلى مزايا القرآن الكريم (لأبي السعود) جزءان ،
بولاق ١٢٧٥ .
- أسباب النزول (للواحدي) ، بهامشه (الناسخ والمنسوخ) لأبي القاسم
هبة الله بن سلامة ، القاهرة ١٣١٥ .
- الإصابة في تمييز الصحابة (لابن حجر العسقلاني) بهامشه (الاستيعاب في
معرفة الأصحاب) لابن عبد البر ، القاهرة ، طبع مصطفى محمد ، ١٣٥٨ هـ .
- ١٩٣٩ م ، ٤ أجزاء .

الأعلام (حُير الدين الزركلي) المطبعة العربية ، ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م .
إنباه الرواة على أنباه النحاة (للقفطي ، الوزير جمال الدين أبي الحسن ، على
ابن يوسف) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ،
١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

إملاء ما من به الرحمن ، من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن
(للعكبري) القاهرة ، الطبعة الميمية ١٣٢١ هـ .

أنوار التنزيل وأسرار التأويل (للبيضاوي) طبعة فليشر Fleisher ،
جزءان ، ليبسيك ١٨٤٦ م .

إعجاز القرآن (للباقلائي) القاهرة ، السلفية ١٣٤٩ هـ .

البحر المحيط (لأبي حيان الأندلسي) القاهرة ، ١٣٢٨ ، ٨ مجلدات .
البرهان في علوم القرآن (للزركشي) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،
القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، صدر منه جزءان ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .
بغية الوعاة (للسيوطي) القاهرة ، ١٣٢٦ هـ .

بيان إعجاز القرآن (للخطابي) مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن
بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، القاهرة ، دار المعارف .

تاريخ آداب العرب (لمصطفى صادق الرافعي) القاهرة ، مطبعة الاستقامة
٣ أجزاء ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م (وقد رجعنا الى الثاني خاصة) .

تاريخ بغداد (للخطيب البغدادي) طبعة الخانجي بمصر ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م .

تاريخ مختصر الدول (لابن العبري) نشر صالحاني ، بيروت ١٨٩٠ م .

تأويلات القرآن = انظر تفسير الشيخ الأكبر .

تأويل مشكل القرآن (لابن قتيبة) القاهرة . دار إحياء الكتب العربية .

١٣٧٣ هـ .

التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن (للشيخ طاهر الجزائري) طبع المنار

بالقاهرة ١٩٣٤ م .

- تذكرة الحفاظ (للذهبي) طبعة حيدر آباد ١٣٣٤ هـ .
التصوير الفني في القرآن (لسيد قطب) القاهرة ١٩٤٩ .
تفسير الجلالين (جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي) مذييل بكتاب
(لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي ، طبعة بولاق ١٣٨٠ هـ .
تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) القاهرة ١٣٢١ ، ٨ مجلدات .
تفسير سورة الأنفال (لمصطفى زيد) القاهرة ، مطبعة الاعتماد ١٣٧٣ هـ -
١٩٥٤ م .
تفسير الشيخ الأكبر (المنسوب الى ابن عربي وهو للكاشي) بولاق في
مجلدين ١٣٨٣ هـ - ١٨٦٥ م .
تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) القاهرة ١٣٢١ هـ -
١٩٠٣ م ، ٣٠ جزءاً في ١٠ مجلدات .
تفسير القاسمي = انظر محاسن التأويل .
تفسير القرآن الحكيم (للسيد محمد رشيد رضا) = انظر تفسير المنار .
تفسير القرطبي = انظر الجامع لأحكام القرآن .
تفسير المنار (للسيد محمد رشيد رضا) الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٣٥٤ هـ -
١٩٣٥ م .
تفسير ابن كثير ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ -
١٩٥٤ م ، ٤ أجزاء .
تلخيص البيان في مجازات القرآن (للشريف الرضي) بتحقيق محمد عبدالغني
حسن ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٥ م .
تهذيب التهذيب (لابن حجر العسقلاني) طبعة حيدر آباد ١٣٢٧ .
التيسير في القراءات السبع (لأبي عمرو الداني) نشره وحققه المستشرق
برترل Pretzel في الأستانة ١٩٣٠ م (في المجلد الثاني من المكتبة الإسلامية
t. II, Bibliotheca islamica) .

جامع البيان في تفسير القرآن = انظر تفسير الطبري .
جامع بيان العلم وفضله = انظر مختصر جامع بيان العلم (١) ...
جامع التأويل لمحكم التنزيل (لمحمد بن بحر الأصفهاني) جمعه ونشره سعيد
الأنصاري في كلكتا ١٣٤٠ هـ .

الجامع لأحكام القرآن (للقرطبي) = تفسير القرطبي ، دارالكتب المصرية
١٩٣٩-٥١٣٥٨ م

الجواهر في تفسير القرآن الكريم (لطنطاوي جوهري) القاهرة ١٣٤٩ هـ
- ١٩٣٠ ، ٢٥ جزءاً في ١٣ مجلدات .

الدر المنثور في التفسير بالماثور (للسيوطي) طبعة الحلبي بصر ١٣١٤ هـ .
الدر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (لابن حجر) حيدرآباد ١٣٤٨ هـ .
دلائل الإعجاز (لعبد القاهر الجرجاني) الطبعة الثانية بمطبعة المنار ١٣٣١ هـ
(نشر السيد محمد رشيد رضا) .

رسالة التوحيد (للإمام محمد عبده) الطبعة التاسعة ١٣٥٧ هـ .
الرسالة الشافية في إعجاز القرآن (لعبد القاهر الجرجاني) ضمن ثلاث
رسائل في الإعجاز ، بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، القاهرة ،
دار المعارف .

الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة (لمحمد بن جعفر
الكتاني) الطبعة الأولى ١٣٣٢ هـ (عنيت بنشرها مكتبة عرفة بدمشق
وطبعت في بيروت) .

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الآلوسي) ٣٠
جزءاً . المطبعة المنيرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(١) لم نرجع إلى الأصل ، بل إلى المختصر ، وانا حذفنا كلمة (المختصر) تحفظاً من
الإضافات المتوالية .

- رياض الصالحين ، من كلام سيد المرسلين (للإمام النووي) بتعليق رضوان
محمد رضوان ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، بدون تاريخ .
زاد المعاد في هدى خير العباد (لابن قيم الجوزية) القاهرة سنة ١٣٢٤هـ ، جزءان .
سنن الترمذي ، طبعة بولاق سنة ١٢٩٣ .
سيرة الرسول (لابن هشام) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٤
أجزاء ، القاهرة
الشاطبية (حرز الأمانى ، ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني) للإمام
الشاطبي ، طبع حجر ، مصر ، ١٢٨٦ .
شذرات الذهب في أخبار من ذهب (لابن العماد الحنبلي) طبعة حسام الدين
القدسسي سنة ١٣٥٠ هـ .
طبقات النجوين والغويين (للزبيدي ، أبي بكر محمد بن الحسن) بتحقيق
محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٣ هـ - سنة ١٩٥٤ م .
طبقات الشافعية (لابن السبكي) طبعة الحسينية سنة ١٣٢٤ .
طبقات القراء (لابن الجَزَري) = انظر غاية النهاية .
الطبقات الكبرى (لابن سعد) ليدن سنة ١٩٢٥ - سنة ١٩٧٨ م ١٥ مجلداً
طبقات المفسرين (للسيوطي) معها شروح لاتينية باعتناء الأستاذ مرسنج
(A. Moursing) ليدن سنة ١٨٣٩ م .
طبعة النشر في القراءات العشر (لابن الجَزَري) طبعت في مجموعة من
كتب القراءات مشتملة على سبعة متون في مطبعة شرف سنة ١٣٠٨ هـ .
ظلال القرآن (لسيد قطب) القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية .
علم أصول الفقه (لعبد الوهاب خلاص) القاهرة ، الطبعة السادسة سنة ١٣٧٣ هـ
سنة ١٩٥٤ م .
غاية النهاية في طبقات القراء (لابن الجَزَري) نشر بروجشتراسر (Bergsträsser)

- الأستانة سنة ١٩٣٥ م وما بعدها ، ٣ مجلدات .
- فتح الباري (لابن حجر) طبعة بولاق سنة ١٣٠١ هـ .
- الفتوحات المكية (لابن عربي) بولاق سنة ١٢٦٩ .
- فضائل القرآن (لابن كثير) طبعة المنار سنة ١٣٢٧ .
- الفهرست (لابن النديم) نشر فلوجل Flügel ، ليبسيك سنة ١٨٧١ ،
جزءان في مجلد واحد .
- فوات الوفيات (لمحمد بن شاكر الكتبي) مصر سنة ١٢٩٩ هـ .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
(للزمخشري) القاهرة ، مطبعة مصطفى محمد . الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هـ
٤ أجزاء .
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (لحاجي خليفة) الطبعة التركية
سنة ١٣٦٠ هـ - سنة ١٩٤١ م .
- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الحازن) بهامشه تفسير البغوي ،
مصر سنة ١٣٣١ - ٣٢ هـ . ٧ أجزاء .
- محاسن التأويل (لمحمد جمال الدين القاسمي) الجزء الأول ، القاهرة ، دار
إحياء الكتب العربية ، سنة ١٣٧٦ هـ - سنة ١٩٥٧ م .
- محاضرات في أصول الفقه على مذاهب أهل السنة والإمامية (لبدرا المتولي
عبد الباسط) بغداد ، سنة ١٣٧٥ هـ - سنة ١٩٥٦ م ، جزءان .
- مختصر جامع بيان العلم وفضله ، وما يجب في روايته وحمله (لابن عبد البر) اختصار
أحمد بن عمر الحمصاني البيروني ، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٠ هـ (مطبعة الموسوعات) .
- مختصر في شواذ القراءات (لابن خالويه) نشر المستشرق برجستراسر
(Bergsträsser) القاهرة سنة ١٩٣٤ م .
- مدارك التنزيل ، وحقائق التأويل (تفسير النسفي) القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .
٤ أجزاء في مجلدين .

- مذاهب التفسير الإسلامي (للمستشرق جولديزهر) ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٤ هـ - سنة ١٩٥٥ م .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، القاهرة سنة ١٣١٣ هـ - ١٨٩٥ م ، ٦ أجزاء (ورجعنا أيضاً الى شرح أحمد محمد شاكر على المسند ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بصر سنة ١٣٦٨ - ١٩٤٩) .
- المصاحف (لابن أبي داود) نشر آرثر جيفري Arthur Jeffery ليدن سنة ١٩٣٧ .
- مفاتيح الغيب = انظر تفسير الرازي .
- المقصد لتلخيص ما في المرشد (لذكريا الأنصاري) القاهرة سنة ١٩٣٤ م .
- المقنع في رسم مصاحف الأمصار (لأبي عمرو الداني) نشر برتزل Pretzel الأستانة سنة ١٩٣٢ ، ويليه كتاب النقط للمؤلف نفسه ، ابتداء من ص ١٣٢ .
- مناهل العرفان في علوم القرآن (لمحمد عبد العظيم الزرقاني) أجزاء ، القاهرة ، سنة ١٣٧٣ هـ - سنة ١٩٥٤ م .
- النبا العظيم ، نظرات جديدة في القرآن (للدكتور محمد عبد الله دراز) القاهرة سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .
- النجوم الزاهرة (لابن تغري بردي) طبعة دار الكتب المصرية .
- الناسخ والمنسوخ (لابي جعفر النحاس) القاهرة ، مطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ .
- النشر في القراءات العشر (لابن الجزري) طبعة دمشق سنة ١٣٢٥ ، نشر محمد أحمد دهمان .
- النقط (لأبي عمرو الداني) مطبوع مع كتاب المقنع ابتداء من ص ١٣٢ ، نشر برتزل ، الأستانة سنة ١٩٣٢ .
- النكت في إعجاز القرآن (للرماني) طبع ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام . القاهرة ، دار المعارف .
- وفيات الأعيان (لابن خلكان) المطبعة الميمنية ، القاهرة سنة ١٣١٠ في مجلدين .

الوحي المحمدي (للسيد محمد رشيد رضا) الطبعة الثالثة ، مطبعة المنار
بالقاهرة سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م .

ب — بالانجليزية

- Beiträge zur Erklärung des korans (Hirschfeld) Leipzig, 1886
Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes.
(chauvin). Liège, 1907, 1909 t. x.
The Coran, its composition and Teaching (William Muir)
London, 1878
Le Coran, Traduction Selon un essai de reclassement des
sourates, (Blachère) Paris 1949-51 .
Encyclopédie de l'Islam, Leyde, 1913 suiv.
Essai sur les doctrines sociales et politiques d'Ibn Taimiya,
(Henri Laoust) Le Caire, 1939.
Geschichte der arabischen Litteratur (Brockelmann) Weimar
et Berlin, 1898-1902, 2 vol.
Geschichte des Corans(1). Noldeke (Th.) et Schwally (F.);
t. I, über der Ursprung des Qorans; Leipzig, 1919.
— Schwally (F.); t. II, Die Sammlung des Qorans:
Leipzig, 1919. — Bergsträsser et Pretzel; t. III, Die
Geschichte des Qorantexts; Leipzig, 1938, 3 vol.
Al-Hallāj, martyr mystique de l'Islam (Massignon) Paris 1912.

(١) استعنا بالمدخل الى دراسة القرآن (لبلاشير) في تتبع آراء نولدكه وشغالي ، كما
صنعنا ذلك غالباً في المؤلفات باللغة الألمانية . وقد اصطحنا اختصاراً على الاكتفاء بذكر
(Geschichte des Qorans) مع ذكر الجزء مستميين بذلك عن سردعنوان كل جزء
واسم مؤلفه . ولكننا مع ذلك خرجنا أحياناً على هذا الاصطلاح زيادة في الإيضاح

- Handbuch der Islam-Literatur (Pfannmüller, G.) Berlin, 1925.
Historisch - Kritische Einleitung in den Koran (Weil G.) 2eéd.
Leipzig, 1872.
- Initiation au Koran (Mohammed Draz) Paris, Presses uni-
versitaires de France, 1951
- Introduction à l'Histoire de l'Orient musulman (Sauvaget)
T.I de l'Initiation à l'Islam; Paris, 1943
- Introduction au Coran (Blachère, R.) Paris, 1947
- Korân (Buhl, F.) art. dans l'Encyclopédie de l'Islam, II,
1131 a
- The Korân, Translation with the Suras arranged in chrono-
logical order, (A. Rodwell) London, 1861
- Life of Mahomet (William Muir) London, 1858-61
- Materials for the history of the Korân (Arthur Jeffery).
Introduction à l'édition des (Massâhif d'Ibn abi-Dâwûd)
Leyde, 1937.
- Mohammed et la fin du Monde (Casanova) Paris, 1911-13;
2 fax.
- Mohammed, t. II, Einleitung in den Koran (Grimme) Münster,
1892, 1895.
- New Researches into the Composition and Exegesis of the
Qoran (Hirschfeld, H.) Dans Asiatic Monographs, t.
III, Londres; 1902.
- The Qurân, Translated, with a critical re-arrangement of the
Suras. (Bell, R.) Edimbourg, 1937-39, 2 vol.
- Tabari's Koranscommentar (Loth. O) Dans (Zeitschrift der
Deutschen Morgenländischen Gesellschaft) XXXV,
603 sqq.
- Über die Anordnung der Suren und über die geheimnis-
vollen Buchstaben im Qoran (Bauer H.) Dans ZDMG
(Zeitschrift der Deutschen, etc...) LXXV, Leipzig, 1921

تصويبات

الصواب	ص	س	الصواب	ص	س
ثلاث مئة	٣٤	٢	« قانون التأويل »	٢	٢
حاكٍ ما يسمع	٣٤	٥	علي بن عيسى بن علي	٤	١٤
يشوبه	٣٤	٩	عزّيزي (بفتح العين)	٤	١٧
بالقعود	٣٤	١٠	غرائب وعجائبه	٥	٣
عَيْلَةٌ	٣٩	٣	٣٣/١	٦	١٨
١٥٦	٥٣	١٦	١٤٣ الى ١٤٦	٩	١٦
٩٧/٢	٥٣	١٧	قرن الشيء بالشيء	١٠	٥
سور القرآن	٧٨	٩	٢٧٨/١	١٠	١٥
أولّى	٨٥	١٦	الزخرف ٤	١٣	١٨
يحذف الرقم ٨٢ ويستبدل به ٧٢	٩٧	١٨	وسادتك	١٥	١٥
يحذف ايضاً الرقم ٨٢	١٠٢	٢٠	وسادتك	١٦	١٧
ويستبدل به ٧٢			يحذف الرقم (٣) وينقل الى أول السطر السابق	١٨	٢٠
أَلِقِ الدَّوَاةَ ^(١)	١٠٥	٦	إيراد	١٩	١٩
تحذف كلمة (واعلموا) لأنها مقحمة على الآية . والخطأ في المرجع المنقول عنه	١١٦	٥	يحذف الرقم (٢) ويستبدل به (١)	٣١	١٨

(١) من ألاق الدواة يُليقها ، وليس من ألقاها يلقها

ص	س	الصواب	ص	س	الصواب
١٨٢	٩	الفاتحة (٦)	١١٩	١١	نقط القرآن
١٨٧	١٤	المدينة	١٢٤	١٦	الاتقان ١/١٨-٢٣
١٨٨	١	تكتب العبارة هكذا : (فكان لا بد أن يلين القرآن بعد الشدة ، ويطنب بعد الإيجاز)	١٢٨	١١	تقرؤها
١٨٨	١٠	تسفيه	١٣٦	٩	والنص والمؤول
١٩٠	١٦	غافر	١٤٣	١٣	أداؤها
١٩٥	٢	وخمس مئة	١٤٤	٣	نبيها
١٩٦	٦	الفلك	١٤٥	١١	وتعلمون
٢٠٤	١١	ولم يكن يعلم	١٥٣	٤	على منعه (٣)
٢١١	٢٠	يضاف الى ترجمة ابن اللبان (توفي سنة ٧٤٩)	١٥٣	٥	لابن سنبوذ (٤)
٢٢١	٢	مُجْرِم	١٦٠	١٧	فلم يعدوه من الغلط
٢٣١	٩	الكلم الطيب	١٧١	٤	الأشخاص
٢٥٥	١٨	عبد القاهر	١٧١	١٧	سيرة الرسول (لابن هشام) ١٦/٤-١٧
٢٨٢	٧	عمود Pfannmüller	١٧٧	١	المثمرة
٢٨٦	٦	عمود (أبو الربيع سليمان السبي) ٢ ح ٢	١٨١	٨	وحرّمتنا واديتنا
			١٨٢	١	وآخره (١)
			١٨٢	٣	مدنية (٢)
			١٨٢	٢	مرتين (٣)
			١٨٢	٥	على الإطلاق (٤)
			١٨٢	٨	كالواحدى (٥)

(١) وقعت في هذه الصفحة أخطاء في الأرقام المشيرة إلى الحواشي فتصبح على التوالي ، كما ذكرت أعلاه .

استدراكات

الاستدراك	ص	س
فان الألف بائنين ، والدال بسبعائة (كذا في البرهان ، ولعلها : الألفين ، والذال)	٨	٣
النشر ٦/١ وانظر ...	٧٣	١٤
وقع سهو في تسمية كتاب بفنمار ، فيرجى تصحيحه على الوجه التالي :	١٢٦	٢٠
pfannmüller. Handbuch der Islam - Literatur Berlin , 1925		
ولم يرد ذكر هذا الكتاب إلا في الصفحة المشار إليها تحذف الحاشية (١) كلها ، اذ وردت فيها سهواً ترجمة أبي يَعْلَى الفراء (القاضي الحنبلي محمد بن الحسين) بدلاً من الحافظ أبي يَعْلَى صاحب المسند . والترجمة الصحيحة للحافظ أبي يَعْلَى تستدرك على الوجه التالي : (هو أحمد بن علي بن المنثري التميمي الموصل ، الحافظ الثقة ، المعروف بأبي يَعْلَى . وله مسندان صغير وكبير . توفي بالموصل سنة ٣٠٧ - انظر الرسالة المستطرفة ٥٣ - ٥٤) .	١٢٩	١٠
يحذف (عبد القاهر) ويستبدل به (الواسطي) فتصبح العبارة مصححة هكذا : ثم يأتي بعد (الواسطي) الرماني .	٢٥٥	١

فهرس الموضوعات

نصبرم ١٠٠٠

آفاق الدراسة القرآنية ١ = ٨

آفاق الدراسة القرآنية واسعة بعيدة المدى ١ - مبالغات وتهويلات في علوم القرآن ٢ - تعدد الوجوه في تفسير القرآن . ٦ - علوم القرآن مفتاح التفسير ٨ .

القرآن : أسماؤه وموارد اشتقاقها ٩ - ١٤

معنى لفظ « قرآن » ٩ - قرأ بمعنى (تلا) أخذها العرب من أصل آرامي ١١ - أسماء القرآن ١٢ مبالغة بعض العلماء في تعداد أسماء القرآن ١٣ .

لمحة تاريخية عن علوم القرآن ١٥ - ٢٤

الصحابة وفهمهم للقرآن ١٥ - رواية علوم القرآن بالتلقين على عهد رسول الله ﷺ ١٦ - البدء بالتفسير لأنه أم العلوم القرآنية ١٧ - علوم القرآن الأخرى ١٨ اختصار تلك العلوم في علم موحد ٢٠ - اصطلاح علوم القرآن ٢١ - مؤلفات في هذه العلوم حسب تعاقبها التاريخي ٢١-٢٤ .

الوحي : نزوله وأسراو تنجيده ٢٤ - ٥٠

القرآن هو المعجزة العقلية الخالدة ٢٤ - التعبير بنزول القرآن ٢٦ - صور الوحي الثلاث ٢٧ شدة وقع الوحي على رسول الله ﷺ ٢٩ - تعريف الوحي ٣٠ - الفرق بين الوحي وأحاديث الرسول ٣٢ - عتاب الله لنبيه ٣٤ - إنذاره له ٣٦ - نزول القرآن نجوماً ٣٩ - القائلون بنزلات القرآن الثلاثة ٤١ -

أسرار تنجيم القرآن ٤٢ تثبيت فؤاده عليه السلام ٤٣ - تيسر حفظ القرآن عليه ٤٧ - تجاوب الوحي مع المؤمنين على عهد الرسول ٤٨ - ٥٠

أسباب النزول ٥١ - ٦٦

فهم القرآن متوقف على معرفة أسباب النزول ٥١ - ما أنزله الله ابتداء غير مبني على سبب من سؤال أو حادثة لا يدخل في « أسباب النزول » ٥٣ - الرواية الصحيحة هي الوسيلة لمعرفة أسباب النزول ٥٤ - تشدد السلف الصالح في بيان هذه الأسباب ٥٥ - يقبل قول التابعي في أسباب النزول إذا اعتضد برسل آخر ٥٦ - عبارة الرواية الصحيحة في سبب النزول إما نص في بيان السبب وإما محتملة له ولسواء ٥٦ - تعدد الروايات في سبب نازل واحد من القرآن ٥٨ - ان جاءت روايتان كتابهما صحيحة ، ولم نستطع ترجيح إحداهما جمعنا بينهما ٥٨ - ان كانت الروايتان صحيحتين ، ولم نستطع ترجيح إحداهما ولا الجمع بينهما حملنا الأمر على تعدد نزول الآية ٥٩ - يؤخذ سبب النزول من أصح الروايات ٦١ - تعدد النازل والسبب واحد ٦٤ - العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ٦٥ - ٦٦

جمع القرآن و كتابته ٦٧ - ١٠٣

رسول الله هو سيد الحفاظ ٦٧ - حفاظ القرآن من الصحابة ٦٨ - من لم تتصل بنا أسانيدهم من حفاظ الصحابة لا يحصون عدداً ٧٠ - مسجد رسول الله مدرسة لتحفيظ القرآن ٧١ - ٧٢ - كتاب الوحي ٧٣ - معنى تأليف القرآن من الرقاع ٧٤ - ترتيب الآيات توقيفي ٧٤ و ترتيب السور توقيفي أيضاً ودليل ذلك ٧٦ - لماذا لم يجمع الرسول ﷺ القرآن كله بين دفتي مصحف واحد ٧٩ - جمع القرآن على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٨٠ - تكليف زيد بن ثابت بتتبع القرآن وجمعه ٨٢ - آخر سورة التوبة ٨٣ - تم لأبي بكر جمع القرآن كله خلال سنة واحدة تقريباً ٨٥ - شبهة دائرة المعارف الاسلامية حول إيداع الصحف لدى حفصة ، والرد على هذه الشبهة ٨٥ - ٨٦ - تسمية القرآن

« بالمصحف » نشأت عن عهد أبي بكر ٨٦ - جمع القرآن على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ٨٧ - اختلاف المسلمين في قراءة القرآن وفزع حذيفة من ذلك ٨٧ - قلق عثمان وفزعه من هذا الاختلاف ٩٠ - إحراق عثمان للمصاحف الخاصة ٩٣ - مصحف عثمان مستند إلى أصل أبي بكر المستند بدوره إلى أصل النبي ﷺ ٩٤ - إحراق مروان بن الحكم صحف حفصة بعد وفاتها ٩٥ - عدة المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الآفاق ٩٥ تجريد المصاحف العثمانية من كل ما ليس بقرآن ٩٧ - إرسال عثمان إلى كل إقليم حافظاً يوافق قراءته ٩٩ - أين المصاحف العثمانية الآن ؟ ١٠٠ - أحد المصاحف العثمانية كان لا يزال موجوداً في مستهل القرن الرابع الهجري ١٠١ رؤية ابن كثير وابن الجزري وابن فضل الله العمري للمصحف الشامي ١٠٢ - ١٠٣ - لا يعرف البجب العلمي كتاباً أكمل ولا أدق من القرآن ١٠٣ .

رسم القرآن ١٠٤ - ١١٢

إحاطة الرسم العثماني بهالة من التقديس ١٠٤ - غلو الزاعمين أن هذا الرسم توقيفي ١٠٥ - لأجل مقارنة الرسم العثماني بفواتح السور ١٠٧ - استحسان التزام هذا الرسم ١٠٨ - رسم القرآن اصطلاحياً ودليل ذلك ١٠٩ - رسم القرآن للعامّة بالاصطلاحات الشائعة في عصرهم ١١١ - ١١٢

ادخال بعض التحسينات على المصاحف العثمانية ١١٣ - ١٢٧

احتمال المصاحف العثمانية عدداً من الوجوه والقراءات ١١٣ - الملاحن والتصحيحات إنما تتعلق بطريقة الرسم ١١٤ - أول من نقط القرآن ١١٥ نقط أبي الأسود للقرآن لم يكن الا امتداداً لما يظن من سبقه إلى وضع العربية ١١٦ - لا تملك دليلاً محسوساً على أن يحيى بن يعمر كان حقاً أول من نقط القرآن ١١٧ - لعل عمل نصر بن عاصم الليثي في نقط القرآن أن يكون مواصلة لعمل أستاذه أبي الأسود وابن يعمر ١١٨ - اختلاف العلماء في نقط القرآن ١١٩ - الفرق بين النقط والتعشير ١٢٠ - الحرص على نص القرآن كان السبب في كراهة

النقطة قارة واستحبابه اخرى ١٢١ - الرموز المشيرة الى رؤوس الآي ١٢٢ -
كتابة العناوين في رأس كل سورة ١٢٣ - تجزئة المصاحف وتجزئتها ١٢٤ - إسهام
الحطاطين في تجويد المصاحف وتحسين كتابتها ١٢٥ - انتشار القرآن بواسطة
الطباعة ١٢٥ - ١٢٦ - أدق طبعة لكتاب الله ١٢٧

الأحرف السبعة ١٢٨ - ١٤٦

الأحاديث الصحيحة في نزول القرآن على سبعة أحرف ١٢٨ - قول أبي
عبيد بن جابر حديث الأحرف السبعة ١٢٦ - عبارة الأحرف تقع على معان
مختلفة ١٣٠ - هل العدد محصور في سبعة أم المراد التوسعة على القارىء؟ ١٣١ -
الأكثر على أنه محصور في سبعة ١٣٣ - ليست هذه الأحرف سبع لهجات ١٣٣ -
ولا سبع لغات ١٣٤ - مفهومات سقيمة في المراد من هذه الأحرف ١٣٦ -
نظرية القراءة بالمعنى وخطرها ١٣٧ - قراءة القرآن بالمعنى ليست كرواية
الحديث بالمعنى ١٣٨ - لعل المراد من هذه الأحرف السبعة الأوجه السبعة التي
وسع بها على الأمة ١٣٩ - اختلاف اللهجات هو أهم هذه الأوجه ١٤٣ - النقص
في استقراء الأقدمين للأوجه السبعة ١٤٥ - هذه الأوجه لا يجب التزامها في
الكلمة الواحدة ١٤٦

القراءات والقراء ١٤٧ - ١٦٣

القراءات السبع ليست هي الأحرف السبعة المذكورة في الحديث ١٤٧ -
عبارة « القراءات السبع » بدأت تشتهر على رأس المائتين ١٤٨ - القراء الأئمة
السبعة والمدن التي اشتهرت بها قراءاتهم ١٤٨ - ١٥٠ - القراءات العشر والقراءات
الأربع عشر ١٥١ - منع القراءة بالقياس المطلق ١٥٢ - موقف القراء من ابن
مقسم وابن شنبوذ ١٥٣ - توجيه القراءة الشاذة يعين على معرفة صحة التأويل
١٥٥ - القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ، والقراءة الشاذة ليست قرآناً ١٥٧ -
قراءة ابن مسعود ١٥٨ - قراءة أبي بن كعب ١٠٩ - ضابط القراءات المقبولة ١٥٩ -

أنواع القراءات من حيث السند سنة ١٦٠٠ - القرآن محكم على قواعد اللغة والنحو ، وليست هذه القواعد حكماً على القرآن ١٦٣

المكي والمدني في القرآن ١٦٤ - ١٨٩

معرفة المكي والمدني أكبر عون على تتبع المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية ١٦٤ خمسة وعشرون علماً من جهلها لا يحل له تفسير القرآن ١٦٤-١٦٥
مازل ليلاً ومازل نهاراً ١٦٦ - مازل في شدة البرد ١٦٧ - مازل في شدة الحر ١٦٨ - مازل في الحضر ومازل في السفر ١٦٨ - مازل في المغازي ١٦٩ - مازل بيت المقدس ، ومازل في الفضاء بين السماء والأرض ١٧٠ - دراسة المكي والمدني على أساس من المكان أو الزمان أو الأشخاص ١٧١ - مايشبه تنزيل المدينة في السور المكية ومايشبه تنزيل مكة في السور المدنية ١٧٢ - لكل آية في القرآن تاريخها ١٧٣ - حمل النازل القرآني من مكان إلى مكان ١٧٣ - تصدي المستشرقين لترتيب سور القرآن حسب تعاقبها في النزول ١٧٤ - المستشرق غريم H. Grimme وترتيبه القرآن على الطريقة المأثورة ، وما أخذ عليه ١٧٥ - المستشرق وليم موير William Muir والمراحل القرآنية الست ١٧٦ - طريقة المستشرق ويل Weil كانت نقطة الانطلاق في أجراً ! محاولة لترتيب القرآن ١٧٦-١٧٧
تأثر نولدكه وشفالي بطريقة ويل ، ثم تأثر بل ورودويل وبلاشير بنولدكه ١٧٧ - ترجمة بلاشير للقرآن هي في نظرنا أدق الترجمات لا يغض من قيمتها إلا فساد الترتيب الزمني ١٧٧ - ١٧٨ الروايات المتعلقة بالمكي والمدني لم ترد إلا عن الصحابة والتابعين ١٧٨ - الاعتماد على الرواية الصحيحة لا يتنافى مع أعمال الفكر والاجتهاد ١٧٩ - الاختلاف في أول ما نزل وآخره ١٨٢ - لمعرفة المكي والمدني طريقان : سماعي وقياسي ١٨٣ - خصائص السور المكية ١٨٤ - خصائص السور المدنية ١٨٦ - تنوع الموضوعات هو الباعث الأهم على تنوع الأسلوب القرآني ١٨٩

فواتح السور ١٩٠ - ٣٠٧

سرد ما في القرآن من هذه الفواتح ١٩٠ - الرأي القائل بأن هذه الفواتح إنما

سردت على نمط التعديد تحديداً للعرب ١٩١١ - حوت الفواتح من كل جنس من الحروف نصفه ١٩٢ - الفواتح من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ١٩٣ - عد هذه الفواتح على حساب الجمل وسخف هذه الآراء ١٩٤ - شطحات الصوفية في تفسير هذه الفواتح ١٩٥ - ١٩٦ هذه الفواتح من أسماء الله أو رموز تشير إلى الغرض من السور المفتحة بها ١٩٧ - رأي عقيم للمستشرق سبرنجر Sprenger في هذه الفواتح ١٩٩ - أهي اسم الله الاعظم ؟ ٢٠٠ - نظرية المستشرق تولدكه التي رجع عنها ٢٠١ - رأي المستشرق بلاشير بضرورة الرجوع إلى النظرية الإسلامية نفسها ٢٠٢ - هذه الفواتح أدوات تنبيه ٢٠٣ - استبعاد السيد رشيد رضا جعل التنبيه للنبي عليه السلام ٢٠٤ - لعل رأي السيد رشيد رضا أن يكون أصوب الآراء في حكمة هذه الفواتح ٢٠٥ - ٢٠٧

الحكم والمتشابه في القرآن ٢٠٨ - ٢١٥

الحكم والمتشابه من خلال الآية السابعة من سورة آل عمران ٢٠٨ - أكثر العلماء على أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ٢٠٩ - رأي الراغب أن المتشابه من حيث إمكان الوقوف عليه ثلاثة أضرب ٢١٠ - ود الآيات المتشابهات إلى المحكمات ٢١١ - مذهب السلف ومذهب الخلف في متشابه الصفات ٢١٣ - الحكمة من ورود المتشابه في القرآن ٢١٢ - ٢١٥

منطوق القرآن ومفهومه ٢١٦ - ٢٢٢

القرآن يفسر بعضه بعضاً ٢١٦ - تعريف المنطوق ٢١٧ - تعريف المفهوم ٢١٨ - مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة ٢١٩ - المفهوم الوصفي ٢١٩ - المفهوم الشرطي ٢٢١ - المفهوم الحصري ٢٢٢

عام القرآن وخاصه ٢٢٣ - ٢٣٠

تعريف العام ٢٣٣ - صيغ العموم ٢٣٤ - هذه الصيغ تعين العموم تعييناً حقيقياً ما لم يرد مخصص لها ٢٣٥ - العام الباقي على عمومه ٢٣٦ - المدمج والمذموم

لا يخرج ان العام عن عمومه ٢٢٨ - الخاص وأنواعه ٢٢٨ - الحكم الذي يفيد

الخاص بدلالاته الحقيقية الوضعية حكم قطعي ٢٣٠

المجمل والمبين ٢٣٠ - ٢٣٤

تعريف المجمل ٢٣٠ تبين المجمل إما أن يرد متصلاً أو منفصلاً ٢٣٢ - قد

يقع تبين المجمل بالسنة النبوية ٢٣٣ - ما قال النبي صلى الله عليه وسلم من شيء

فهو في القرآن ، وفيه أصله ٢٣٤

النص والظاهر ٢٣٤ ٢٣٥

تعريف النص ٢٣٤ - دلالة النص واضحة صريحة ٢٣٤ - تعريف الظاهر

٢٣٥ - اللفظ لا يصرف عن المتبادر منه إلا بقريضة ٢٣٥

التفسير : نشأته وتطوره ٢٣٦ - ٢٤٩

النبي صلى الله عليه وسلم هو أول شارح لكتاب الله ٢٣٦ - أجدر الصحابة

بلقب المفسر هو عبد الله بن عباس ٢٣٧ - المفسرون من التابعين ٢٣٧ - التفسير

بالمأثور : الطبري ، ابن كثير ، السيوطي ٢٣٨ - ٢٣٩ - التفسير بالرأي والشروط

التي لا بد منها لباحته ٢٤٠ - تفسير الرازي ٢٤١ - تفاسير البيضاوي . بي

السعود ، النسفي ، الحازن ٢٤٢ - التفسير بالرأي لا مسوغ له إذا عارضه التفسير

بالمأثور ٢٤٣ - الطابع العقلي والمذهب الكلامي في تفاسير المعتزلة ٢٤٣ - تفسير

الزنجشيري ٢٤٤ - الشطحات في تفاسير المتصوفة ٢٤٥ - التفسير المنسوب إلى

الشيخ محي الدين بن عربي ٢٤٥ - التفسير الإشاري ونموذج منه في تفسير الآلوسي

٢٤٦ - تفاسير الباطنية ٢٤٧ - تفسير أبي حيان الأندلسي ٢٤٨ - تفاسير

المعاصرين : السيد رشيد رضا ، طنطاوي جوهرى ، سيد قطب ٢٤٨ - التفسير

بالمأثور إذا اجتمع إليه حسن الاستنباط هو أولى التفاسير بالاعتبار ٢٤٩

إعجاز القرآن ٢٤٩ - ٢٦٣

انهزام فصحاء العرب أمام تحدي القرآن لهم بمعارضته ٢٤٩ - الجاحظ وكتابه

(نظم القرآن) ٢٥١ - محمد بن زيد الواسطي وكتابه (إعجاز القرآن) ٢٥١

عبد القادر الجرجاني ذواقة للأسلوب القرآني ٢٥٢ - الرماني ورسائله (النكت
في إعجاز القرآن) ٢٥٥ - الباقلائي و كتابه المشهور في (الإعجاز) ٢٥٥ - عناصر
الجمال الفني في القرآن في أبحاث المعاصرين ٢٥٥ - عناية مصطفى صادق الرافعي
بالنظم الموسيقي في القرآن ٢٥٦ - التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن
لدى سيد قطب ٢٥٩ - في الكتب التقليدية (عن علوم القرآن) أبواب توحى
بالكثير مما ينطق به مفهومنا الحديث للإعجاز ٢٦٢ - ٢٦٣

تشبيه القرآن واستعاراته ٢٦٣ - ٢٧١

مثل من التشبيه المركب ٢٦٣ - موضع الجمال الحقيقي في مشهد الحياة
القصيرة ٢٦٤ - ظاهرة التشخيص في القرآن ٢٦٦ - مساوى التعميد عند الأقدمين
٢٦٨ - تحليلات موفقة تبرز جمال الصورة القرآنية عند علمائنا السابقين ٢٦٩ -
الحياة والحركة والتناسق الفني في المشاهد القرآنية ٢٧٠

المجاز والكناية ٢٧١ - ٢٧٩

براعة العلماء السالفين في توفير الشواهد على التعبير المجمل ٢٧١ - المجاز العقلي
٢٧٢ - إنكار بعض العلماء وقوع المجاز في القرآن ٢٧٣ - الكناية من أبلغ
الاساليب في الرمز والإيماء - كناية القرآن عن الحقائق الدينية الكبرى المتعلقة
بذات الله وصفاته ٢٧٦ - مجاوزة الكناية إلى التعريض ٢٧٧ - يدق التعبير
القرآني في مواطن التعريض حتى يصبح ظللاً ٢٧٩

خاتمة ٢٨٠

مسرد الأعلام ٢٨١ - ٢٩٣

جريدة المراجع ٢٩٤ - ٣٠٢

تصويبات ٣٠٣ - ٣٠٤

استدراكات ٣٠٥

فهرس الموضوعات ٣٠٦ - ٣١٣

« وآفر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين »

تم بعونه تعالى طبع هذا الكتاب
في مطبعة الجامعة السورية

في ١٥ ذي الحجة ١٣٧٧ هـ - ١ تموز ١٩٥٨

TEN BOND

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 095932123